حول واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين

ندوات الحوار

تقديم

الشيخ جميل عبد الرحيم حمامي

PASSIA

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس

حول واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين

تقديم

الشيخ جميل عبد الرحيم حمامي

PASSIA

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية في القدس **PASSIA**، مؤسسة أكاديمية أهلية مستقلة، لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتسعى من خلال برامجها إلى تعميم الفائدة من المعلومة والتحليل الموضوعي وإعداد ونشر بحوث ودراسات متخصصة وعقد دورات تدريب وتعلم في قضايا المجتمع المدني ومنها قضايا العقيدة والشؤون الدولية والدبلوماسية وتوثيق المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني وإطارها القومي العربي وبعدها الإنساني والدولي.

إن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية يهدف إلى تشجيع ودعم الباحثين إلى التخصص في دراسات وبحوث وعقد ندوات ومؤتمرات حول قضايا العقيدة ورسالات الأنبياء وإثراء الحوار بين الناس لتطوير العلاقة الإنسانية والحضارية بين المؤمنين والموحدين وتوظيف هذا الجهد في إطار من الحرية الأكاديمية لإبراز التعددية الفكرية والمنهجية والإسهام في خدمة المواطن والوطن الفلسطيني .

On Moslem Christian Relations
In Palestine
Edited by Jamil Hamami
First Edition – Dec. 1999

جميع الحقوق محفوظة للجمعية
(الطبعة الأولى) كانون أول ١٩٩٩

مطبوعات **PASSIA**

هاتف: ٦٢٦٤٤٢٦- ٢-٩٧٢ فاكس: ٦٢٨٢٨١٩ – ٢- ٩٧٢

بريد الكتروني: PASSIA@palnet.com

صفحة الإنترنيت : www.passia.org

ص.ب. ١٩٥٤٥ – القدس

المحتويات

صفحة

مقدمة ٥

- المقالة الأولى :"واقع ومستقبل العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين" الشيخ بسام جرار ١١

- المقالة الثانية: " واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين " الأب د . مارون لحام ٢٣

- المقالة الثالثة : " واقع العلاقة الإسلامية المسيحية " الشيخ حسن يوسف ٣١

- المقالة الرابعة: واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين "د . عطاالله حنا ٤٧

-المقالة الخامسة : " الجزية " - حسين محمود أحمد المهدي ٥٧

-المقالة السادسة : " الإسلام وأهل الذمة من أهل الكتاب" - د٠ اسماعيل نواهضه ٧١

-المقالة السابعة : " الحوار بين المسلمين والنصارى في فلسطين " د٠ محمد عبد القادرعابدين ٨٥

- المقالة الثامنة : المواطنة في الدولة المسلمة - الشيخ حسن يوسف ١٠١

-المقالة التاسعة : " وحدة الدين " إن الدين عند الله الإسلام "- د٠ سعيد سليمان القيق ١٠٩

- المقالة العاشرة : " نظرة الإسلام الى غير المسلمين " د٠ محمد عبد القادر عابدين ١٢٥

- المقالة الحادية عشرة: أحكام أهل الذمة في الدولة الإسلامية - د٠ حمزه ذيب مصطفى ١٥٥

- المقالة الثانية عشرة: النظرة الإسلامية إلى الآخر - الشيخ عكرمة صبري ١٧٧

- المقالة الثالثة عشرة : نظرة المسيحيين للآخرين - الأب بيتر مدروس ١٨٩

- المقالة الرابعة عشرة : نظرة الإسلام إلى غير المسلمين - د٠ محمد علي مصطفى الصليبي ٢٠٥

- المقالة الخامسة عشرة : نظرة الإسلام لغير المسلمين - الشيخ تيسير بيوض التميمي ٢١٩
- المقالة السادسة عشرة : نظرة الإسلام للآخر - د٠ ناجي عبد الجبار ٢٣٣
-المقالة السابعة عشرة : نظرة الإسلام للآخر - ابراهيم دعيبس ٢٤٧
-المقالة الثامنة عشرة : نظرة الإسلام للآخر - د٠ إبراهيم أبو سالم ٢٥٥

مقدمة

هل العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين متوترة وتمر في أزمة كما يصورها البعض أم أنها مجرد أوهام في ذهن البعض ؟؟ هل يمكن أن تقام علاقة بين المسلم والمسيحي على قاعدة الاحترام والاعتراف بالآخر؟؟ هل يمكن أن يقام مجتمع مدني في فلسطين يعيش فيه الجميع كما عاش الآباء والأجداد وفق تصورات وتاريخ هذه الأمة ؟؟ هل ما يروجه الإعلام الغربي عن العلاقة الإسلامية المسيحية حقيقي أم هو جزء من الحملة التي يشنها أعداء هذه الأمة حتى تبقى ممزقة ونقف موقف الدفاع ؟؟ .

أسئلة كثيرة تطرح وتدور في خلد الغيورين والمهتمين في تاريخ هذه البلد حاضره ومستقبله ، مستقبل أجياله الذين يتعرضون لضغوطات نفسية تكاد تعصف بهم. من هنا يأتي دور الحوار ، دور اللقاء ، دور سماع الآخر للآخر على قاعدة " تعالوا إلى كلمة سواء " نبغي بها أن نصل إلى حالة من التفاهم والتعايش والبناء على أسس تنسجم مع تلويخ وحضارة هذه الأمة التي استطاعت على مدار التاريخ أن تضع في بوتقة مجتمعها كل فئات الشعب وطوائفه ، ينعم الجميع بالحقوق الكاملة ، حقوق المواطنة ويؤدون بكل روح طيبة واجبات المواطن تجاه وطنه وبلده وأمته .

نعم ، إننا نؤمن أن لغة الحوار بين الأفكار المتباينة هي لغة الحضارة والرقي وهي لغة الذين يحترمون العقول ويقدرون الإنسان ، وهو منهج قديم مارسه الأنبياء من لدن آدم عليه السلام ، ومارسه بعدهم الدعاة والمصلحون من أتباع الديانات ، فهذا نوح يقول لقومه "يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون "[1] وهذا هود يقول لقومه "يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه ، إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكذبين ، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين "[2] وهذا إبراهيم يقول لقومه "اعبدوا الله واتقوه ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون "[3] ، وفي آية أخرى "إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ،

---

[1] سورة الأعراف الآيات من ٥٩-٦٣
[2] سورة الأعراف الآيات من ٦٥-٦٨
[3] سورة العنكبوت الآيات من ١٦-١٧

وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه لعلّهم يرجعون"[1]، وفي آية أخرى "إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون، قالوا نعبد أصناماً فنظلُّ لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرّون، قالوا بل وجدنا ءاباءنا كذلك يفعلون، قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وءاباؤكم الأقدمون، فإنهم عدوٌّ لي إلا رب العلمين، الذي خلقني فهو يهدين "[2]. وهذا موسى يقول لقومه "وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم "[3]، "وقال موسى يفرعون إني رسولٌ من رب العالمين، حقيقٌ عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني إسرائيل. قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصدقين "[4]، "وإذ قال موسى لقومه يقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين "[5]. وهذا عيسى يقول لقومه "ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط

---

[1] سورة الزخرف الآيات ٢٦-٢٨
[2] سورة الشعراء الآيات ٧٠-٧٨
[3] سورة إبراهيم آيه ٦
[4] سورة الأعراف الآيات من ١٠٤-١٠٦
[5] سورة الصف آيه ٥

مستقيم، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم "[1] وهذا خاتم الأنبياء عليه وعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم يقول لأمته "قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا، قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا "[2].

وهذا خاتم الأنبياء عليه وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام في حواره قومه: "وقال الذين كفروا أءذا كنا تراباً وءاباؤنا أئنا لمخرجون، ولقد وعدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة المجرمين "[3]. "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد، قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب، قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد "[4].

"أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم، قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي

---

[1] سورة الزخرف الآيات ٦٣-٦٥
[2] سورة الجن الآيات ٢٠-٢٢
[3] سورة النمل الآيات ٦٧-٦٩
[4] سورة سبأ الآيات ٤٦-٤٩

ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين، قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين "[1].

ولعلنا نحن هنا في فلسطين بحكم وضعنا الخاص والمميز والمعقد نتيجة الواقع المؤلم الذي نعيشه، واقع الإحتلال ومحاولات طمس الهوية الحقيقية لهذا الشعب في أمس الحاجة إلى فتح حوار على قاعدة " التعايش اليومي لأبناء الشعب الواحد". حوار لا نبغي من وراءه أن ندخل إلى قناعات كل طرف للآخر ، حواراً نقصد به بناء علاقة مجتمعيه تساهم في بناء الوطن وترسيخ الغيرة عليه دون تدخل من متربص أو حاقد.

إن الخلاف بين الأفكار أمر طبيعي لا يجوز أن يجرنا الخلاف إلى حالة المدابرة والتربص بالآخر ، والعداء بين ذوي الأديان المختلفة في الوطن الواحد من سياسات المستعمرين قديماً وحديثاً تحت قاعدة" فرّقْ تَسُدْ" ، وكانت الأجيال السابقة من بني الأوطان العربية والإسلامية أكثر تفهماً لمخاطر الفرقة والتمزق .

وإدراكاً منا في الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية بأهمية بناء المجتمع المدني في فلسطين وتفاعل وترابط أبناء الشعب الفلسطيني بشقيه المسلم والمسيحي ، من خلال توظيف أدوات المعرفة والعلم والحوار بين أطراف الشعب الواحد ، فقد دعت الجمعية إلى

---

[1] سورة الأحقاف الآيات ٨-١٠

سلسلة من ندوات الحوار بين علماء مسلمين ورجال دين مسيحي لهم حضورهم في المجتمع واحترامهم ومكانتهم ، على أمل أن يصل المتحاورون إلى صياغة توصيات لعل أصحاب القرار والمهتمين يهتدون بها .

إن النقاش القائم على الاحترام المتبادل واضحاً وصادقاً وصريحاً برزت خلاله أسئلة شجعتنا على الاستمرار في عقد هذه الندوات وتشجيع المشاركين فيها على توثيق آرائهم ، وهذا ما سيجده القارئ في مجموعة المقالات بين دفتي هذا الكتاب .

إن جدية هذه النخبة في البحث ، وحرصها من أجل الوصول إلى حالة من التفاهم والانسجام بين أبناء الوطن الواحد دفعنا إلى نشر هذه المقالات حتى تعم الفائدة .

أملنا كبير في أن يتصدر العقلاء وأصحاب الهمم العالية قضايا الأمة والشعب حتى يصلوا بهم إلى بر الأمان والاستقرار

والله ولي التوفيق هو ولّينا وحافظنا جميعاً

الشيخ جميل عبد الرحيم حمامي

القدس في كانون أول ١٩٩٩م

المقالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

واقع ومستقبل العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين

الشيخ بسام جرار*

عاش المسيحيون منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا في أرجاء البلاد الإسلامية، بحيث أصبح الإسلام بالنسبة إليهم تراثا، وتأثروا تأثرا كبيرا بالمجتمع المسلم الذي كان يمثل الأكثرية على مدار التاريخ الإسلامي. وقد وجدوا أنه من السهل عليهم أن يجمعوا بين مسيحيتهم وانتمائهم إلى المجتمع الإسلامي، لأن الإسلام يربي أتباعه على حقيقة الاختلاف وحتميته، ويجعل من القواسم المشتركة روابط كافية لإيجاد مجتمع متنوع تتعايش فيه القوميات والعقائد. ولا شك أن أربعة عشر قرنا من التعايش كافية لتجعل الوجود المسيحي من الحقائق الراسخة في المجتمع المسلم.

جاء في سورة الممتحنة: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين". يفهم من هذه الآية أن الإحسان في

* مدير مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية/ البيرة

معاملة غير المسلم من الأمور المستحبة في الإسلام، وكذلك العدل والإنصاف، بل إن العدل هو من الواجبات التي نصت عليها آيات كثيرة. أما الذين يحاربون المسلم لأنه مسلم، وأولئك الذين أخرجوه وطردوه من وطنه، فلا يجوز أن يكون بينهم وبين المسلم تناصر وتعاضد. وقد عرّف القرآن الكريم المسلم بحقيقة المسيحية، وبين له نقاط الاختلاف ونقاط الالتقاء. من هنا ليس هناك إشكال من جهة العقيدة الإسلامية، ولا من جهة الواقع التاريخي، بل إن الحروب التي سماها الغرب بالحروب الصليبية، سماها المسلمون القدماء حروب الفرنجة، ولم يخلط المسلمون الأمور، فقد ميّزوا بين المقاتل القادم من وراء البحار، والمواطن المسيحي غير المحارب.

إن الاختلاف في العقيدة والدين يشكل حاجزا، ويجعل الالتقاء والتفاعل يشوبه التكلّف والافتعال، ويصدق هذا على الأيدلوجيات المختلفة، والتي هي من صنع البشر. أما على الصعيد الإسلامي المسيحي ففي الوقت الذي يربي فيه الإسلام المسلمين على الأخوة الإسلامية، أي الاخوة في محبة الله وطاعته، ويجعل من المسلمين أمة واحدة، نجده أحيانا يضع بعض التشريعات التي تقيم الحواجز مع الآخرين، كتحريم زواج المسلمة من غير المسلم، ولكنه في المقابل يحض على العدل مع الآخرين، ويحض على التعامل بالحسنى مع جميع البشر، فالإنسان مخلوق مكرم ومستخلف في الأرض. وفي الوقت الذي يحرم الإسلام زواج المسلمة من غير المسلم نجده يسمح بزواج المسلم من غير المسلمة، مع ما في هذه العلاقة من ودّ ومحبة وتعاون بين الناس. والقرآن ينص صراحة على هذا. والإسلام يجعل من الواقعية والوضوح أساسا لبناء الثقة وأساسا لبناء الثقة وأساسا للتقارب بين المختلفين.

إن النظرة السريعة إلى واقع المجتمع الفلسطيني، وعلى وجه الخصوص النظرة من الداخل، تجعلنا نحكم أن صيغة التعايش بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين هي صيغة جيدة، إذا ما قورنت بالمجتمعات التي يمثل فيها غير المسلم الأكثرية. والمتفحص يشعر أن الغالبية من المسلمين والمسيحيين ترفض أي صيغة علنية للتفريق، بل هناك رغبة جماعية لترسيخ اللقاء، وهناك نفوز من أي مؤشر يكشف عن وجود خلاف. ثم إن المعاناة التي يعيشها الشعب الفلسطيني، تشبه النار التي تساعد على صهر المعادن المختلفة. ولا ننسى أن نسبة المسيحيين في فلسطين تقلل من احتمال الصدام، وذلك لتعاطف الأكثرية مع الأقلية، يقابله إدراك الأقلية لحساسية موقعها، ومن هنا يتطور لديها القدرة على التعايش، وينشأ لديها الرغبة في المسالمة، وهذا يلمس بوضوح في المجتمع الفلسطيني.

وتبقى هنا حواجز، ويحرص كل طرف على عدم الجهر بوجود هذه الحواجز، وتسود روح المجاملة، ويعتاد الناس هذا الواقع، ولا ننسى أننا نشخص واقع المجتمع بعيداً عن خصوصيات ما ينشأ من علاقات حميمة وودية تقارب واقع الصدق، وإذا كان هذا هو الواقع فان المستقبل قد يصبح افضل، مع احتمال أن ينتكس إلى الأسوأ، إلا أن العوامل الإيجابية أكثر توافرا، مما يجعلنا نشعر بالاطمئنان عندما نبحث العلاقة المستقبلية. ولكن لا يجوز أن تقودنا هذه العواطف وهذه المشاعر إلى موقف المتعامي عن العوامل السلبية التي يمكن أن تنمو وتكبر، ومن هنا لا بد من المصارحة ومواجهة الإشكالية في سبيل واقع أفضل.

من أجل فهم أفضل

هناك أمور لا بد من أن يتنبه إليها المسلم، وهناك أخرى لا بد من أن يتنبه إليها المسيحي، في سبيل فهم أفضل وتقارب أصدق وعلاقات أمتن:

- على المسلم أن يفهم سيكولوجية الأقلية، وأن يتعامل مع ذلك كحقيقة من حقائق الاجتماع البشري، وبالتالي عليه أن يفهم تحفّظ الأقلية المسيحية، وسلوكها الحذر، وتشككها تجاه الأكثرية، وعليه أن يدرك أن سلوك الأكثرية تجاه الأقلية هو الذي يخلق لديها مواقفها التي قد تبدو غير مقبولة. وفي الوقت الذي تعي فيه الأكثرية هذه الأمور يجعلها أكثر تقبلا وانفتاحا على الأقلية مما ينعكس إيجابيا على العلاقة المستقبلية.
- عندما يتكلم المسلم عن دينه يتكلم عن الحقائق السائدة في المجتمع وعن المسلمات، وكثيرا لا ينتبه إلى أن المسيحي يشعر بأن عقيدته تدان، وهذا يجعله يشعر بعدم الارتياح للموقف المجامل الذي يضطر أن يقفه. ولا يكاد المسلم يصدّق أن علاقة الآخرين بدينهم يمكن أن تكون قوية كعلاقة المسلم، وهذا الاعتقاد ينعكس في كلامه وسلوكه، مما يجعل المسيحي يشعر بأنه مهان.
- الدين الإسلامي دين عالمي وإنساني الأفق، ومن هنا يحرص المسلم على الدعوة الى عقيدته وفكرته، وهو يشعر بالسرور عندما يجد الآخرين يعتنقون الإسلام ، وهذا يجعل الأقلية المسيحية تتحسس إلى حد بعيد من هذه القضية، فعلى المسلم أن يتفهم ردود الفعل لدى المسيحيين، وأن يتعامل معها كأمر طبيعي في مجتمع شرقي يقيم للدين وزنا كبيرا. وفي المقابل يجدر بالمسيحي أن يتذكر ان المسلم لم يمارس عبر تاريخه الإجبار او الاضطهاد الديني، بل هو يحرص على أن يكون اعتناق الإسلام على أساس القناعة.
- اعتزاز المسلم بدينه، ورغبته في العودة إلى ربه لا ينبغي أن يشكل حساسية لدى المسيحيين، والصحوة الإسلامية لا تمس بحال أوضاع المسيحيين في المنطقة إلا في الجوانب

الإيجابية، لأن جهل المسلمين وبعدهم عن روح الإسلام الحقيقية، تجعلهم يفرطّون في حقوق بعضهم البعض، وفي حقوق الاقليات. بل إن التعصب ضد المخالفين هو من سمات المجتمعات الأقل وعياً، والأبعد عن روح الدين. في المقابل لا ينبغي أن يفهم المسلم أن في إقبال المسيحي على دينه تحدياً ونذير خطر، فحريته الدينية مكفولة منذ فجر الإسلام. أما عندما يظن المسيحي أن رجوع المسلم إلى دينه ينبغي أن يقابل بمظاهر مسيحية، فان هذا يعني أن لديه أوهاما، وأنه يسيء الفهم، ومن هنا على المسلم أن يتفهم ذلك ويبادر إلى علاجه بالحكمة.

- هناك من المسيحيين من يتصوّر أن تحصين المسيحيين من تأثير الإسلام يكون بإعطاء صورة مشوهة ومغلوطة عن الاسلام، وقد يكون مثل هذا الموقف عن سابق إصرار لدى بعض المبشرين، وهم يعتبرون أن الغاية تبرر مثل هذه الوسيلة، ولا شك أن مثل هذه المواقف تسيء الى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين. وأعطي هنا مثالاً بمعلمة مسيحية متدينة قالت بصوت عال على مسمعي ومسمع باقي الزملاء: يبني المسلمون المساجد في أوروبا بكل حرية، ولا يستطيع المسيحي أن يبني كنيسة في مكة!! عندما سمعت هذا الكلام لم أردّ، وقدّرت أنها تنطق بلسان من يزّف لها الحقائق وهي لا تدري. فواضح أن من قال لها هذا الكلام لم يقل لها أن مكة بقعة صغيرة جدا من العالم الإسلامي الذي تزيد مساحته عن ٣٣ مليون كيلو متر مربع، وأن مكة هذه خصوصية إسلامية لا يلزم أن تبنى فيها كنائس. ويبدو أنها تجهل أن الكنائس موجودة في العالم الإسلامي منذ وجد الإسلام، ومنذ كانت الدولة الإسلامية أعظم دولة في العالم، كدولة الراشدين، والأمويين، والعباسيين، والعثمانيين. ويبدو أنها لم تقرأ عن موقف أوروبا من المسلمين ومن المساجد، بل ان حداثة هذه المساجد لدليل على الموقف

الغربي من الإسلام، وما قصة المسلمين في إسبانيا عنا ببعيد. فما المانع أن يتدارك الغرب أخطاءه التاريخية ويسمح بناء المساجد لملايين من المسلمين يعيشون في الغرب؟! في المقابل لا بد أن يقوم المسلم بواجبه في إعطاء الصورة الحقيقية لموقف الإسلام من المسيحيين، فالجاهل معذور، والإنسان عدو ما يجهل، والغالبية العظمى من الناس لا تتعمد إساءة الفهم.

- لا شك أن الغرب يشعر أن المسيحي أقرب إلى مفاهيمه من المسلم في بلادنا، وهذا أمر مفهوم نظرا لوحدة الدين. وقد يساعد المسيحي الشرقي في تقريب وجهات النظر بين الشعوب الغربية والشعوب العربية والإسلامية، كما يمكن للمسيحي أن يكون حلقة الوصل من أجل الحوار الحضاري المتكافئ. ولكن الغرب الاستعماري يسعى إلى تحويل المسيحيين إلى وكلاء لتسويق حضارته ومفاهيمه، وقد نجح مع البعض ولم ينجح مع البعض الآخر، فهو لم ينجح مثلاً مع المسيحيين القوميين. وفي الوقت الذي يقبل فيه بعض المسيحيين أن يلعبوا دور الوكيل للمستعمر فإنهم يسيئون إلى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة. في المقابل على المسلمين أن يدركوا أن وكلاء الاستعمار ينتمون للإسلام والمسيحية، وعليهم أن يدركوا ان العلاقة القوية بين المسلمين والمسيحيين تقطع الطريق على محاولات الاستعماريين لتوظيف المسيحيين ضد أماني أقوامهم.

- الملحوظ في فلسطين أن المدارس الخاصة المسيحية تستقطب نسبة كبيرة من المسيحيين، مما يعني أن تفقد وجود الطلبة المسيحيين في المدارس العامة الحكومية، ولهذه المدارس الخاصة دور كبير في عزل الطلبة المسيحيين عن الطلبة المسلمين، مما يعمق الفجوة، فلا شك أن اجتماع الطلاب في المراحل الدراسية الأولى على مقاعد الدراسة يساعد في نشوء الصداقات، ويقود إلى تفاهم

افضل. ومما يخفف من مساوئ هذه المعازل – إن صح التعبير– وجود نسب لا بأس بها من الطلبة المسلمين في هذه المدارس الخاصة.

- لم تتحالف الأقلية المسيحية في فلسطين مع المحتل، بل تعرضت للاضطهاد كسائر الشعب الفلسطيني. وبهذا السلوك تجنبت الأقلية المسيحية الوقوع في أخطاء اليهود، عندما كانوا يتحالفون مع القوى المسيطرة في أكثر من بلد غربي، مما عرضهم للاضطهاد عندما تغيرت موازين القوى. وكذلك لم تظهر هذه الأقلية كقوة احتكارية في المجتمع الفلسطيني، ولم ينظر المجتمع الفلسطيني إلى غنى قطاعات من هذه الأقلية نظرة الريبة، لأن هذا الغنى جاء في سياق تطور المجتمع ككل، مسلميه ومسيحييه.

من أجل مستقبل أفضل

يشير الواقع الفلسطيني، والمعطيات المختلفة إلى أن العلاقة المستقبلية بين الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية مرشحة للتطور إيجابيا، وعلى الرغم من ذلك ينبغي التنبيه إلى أمور، حتى لا تنمو بذور الفرقة في التربة الفلسطينية:

- في الوقت الذي يلمس فيه القانون الذي يساوي بين الناس، ولا يفرق بين مسلم ومسيحي، وفي الوقت الذي يسود فيه الناس تحقق ذلك على أرض الواقع، نكون قد نجحنا في نزع فتيل أي اختلاف ممكن.
- لا مانع أن يراعي القانون خصوصيات المسلم والمسيحي، ويظهر هذا واضحا في قانون الأحوال الشخصية، ولا يجوز أن تنكر الأكثرية لخصوصية الأقلية الدينية، وكذلك لا يجوز باسم

الأقلية أن تحرم الأكثرية من ممارسة دينها كما تعتقد وتحب. ولا يعني التعايش أن يلقي كل طرف بدينه ومعتقده.

- إذا كانت المسيحية أقلية دينية، فهذا لا يعني أنها أقلية من ناحية الجنس فهم ينتمون إلى الأكثرية العربية، ثم هم أيضا ينتمون إلى الأكثرية الفلسطينية، أما الاختلاف في العقيدة فهذا أمر لا يخلو منه مجتمع. ولا بأس من التركيز على هذه الرابطة، أي رابطة الجنس والقوم.
- تمييز الأقلية على اعتبار أنها أقلية أمر مرفوض، لأنه يرسخ في ضمير المجتمع أنها أقلية تختلف عن الأكثرية وتناقضها. بل أن تمييز الأقلية يولد ردود فعل سلبية لدى الأكثرية. وقد تفطن بعض الكتاب من المسيحيين إلى هذا الأمر، فوجدناهم يجهرون في رفض أن يكون للمسيحيين مقاعد خاصة في المجلس التشريعي، وهذا موقف مسؤول تجاه الأقلية والأكثرية، وتظهر نتائجه الإيجابية على المدى الطويل.
- اعتادت الأنظمة الدكتاتورية في أكثر من بلد عربي أو إسلامي الاعتماد على الأقليات المختلفة لتثبيت أركان حكمها الظالم، وهذا الأمر لم يعرفه الشعب الفلسطيني حتى الآن، وليس من مصلحة المسيحيين أن يكونوا أداة للبطش أو التآمر أو الغزو الحضاري ، لأن مثل هذه المواقف قد تحقق المصالح على المستوى الآني، ولكنها تخلق دواعي الرفض على المدى الطويل.
- ينبغي التنبه إلى أن التبشير بالمسيحية ارتبط في هذا العصر في ذهنية المسلمين بالاستعمار، وستبقى هذه النظرة قائمة حتى يستطيع الواقع أن يغيرها، ولا يتوقع أن تتغير في الأمد المنظور، نظرا للملابسات القائمة، ومنها واقع الاستضعاف الذي تعيشه الشعوب العربية الإسلامية.

- يعتمد الكثير من المسيحيين في فهم الإسلام على كتابات المستشرقين وما حفلت به من آراء سلبية تأثرت بنظرة الغربيين للإسلام، وفي الوقت الذي نشهد فيه تغيراً إيجابياً في هذا المجال، فمن المتوقع أن تختلف الأمور في المستقبل على مستوى الدراسات العلمية الجادة.
- يساهم الإعلام المتحيز في توسيع الفجوة، وتعميق الشكوك وتضخيم الأوهام، إلا انه في المقابل أصبح من الصعب على الإعلاميين المغرضين أن يحجبوا الحقائق في عالم يتسم بسهولة الاتصال والتواصل، عالم يهدم الحواجز، ويرفض الاحتكار.
- أي علاقة مستقبلية يرجى لها النجاح لا بد أن تقوم على أساس من العدل والمساواة، ولنأخذ كمثال ما حدث في مدينة الناصرة من خلاف حول قضية وقف شهاب الدين، هذه القضية التي أخذت أبعاداً عالمية على مستوى الإعلام، ووتّرت الأجواء بين المسلمين والمسيحيين في المدينة، وكان لبعض المرجعيات تصريحات إيجابية، في حين تورطت مرجعيات أخرى بتصريحات تؤخذ عليها. ما الذي يمنع أن تؤخذ القضية ببساطة، ولا تكون بسيطة حتى تستند إلى العدالة. فهل الأرض التي اختلف عليها وقفيّة؟ ومن هذا شهاب الدين الذي سميت الأرض باسمه، وله فيها مقام؟...الخ. لماذا لا تكون المسألة إذن مسألة عدلية قائمة على أساس من الحق؟ وعند الاختلاف يكون هناك تحكيم. وقد يقول البعض إن التسامح يقتضي أن يتنازل المسلمون عن هذه الأرض الوقفية للمسيحيين لحاجتهم إلى ساحة تكون أمام الكنيسة، لأنهم أقلية. وهنا مكمن الخطر، لأنه يجدر بنا أن نتصرف على أساس من الحق والعدل فقط. وقد سبق للأقلية المسيحية في الدولة الأموية في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أن طلبوا هدم المسجد الأموي، الذي كان الأعظم في عصره، لأن لهم ادعاء في الأرض التي يقوم عليها المسجد،

وبحث المسلمون هذه المسألة، وتجلت روح العدل، وكان عمر بن عبد العزيز على وشك أن يهدم المسجد، لو لم يتم تسوية القضية على أساس من العدل والمساواة.

إن قيام جهات خارجية بالتدخل في هذه القضية، وقيامهم بالضغط على أطراف مختلفة، يدل على أن هناك خللاً في الفهم، وفي التعاطي مع المسألة الإسلامية المسيحية، وهذا السلوك هو من قبيل صب الزيت على النار، وهو إساءة إلى المسيحيين قبل أن يكون إلى المسلمين. فالجميع يعرف أن العالم الإسلامي كان ملجأ لليهود الذين يضطهدون في الغرب، حتى أن عصور اليهود الذهبية هي العصور التي عاش فيها اليهود مع المسلمين، وعلى وجه الخصوص في الأندلس، أما اليوم فإن ما وقع من ظلم على الشعب الفلسطيني من قبل اليهود بمساندة الغرب أساء إساءة كبيرة إلى التعايش الإسلامي اليهودي، وأساء إلى مستقبل اليهود في هذه المنطقة، بحيث لا يمكن تصوّر إمكانية التعايش على مدى قرن قادم، بل إن اليهودية مرفوضة تماما على مستوى العالم العربي والإسلامي.

- أدى قيام "دولة إسرائيل" في الأراضي الفلسطينية إلى هجرات ضخمة شملت المسلمين والمسيحيين، واستمرت هذه الهجرات وبلغت أوجها بعد حرب عام ١٩٦٧ والسيطرة "الإسرائيلية" على كامل الأرض المقدسة، وقد ساهمت سياسات "إسرائيل" في تفريغ الأرض الفلسطينية من سكانها، ولم تفرق "إسرائيل" بين مسلم ومسيحي، فقد استهدفت سياساتها كل ما هو عربي فلسطيني. واليوم يمكن أن يلحظ الدارس أن نسبة المسيحيين في فلسطين قد تراجعت إلى حد كبير، ويبدو أن سياسة التهجير نجحت على صعيد المسيحيين الذين يسهل عليهم الإندماج في المجتمعات الغربية، وجاء هذا موافقا لرغبات "الإسرائيليين" وحلفائهم من

الغربيين. فالمطلوب أولا نفي كل ما هو عربي فلسطيني، ولا شك أن المجتمعات الغربية ترغب في هجرة المسيحيين إليها أشد مما ترغب في هجرة المسلمين. وقد كان للمدارس الخاصة المسيحية الدور البارز في إعداد الطالب المسيحي لتقبل الثقافة الغربية، مما سهل عليه الهجرة، ومن ثم الانخراط في المجتمعات الغربية. وتتهم بعض المؤسسات الغربية بتسهيل هجرة المسيحيين من الفلسطينيين. إن الوجود المسيحي العربي في فلسطين يقوي من موقف الفلسطينيين عموماً في مواجهة المخططات الصهيونية، نظراً للتعاطف الغربي مع المسيحيين بسبب العقيدة المشتركة.

سألت رجل دين مسيحي عن توصيفه لواقع العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، فكان رده السريع: الوضع خطير!! أدهشني هذا الجواب فسألته على الفور. كيف؟ فأخذ يتكلم عن الجماعات المسيحية التي بدأت تظهر في فلسطين، وتقدّم لها جهات غربية مساعدات مالية، وتهدف في رأيه إلى تشتيت الإنتماء المسيحي، وبالتالي إضعاف المسيحيين. وذكر بعض الأسماء التي يعتبرها ذات انتماء صهيوني. ويبدو أن هذه الجماعات تريد أن تقفز عن سلطة الكنيسة، ولا تعترف إلا بمرجعية الكتاب المقدس فقط. ففي رأي رجل الدين هذا أن انتماء الناس للكنيسة، وبالتالي انتماؤهم إلى المسيحية الحقّة يعتبر صمام أمان من أجل تحقيق علاقة إسلامية مسيحية أفضل. وهو يشعر في هذه الظروف أن هناك جهات مصنوعة تخدم الأهداف الصهيونية في المنطقة، وبالتالي تتناقض مع الإيمان الإسلامي والمسيحي. وهو يرى أن المسيحي الحقيقي يتصف بالتسامح وقبول الآخر. أما المسيحية المسيّسة فقد تسيء إلى التعايش الإسلامي المسيحي في المنطقة. ولفت انتباهي أنه تحدّث عن دوره في توعية المسيحيين، وانتقاده في مواعظه لبعض المظاهر السلبية، أكثر

مما تحدث عن شكواهم من واقع العلاقة مع المسلمين. ولا شك أن هذا موقف إيجابي يمكن أن يثمر علاقات أفضل. فالأصل أن أرى العيب في نفسي قبل أن أراه في غيري. ويقال هذا الكلام للمسلمين والمسيحيين على سواء.

عند الحديث عن العلاقة الإسلامية المسيحية قد يعمد البعض إلى إثارة الجدل حول بعض المسائل المتعلقة بمفاهيم إسلامية كمفهوم " أهل الذمة" ومفهوم الجزية" وغيرها من أمور قليلة معدودة. والذي يبدو لي أن هذا المسلك هو مسلك من يتعامل مع الشكل بعيداً عن حقيقية الجوهر. والأصل أن ننظر كيف يفهم علماء الإسلام هذه المفاهيم. ولا يجوز أن نصدّر أفهاماً غريبة إلى المفهوم الإسلامي. كما لا يجوز أن نحكّم مفهوم العوام، كذلك لا يجوز إحياء ملابسات تاريخية أساءت إلى مفهوم ما. في المقابل لا يعنينا كيف كان المسيحي في العصور الوسطى يفهم الأمور، بل الذي يعنينا الآن كيف يفهم المسيحي اليوم مسيحيته، وكيف ينظر من خلالها الى الآخرين. وكيف يمارس على أساس من مفاهيمه هذه. ففي الوقت الذي يتغنى فيه المسلم بتسامح أجداده يكون ذلك مؤشرا أيجابياً، لأنه لا بد أن يستلهم منهم التسامح. وإذا نظرنا اليوم إلى كتابات المعاصرين من المسلمين نجد إبرازاً لمواقف صلاح الدين المتسامحة، في المقابل نجد من ينبش تاريخ الحاكم بأمر الله الفاطمي ليقول إن هناك في التاريخ الإسلامي خلفاء اضطهدوا الآخر. وعلى أية حال فقد سمع أكثر المسلمين بصلاح الدين وتسامحه، ويندر أن نجد من يقرأ عن الحاكم بأمر الله الفاطمي، بل إن من قرأ عنه يخبرك عن شخصية غريبة الأطوار وغير سوية، فالذي يعنينا هو السائد وليس المتنحّي.

****

المقالة الثانية

واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين

الأب الدكتور مارون لحّام*

مقدمة

أظن أن المطلوب ليس بحثاً نظريا أو أكاديمياً حول العلاقات المسيحية الإسلامية بنوع عام، ولا حتى في فلسطين بنوع خاص، بقدر ما هو محاولة لعرض " واقع" هذه العلاقات في مكان وزمان محددين. أي في فلسطين الآن، عام ١٩٩٩. من هنا أريد لهذا الحديث أن يتميّز بالواقعية أكثر منه بالمبادئ والنظريات العامة أو الوقائع التاريخية.

١. أبدأ بتوضيح بعض المفاهيم، كي نعرف عما نتكلّم: فهناك التعايش وهناكَ الحوار وهناك النقاش وهناك الدفاع.

- التعايش هو التركيز على ما يجعل الحياة المشتركة بين المسيحي والمسلم ممكنة وهنيئة.

---

* رئيس المعهد الأكليلي – بيت جالا

- الحوار هو تقابل شخصين مؤمنين ومختلفين في العقيدة، بحيث يعرف كل واحد كيف يفكر الآخر وماذا يؤمن وكيف يعيش أيمانه،ويحترم قناعاته ومعتقده وطريقة حياته.
- النقاش هو تمرين فكري يعرض كل واحد فيه براهينه أمام الآخر المختلف بغية إقناعه بصحة وجهة نظره.
- الدفاع هو جهد يقوم به من يشعر أنه مهاجم أو معارض ليبرّر صحة ما يعتقد به. نحن في صدد التعايش، وأرجو ألا نخرج منه.

٢. التعايش بين المسيحيين والمسلمين في فلسطين اليوم جيد بنوع عام. وهذه نقطة إيجابية يجب إبرازها وشكر من عملوا على تحقيقها. والتعايش الإيجابي له أكثر من مستوى، وهنا قد يختلف التقييم.

- المستوى الرسمي أو الحكومي: لا توجد مشكلة، القانون واضح، والمساواة مضمونة.
- المستوى الأكاديمي: أي مستوى الطبقة المثقفة – مسيحياً وإسلامياً – لا توجد مشكلة، فالعقول كبيرة والآفاق واسعة والعلاقات جيدة والقناعات ثابتة.
- المستوى الشعبي: أي الشارع الفلسطيني العادي. هنا نجد في الأمور تفاوتاً كبيراً. أريد أن أذكر ما أشعر به شخصياً، أو بالأحرى ما يشعر به الإنسان المسيحي العادي، عندما يتعامل مع الشارع الفلسطيني المسلم. فهو يجد امّا جهلاً أو نظرة ريبة وحذر، تسبب له إحراجاً، ومردها أفكار مغلوطة عن الدين المسيحي وعن الإنسان المسيحي. أرى أن المسلم العادي، مسلم الشارع– بالمعنى الإيجابي لكلمة الشارع – يشعر أنه لا يستطيع أن يتعامل مع المسيحي الفلسطيني براحة تامة أو ثقة تامة، أي كفلسطيني ١٠٠٪، وذلك

باسم إيمانه المسلم، أي لكونه مسلماً. ما مرد ذلك؟ مرد ذلك الجهات المسئولة عن تثقيف المسلم العادي – مسلم الشارع – وهي برأيي لا تقوم بما يلزم وهذه الجهات تتمثل في مؤسستين كبيرتين: التربية والتعليم والوعظ في المساجد.

- فمنهاج التربية والتعليم، – وهي منهل تثقيفي من الطراز الأول – لا تحمل الطالب المسلم، لا سيما من لم يختلط في مدرسته أو في بلده بزميل مسيحي، على اعتبار الفلسطيني المسيحي أخاً ومواطناً مساوياً له في كل شيء، بغض النظر عن معتقده الديني. ثم أن التربية الدينية "الإسلامية" ومنابر الوعظ والإرشاد في المساجد لم تتوصل بعد إلى الشجاعة اللازمة للخوض في هذا الموضوع. فهي أما تتجاهله، إما – إن تطرقت إليه – فمن باب التسامح مرة ومن باب التعرض مرات. ما يطلبه المسيحي الفلسطيني هو أن من ينهل العلم من المدرسة الفلسطينية يعلم أن المجتمع الفلسطيني متعدد (بغض النظر عن النسبة العددية)، وان العروبة تضع المسيحي والمسلم في بودقة واحدة. كما يريد المسيحي الفلسطيني أن يسمع من مكبر الصوت الصادر عن المسجد الخطاب التالي: " أيها المسلمون، إن مسيحي هذه البلاد أخوة لكم (في العروبة إن لم يكن في الإيمان)، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. هم براء مما يقوم به الغرب من عمل سياسي. لهم دينهم ولكم دينكم، وأنتم وإياهم في خندق وطني وسياسي واجتماعي واحد، لكم تاريخ واحد ومصير واحد". هذا الخطاب لم يسمع بعد.

وأنا إن تطرقت إلى المسجد والى رجال الدين، فلسبب واضح: فالدين – في الشرق – ينفذ إلى جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة وينعشها ويؤثر فيها إما سلباً وإما إيجاباً. من هنا، فإن

لصوت رجال الدين وتوجيهاتهم أثراً حاسماً في نفوس المؤمنين، لا سيما من الشعب العادي او البسيط، بالمعنى الإيجابي دوماً.

٣. نقاط بحاجة إلى توضيح:

أقول ذلك لأنني لا أريد أن أتكلم عن أزمة بالمعنى الحصري، ولا عن سوء تفاهم صادر عن مواقف مبدئية- آمل ذلك. بل أقول أمور تسبب إزعاجاً وتحتاج إلى توضيح، لا سيما إن كان الفلسطيني المسلم غير عالم بها أو غير واعٍ لها:

- ربط المسيحي الفلسطيني – والمسيحي العربي بنوع عام – بالغرب الذي يدعى "مسيحياً"، لا سيما في المجال التاريخي (في الماضي) والسياسي والأخلاقي (اليوم). هذا أمر يزعج الإنسان الفلسطيني المسيحي. فهو تاريخيا لا علاقة له بما قام به الغرب من حروب في الماضي البعيد او استعمار في الماضي القريب. يشعر المسيحي الفلسطيني هنا بتحامل موضوعي وشخصي. كما أن لا علاقة له بالسياسة التي ينتهجها الغرب اليوم تجاه القضية الفلسطينية بالتحديد او الشرق الأوسط بنوع عام.
- عقلية الأكثرية والأقلية. هذه مشكلة. مشكلة لأن لها تفاعلات في داخل الأكثرية والأقلية، وهذه التفاعلات تتحكم في تصرفات الجهتين وتقود إلى الكثير من المواقف المزعجة والتوتر وسوء الفهم وردود الفعل المبالغ فيها. أبدأ بكلمة " أقلية ". فهي برنة (تدل على واقع ٣٪ مقابل ٩٧٪ من المجتمع الفلسطيني) لا مانع، بيد ان هذا الواقع اصطبغ في الماضي بحيثيات وظروف وأطر فكرية واجتماعية لا يرضاها المسيحي الفلسطيني اليوم (نظام الذمة الإسلامي، نظام الملّة التركي، إحدى الأقليات الغريبة

الموجودة في البلاد حسب التفكير الإسرائيلي "دروز" "بهائيون" . .) . الفكرة الكامنة وراء ما يرفضه المسيحي الفلسطيني اليوم هي فكرة "الأقلية" التي تحتاج إلى حماية أو رعاية أو احترام مشاعر او تسامح أو حرية عبادة أو نظام اجتماعي خاص أو حتى امتيازات. بتعبير آخر، أقلية تحتضنها أكثرية وتحميها .يقبل المسيحي الفلسطيني انه يشكل ٣٪ من نسبة السكان، ولو عن مضض. لكنه يعتقد ان النسبة العددية شيء والحقوق والواجبات شيء آخر .فمجرّد كونه فلسطيني (او أردني او مصري...) يخوّله الحصول على ١٠٠٪ من الحقوق ويفرض عليه ١٠٠٪ من الواجبات ، فالحقوق والواجبات أساسها الإنسان لا العدد، وكرامة المواطن متأتية من إنسانيته (وإيمانه إذ أن المسيحي والمسلم يؤمنان كلاهما أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله، ولو بتعابير مختلفة) لا من "كثرة رجاله" . من هنا يفضل المسيحي أن يقول عن نفسه ان "عدده قليل" بدلا من أقلية منعاً للالتباس. وعقلية الأكثرية والأقلية تقود إلى تصرفات مرفوضة من قبل الأكثرية ومن قبل الأقلية على حدّ سواء .فالأكثرية تشعر بسهولة أنها الأقوى وإنها تستطيع أن تستهين بمشاعر الأقلية وتعتقد أن الأقلية أضعف من أن ترفع صوتها الخ. . (مثل حديث جدا: الفيلم عن السيد المسيح. مثل آخر التعدي على أراضي الغير) . ومن ناحية أخرى، تشعر الأقلية أنها مهددة في هويتها و في وجودها الآمن فتلجأ إلى إثبات ذلك بمظاهر مبالغ فيها تؤذي مشاعر الآخرين (مثل آخر حديث: رفع الصلبان على سطح البيوت في بيت لحم) ما المطلوب؟ سنأتي على ذكر ذلك في نهاية حديثنا .

- التربية الدينية في المدارس الحكومية. المقصود هو الحرية والمساواة التامة لتدريس مادة الدين المسيحي للطلاب المسيحيين في المدرسة الحكومية، مهما كانت نسبتهم إلى باقي الطلاب، بحيث ينطبق عليهم في هذا المجال ما ينطبق على الطالب المسلم من مناهج ونشاطات وتأهيل معلمين وامتحانات نهائية... يبدو الأمر سهلاً، وهو بالفعل سهل التطبيق، وتطبيقه حاصل- بنسب متفاوتة - في مختلف الدول العربية. بيد ان الوضع السائد في الأردن - وهو أقرب الدول إلى فلسطين - والوضع السائد حالياً في المناطق الفلسطينية ما زال بعيداً عن الهدف المنشود.
- لا شك أن العالم الإسلامي يشهد صحوة شاملة على مختلف الأصعدة. ليس هذا موضوع حديثنا. لكن هذه الصحوة - والتي هي نتيجة تفاعلات تاريخية وسوسيوسياسية - أفرزت عقلية تتسم بنظرة إسلامية بحتة تشمل جميع جوانب الحياة، هذه النظرة لا ترحم المسيحي الفلسطيني. ففلسطين لم تعد "عربية" بل "عربية إسلامية"، والقدس "وقف إسلامي" حتى فلسطين "وقف إسلامي"، والدين عند الله الإسلام"، وما يقوم به الغرب " حملات صليبية جديدة"، وأعداء الأمة هم الكفّار و"المشركون"...الخ.

٤. ما العمل؟

أول ما يجب القيام به هو الوعي لهذه الأمور التي - وان لم تصل إلى درجة الأزمة بالمعنى الحرفي/ وآمل أن لا تصل - تنكّد التعايش المسيحي الإسلامي في فلسطين اليوم. فكثيراً ما تصدر عن الإنسان أمور تؤذي الغير دون أن يشعر. وجميل أن يعرف الإنسان ذلك لا سيما أن تمتع بحسن الطوية، ولا أشك في ذلك.

يجب عدم السماح أن تأخذ أية قضية في موضوع التعايش المسيحي الإسلامي بعداً أكبر مما هي عليه في الحقيقة(أراضي، مس بالشعور الديني، تحرشات...) والخطر وارد من كلا الجهتين. يجب العمل على إيجاد مجموعة من الحكماء عند الطرفين لإعادة الأمور إلى حجمها الصحيح وحل الأزمات أولا بأول كي لا تسبب جفاءً بين الأخوة.

على القيادات الروحية، من كلا الطرفين – أن تسير عكس التيار في بعض الأحيان. فالرسالة التي يجب أن يسمعها الفلسطيني المسيحي والمسلم هي أن البعد الإسلامي جزء لا يتجزأ من الهوية المسيحية الفلسطينية كما أ ن البعد المسيحي جزء لا يتجزأ من الهوية الفلسطينية المسلمة. فالتاريخ الفلسطيني واللغة والحضارة والفكر والفلسفة ومختلف موارد العلوم والنهضة العربية الحديثة في القرن الماضي والقضية الفلسطينية والمقاومة والشهداء والمعتقلون والدولة إن شاء الله، كلها أمور سار فيها الفلسطيني المسيحي والمسلم جنباً إلى جنب. ونشر هذه الرسالة يحتاج أحياناً – كما ذكرت– إلى السير عكس التيار. لأن هناك عقليات تكونت وردود فعل أصبحت في حكم الوعي الباطن وتخوّفات وأحكام مسبقة أصبحت شبه مسلمات. وهذا صحيح بالنسبة للمسلم كما هو صحيح للمسيحي الفلسطيني. المطلوب هو السير عكس هذا التيار، والأمر صعب وطويل لكنه ضروري.

وفي الختام

ما ورد لا يقصد شخصا بالتحديد. ما قيل يتجه إلى عالم المؤسسات والأفكار العامة لا إلى الأشخاص. فالعلاقة بين الفلسطيني المسيحي والمسلم – في النهاية – ليست مقارعة خصوم. وان حدثت مقارعة على نقطة ما أو أكثر، فبهدف الوصول إلى الحقيقة. عندها تصبح المقارعة عمل محبة يهدف إلى فتح عيني الآخر ومساعدته على السير في الطريق السليم في التفكير والتعامل. وبهذا يصبح بالفعل خليقة الله، كريما بكرامة الله وأخا حقيقيا وصالحا لكل إنسان.

****

المقالة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

واقع العلاقة الإسلامية المسيحية

الشيخ حسن يوسف*

تقديم

من بدهيات الأمور أن الدين الإسلامي رباني التنزيل، وجاء لعموم البشر كي يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو ليس محصورا لفئة دون أخرى ولا لمكان دون آخر، ولا لزمان دون زمان آخر، وهو ينسجم مع حياة البشر في شتى مناحي الحياة وجوانبها وفي كل الأحوال والظروف.

بمعنى أن هذا الدين ليس محلياً ولا إقليمياً بل عالميا شمولياً ملبياً لحاجات البشر ومنافعهم. وهو دين مرن بمقدوره التعاطي مع غيره بكل أريحية دونما غلق أو رفض للغير أو التنكر لوجوده أو الإلغاء من واقع الحياة، لا بل يقر بواقع الغير بكل جلاء ونقاء.

---

* رئيس قسم الزكاة في مديرية الأوقاف – رام الله

ومن هؤلاء الذين يقرّ الإسلام بواقعهم أهل الكتاب وعلى وجه الخصوص المسيحيون. وإسلامنا يفرض على أتباعه الإيمان بالأنبياء السابقين، ويقرّ أنهم حملوا رسالات هداية لأقوامهم، وبالتالي فهو كما أشرنا دين مرن يعتمد في علاقته بالآخر على المحاورة، قال تعالى:"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم."[1]

إن من ينكر نبياً من الأنبياء والمرسلين الذي سبقوا محمدً صلى الله عليه وسلم أو كتابا من الكتب السماوية هو خارج من دائرة الإسلام. وهذه هي قمة النظرة الإيجابية للغير من غير لبس أو غموض. إن أساس التعامل والعلاقة مع غير المسلمين في المجتمع المسلم ومن هم خارج المجتمع المسلم من أهل الكتاب الخطوط العريضة والواضحة التي يرسمها القرآن الكريم في قوله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون".[2]

وهناك حشد هائل من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ومواقف الصحابة والتابعين وجلّ السلف الأكارم التي ترسم طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون مع النصارى والمسيحيين.

ويتبنى الإسلام معهم علاقات اجتماعية وطيدة، فأحل الله لنا أكل طعامهم والزواج من نسائهم. والزواج يعني من بين ما يعني أنه من أجل الود والرحمة، فقال تعالى:" اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات

---

[1] سورة العنكبوت / آية ٤٦

[2] سورة الممتحنة آية ٨-٩

والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن* محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان.

وعن سعيد بن المسيب "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم" [1] . وماتت أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية، فشيّعها أصحاب رسول الله عليه وسلم. [2]

وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيباً من صدقة الفطر لرهبان النصارى، وذهب بعض علماء المسلمين الى جواز إعطائهم من زكاة المال نفسها. [3]

وذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك، قال حديث الدار قطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق (من أعلام المالكية) دخل عليه الوزير عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي، فقام له القاضي ورحب به، فرأى إنكار الشهود لذلك، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل قد علمت إنكاركم، وقد قال الله تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم" .وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد وهذا من البر [4] .

---

* أجورهن / المقصود المهور وهو ما يقدمه الزوج للزوجة على سبيل الهدية

[1] كتاب الأموال – ص ٦١٣

[2] المحلى لابن حزم – ج٥/ص ١١٧)

[3] فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي

[4] فقه الزكاة / يوسف القرضاوي / ١٧٤

إن أساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين يرجع إلى الحقائق التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين. فنحن نعتقد بكرامة الإنسان أياً كان دينه أو جنسه أو لونه والإطار العام لذلك قوله تعالى: " ولقد كرمنا بني آدم" [1] .

وقد مرت جنازة من أمام النبي عليه الصلاة والسلام فقام لها واقفاً فقيل له: " يا رسول الله إنها جنازة يهودي، فقال أليست نفساً" . (رواه البخاري)

ونحن لسنا مكلفين أن نحاسب الكفار على كفرهم، إنما يحاسبهم الله سبحانه وتعالى وحده، وهو عز وجل يجازي المحسن بالمثوبة والمسيء بالعقوبة، قال تعالى: " فإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون" [2]

ونحن نؤمن أن الله يأمر بالعدل، ويسعى المسلم جاهداً لتجسيد ذلك وإقراره حتى لو كان عند طرف آخر، قال تعالى:" ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى" [3]

والإسلام يدعو أهل الكتاب دوما إلى المحاورة وتحديد نقاط التقاء مجتمعية وحول قضايا كبرى هامة، قال تعالى:" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. [4]

وأما الممارسات العملية والسلوكية مع أهل الكتاب فهي تقوم أيضا على أساس الاحترام والتكريم للنفس البشرية فلا يجوز إيذاؤهم فهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من آذى ذمياً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" . [1]

---

[1] سورة الإسراء آيه ٧٠
[2] سورة الحج آيه ٦٨-٦٩
[3] سورة المائدة /آية ٨
[4] سورة آل عمران آيه ٦٤

وقال عليه الصلاة والسلام "من ظلم معاهداً او انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة" [2] .والمقصود بالإيذاء بكل صورة مادياً، ومعنوياً.

ولا يجوز الاعتداء كذلك على الكنائس أو مضايقها، ولا يجوز منع الزوجة الكتابية من الذهاب للكنيسة حتى ولو كان زوجها مسلماً، والصورة الجلية ترسمها لنا العهدة العمرية: حينما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بيت المقدس." هذا ما أعطى عبد الله: عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود..." (رواه الطبراني)

إن نظرة التسامح التي يبديها الإسلام تجاه النصارى وعموم أهل الكتاب وتفعيلهم في المجتمع المسلم ومشاركتهم في حقوق المواطنة من دون تكلف أو مواقف نفعية أو آنية، إنما هو موقف استراتيجي وثابت لأن الإسلام هو الذي غرس هذه الأمور في قلوب المسلمين وضمائرهم.

هذه النظرة ينبغي التأكيد عليها كون أن هذه النظرة تكون من خلال ما تمليه علينا عقيدتنا وفهمنا لإسلامنا الذي يبني عليه أي موقف وأي خطوة نخطوها تجاههم.

إن النصارى لنا منهم موقف خاص كونهم عاشوا ولا زالوا بالملايين بين ظهرانينا، ولنا تعاطف خاص معهم، والقرآن الكريم مرجعنا ومصدرنا الأساسي سجل ذلك في قرآن يتلى إلى يوم

---

[1] رواه الطبراني باسناد حسن
[2] رواه ابو داوود والبيهقي

القيامة، فمثلاً حينما انتصر الفرس عبدة النار على الروم النصارى، حزن المسلمون كثيراً، عن هزيمتهم في الصراع الدموي الذي كان مع الفرس، وطمأن الله المؤمنين أن الله ناصر النصارى خلال فترة وجيزة، فقال الله في محكم التنزيل: " غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم." [1] .

بل ويحكي القرآن الكريم ويؤكد أن النصارى هم أقرب إلينا من أهل الكتاب فقال : " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا ان نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا من الشاهدين" [2]

ونرى هذا الأمر يتجلى بأروع صوره حينما دفع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه المقهورين والمستضعفين من قبل كفار قريش للهجرة مرتين إلى الحبشة ليعيشوا تحت مظلة ملكها النجاشي كون أنه لا يظلم عند أحد كما أشار بذلك النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فيفسح لهم المجال والأبواب على مصاريعها لحرية الاعتقاد والعبادة والحركة، بل ويتحدى قريشاً انه لم يسلمهم لهم رغم وسائل الضغط والإغراء والعطاء والتلويح بعصى الترهيب من قبل قريش، وهو موقف مسجل بمدار المدح والتقدير في تاريخنا العزيز.

---

[1] سورة الروم /آية ١-٥

[2] سورة المائدة /آية ٨١

إننا أردنا من خلال سردنا لما سبق وهو يسير من كثير ولا مجال لحصره هنا أن نضع بين يدي القارئ ولمن يبحث عن الحق والحقيقة وصدق تحركنا وحركتنا عملياً وليست قولياً في التعامل والتعاطي مع النصارى لا لشيء إلا لكونهم أقرب من غيرهم إلينا مع توضيح أمر لا بد منه، ان درجة قرب النصارى منا ينطلق من منطلق واحد لا ثاني له ألا وهو مدى قربهم أو بالأحرى تعلقهم بفكرتهم التي نؤمن بها ابتداء بغض النظر عن رؤيتنا وملاحظتنا العقيدية والسلوكية عليها، ونحن نعي أنه كلما ابتعدوا عن فكرتهم ومبدئهم ودخلت كذلك عوامل أخرى ودوافع ومبررات توسعية أو نفعية فإن واقعنا الإسلامي أرضاً وقبلها إنساناً تعرضوا لأصناف من الأذى والتاريخ يشهد بذلك.

ويجب أن لا نغض الطرف بل نتكاشف ونتصارح ونضع النقاط على الحروف أن ما أقدم عليه الصليبيون في حروبهم ضد شرقنا وهويتنا وحضارتنا، وما تبعد بقرون الاستعمار الغربي من مختلف دوله ومحاورة هي نتيجة ما أشرنا إليه في الفقرة السالفة الذكر، هذه الفترة التي لم ينج منها المواطنون في الشرق بمن فيهم النصارى هنا الذين يعيشون بين ظهرانينا وأكلوا بنارها كما اكتوينا نحن المسلمين.

مع التأكيد أننا لا نؤمن بالثأر ولا يوجد في قاموسنا وأدبياتنا وأخلاقياتنا بالرد على النار بالمثل خاصة مع من لم يتورطوا في جحيمها ولا أدل على ذلك من أنه حينما انتصر صلاح الدين الأيوبي العبد الصالح المسامح على أحفاد أولئك الذين عاثوا في ديارنا الفساد والتقتيل والتنكيل لم يتعامل معهم إلا بكل تسامح وبما تعنيه هذه الكلمة من معاني، ومن أراد الاستزادة فعليه العودة الى ذلك. مع يقيننا أن الحملات الصليبية لم تكن دفاعاً عن نصارى الشرق ولا عن الأماكن المقدسة

وإنما هي حرب استعمارية توسعية مستهدفة للشرق بكل قيمه الخيرة. ولذا عندما انتهت تلك الحروب لم تخلف جراحاً وإنما خلفت وفاقاً.

نحن نقرّ واقع الغير ولا نسعى وليس في خاطرنا لإلغاء الغير بل نتعامل معه الشريك في الآلام والآمال والطموحات وعندنا المخزون الهائل ورصيدنا الزاخر الذي يتسع للآخرين، فلسنا منغلقين ولا تغمض أعيننا عن الواقع. نحن أصحاب فكرة تحررية تضيء الطريق وتنوّره لنا ولغيرنا، قال تعالى:

"كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد." [1]

نحن أصحاب فكرة هدفها وغايتها تعبيد الناس لرب العالمين ومن الجور والظلم إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

نحن لا نضيق ذرعاً وحرجاً بالتعامل مع من يخالفنا في الفكرة والنهج وحتى في الأهداف، نؤمن بحرية الاعتقاد والتعددية واحترام الرأي الآخر راجين للغير الخير والسداد، وان كان بين أيديهم حق تمسكنا به ونمترسنا في خندقه معهم "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها".

فهذا هو خطابنا السياسي النابع مما نعتقد به، ودللنا عليه الأفعال والأقوال، ونريد تطمين النصارى وغيرهم من أهل الكتاب أن التراكمات التي روج لها الإعلام والمغرضون، والشكوك التي حاول أن يضعها العدو المشترك الذي لا همّ له إلا بث الأراجيف هي مقصودة للإبقاء على الفجوة أو إثارة معارك وهمية لا أساس لها ولا وجود ولا حتى رصيد، لأن الواقع يكذبها.

---

[1] سورة إبراهيم /آية ٢٢

نحن لا نجامل ولا نداهن فنقول أنه ثمة خلافات جوهرية مع النصارى في المعتقد والنظرة الى الإله والكون والحياة، ولكن مع ذلك نمد أيدينا لهم دوماً وندفع ونستغل أية وسيلة لأية تقاطعات وقضايا مشتركة وهمّ واحد، خاصة إذا كنا مستهدفين من جهة ومن جبهة واحدة هدفاً طمس كل شيء لنا ولغيرنا وتبديد كل خير قائم فوق أرضنا، وتحطيم كل معاني ومقومات النهوض في هذه الأمة وتراثها.

نحن نسجل بكل عرفان الجهد الذي ضمّه النصارى لجهود كل قطاعات شعبنا وقواه من عرق ودماء ومعاناة، ويعيش وإياهم آلام وآمال واحدة، لقد شاء الله أن ألتقي خلال مكوثي في السجن ولمرات عديدة مواطنين نصارى وتحت عباءة معظم التنظيمات الفلسطينية بما فيها الإسلامية، نحن لا نتنكر لذلك، ونقر بعطاء من عانى ونكل به مثلنا من قبل سلطات الاحتلال الذي غصب أرضنا وحقوقنا ومقدساتنا جميعاً.

نحن مع عملية اصطفاف من كل قوى شعبنا وطوائف النصارى في سبيا التحرر والوقوف أمام أولئك الذين يتربصون بنا الدوائر، لأن المشروع التحرري يتطلب حشد كل القوى في وجه الخطر الداهم الأكبر الذي يريد سحق كل شيء وذلك لتفويت الفرصة عليه وكشف خططه وتوجهاته وبالتالي دحره ونيل الاستقلال والعيش بحرية وكرامة.

إذا كنا ندعو إلى ما سبق (وهذه قناعات وليست تكتيكات) فلسنا تحت أي ظرف معنيون بإثارة قلاقل طائفية بشغلنا في إشكالات جانبية تلهينا عن الأهداف المرجوّة في دحر الأخطار المحدقة بنا جميعاً.

وعلى فرض أنه حصلت نوع من الإشكالات (وهي ليست نمطاً ونهجاً لحالة المجتمع الذي يضم مسلمين ومسيحيين) هي أمور لا تكاد تذكر وهي حالة وصورة لما يقع في أي بيت في هذه الدنيا، وهي صورة طبيعية فالبشر يعتريهم الخطأ والصواب فهم ليسوا ملائكة وليسوا معصومين عن الخطأ.

ومع ذلك ليعذرنا المواطنون المسيحيون الفلسطينيون من نظرتنا إلى العالم الغربي بهويته وأيديولوجيته وتوجسنا منهم، وذلك لمواقفهم من قضايا الأمة وبالذات القضية الفلسطينية، إذ تسببوا في الكثير من المآسي، فكان لهم السبق في تمليك من لا يملك أصلاً وما وعد بلفور إلى مثالاً على ذلك، بإعطاء اليهود وطناً قومياً لهم في فلسطين، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل الرعاية شبه الكاملة لليهود، ودعمهم المنقطع النظير مادياً ومعنوياً وإعلامياً وبالطبع كل ذلك على حساب شعبنا أرضاً وإنساناً، والعالم الغربي كله وبنسب متفاوتة شاركت في ذلك وفي مقدمتها بريطانيا وأمريكا، والمواطنون المسيحيون أصابهم ما أصابنا شئنا أم أبينا من معاناة وتشريد ... الخ.

وبهذا الفعل الذي أشرنا إليه فقد أخلّ بل ونقض الغرب كل العهود والمواثيق معنا فلا بد من ترسيم العلاقات من جديد وعلى أسس واضحة المعالم كما كان عليه الحال في الماضي، بل نطمح في ارتقاء هذه العلاقة، خاصة وأن ضوابط هذه العلاقة ثابتة لا تتغير.

ولا يفوتنا في هذا المقام إلا أن نذكر بشهادات بعض المفكرين من الغرب نفسه عن النظرة الإيجابية لنا كمسلمين تجاه المسيحيين، والتي تؤكد على عمق الروابط بينهم. فهذا دول ديوارنت يقول:

" لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزوار الوثنيون، واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم (ويضيف) وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم".[1]

وأشاد ترتون بتسامح المسلمين فقال:" والكتاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم حتى ليسمون حنين بن اسحاق برأس أطباء عصره وهبة الله بن تلميذ بأبو قراط عصره وجالينوس دهره " [2].

وأعترف ترتون "بتسامح الحكام المسلمين وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة فقط من العمال النصارى واليهود بل أنهم كانوا يتولون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها فاكتنزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية". [3]

وهناك لا أقول مئات بل آلاف من الشهادات في هذا الإطار من المثقفين وممن اتصفوا بالعلمية والموضوعية. إن هذه الشهادات ومن أفواه غير المسلمين إنما تؤكد أن الحضارة العربية الإسلامية هي مظلة للجميع مع التنويه أن الحضارة الغربية لا علاقة لها بنصارى الشرق ويجب أن لا ينقلوا موقعهم الحضاري مهما كانت الظروف فهم أبناء هذه الأمة وجزء من نسيجها. هذا من

---

[1] قصة الحضارة ديورانت ج ١٣ ص ١٣١
[2] أهل الذمة في الإسلام ص ١٧٠
[3] أهل الذمة في الاسلام ص ٢٥٦

ناحية. ومن ناحية أخرى، إن ما سبق يؤكد أن النصارى لم يكونوا في ظل دولة الإسلام مواطنين من الدرجة الثانية أو دونها، وإنما كان لهم دورهم البارز في إثراء الواقع لما لديهم من علوم ومعرفة وفي شتى الميادين.

نعود ونركّز على خصوصيتنا هنا في فلسطين أن العلاقة الإسلامية المسيحية تميّزت بالنقاء. فلا صراعات ولا مشاحنات، لا اعتداءات ولا مضايقات، والحياة اليومية تسير بدون تمييز أو محاباة، ويقف الطرفان في خندق واحد في مواجهة واقع واحد.

ولا يفوتنا في هذا المقام أيضاً من أن نشيد ونقول بأن الحركات الإسلامية في فلسطين وفي مقدمتها حركة المقاومة الإسلامية حماس تميّزت بإيجابية عالية وروح رائعة تجاه المواطنين المسيحيين، فلم تسيء في أدبياتها ونشراتها ولا حتى سلوكها لمسيحي لا قولاً ولا عملاً، وشاركت المسيحيين في مناسباتهم السارة والمؤلمة، بل لقد عدلت حركة حماس وأنزلت بياناً استدركت فيه بيان يدعو للإضراب في ذكرى استشهاد البطل المجاهد عبد الله عزّام فألغت دعوتها للإضراب كون هذا الإضراب تزامن مع ذكرى ميلاد المسيح عليه السلام كما وأصدرت الحركة بيانات تندد وتستنكر الاعتداءات الإسرائيلية على أملاك كنيسة الأرثوذكس في القدس وكنيسة القديس أنطون في يافا.

كما وأشادت الحركة بتصريحات وبيانات رسمية بموقف الكنيسة القبطية المصرية عموماً وموقف البابا شنودة خصوصاً إزاء قضية القدس ورفض التطبيع مع الكيان الإسرائيلي. كما وأصدرت حماس وثيقة داخلية تضمنت سياسة الحركة تجاه النصارى في فلسطين، وهي تعكس نظرة إنسانية وحضارية متقدمة، والسياسات التي أشارت إليها الوثيقة هي:

١. اعتبار نصارى فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني والأمة العربية وهويتها الحضارية.

٢. للنصارى الحقوق المدنية ما لبقية أبناء الشعب الفلسطيني وعليهم من الواجبات ما عليهم.

٣. تذكيرهم بأهمية ارتباطهم بمقدساتهم والأرض التي يعيشون فوقها من منطلقات دينية ووطنية.

٤. الإشارة الى أعيادهم ومناسباتهم الدينية في بيانات وفعاليات الانتفاضة، ومشاركتهم في الممكن فيها.

٥. دعوتهم لعدم الهجرة بسبب ضغوطات الاحتلال وممارسته ضد أبنا شعبنا.

٦. التأكيد على أهمية اشتراكهم في الحياة السياسية والكفاحية للشعب الفلسطيني في فترة الاحتلال وبعد التحرير والعمل على استقطابهم في العمل والمؤسسات الوطنية.

٧. العمل على منح علاقات متينة مع قياداتهم الدينية والسياسية وتفعيلها في المواقف الوطنية والعامة ومشاورة زعمائهم في شؤون البلاد العامة.

٨. استمرار سياسات الاشارة لهم ومناسباتهم في بيانات الحركة وأدبياتها.

أننا ندعو إلى إزالة كل التوجسات التي تولّدت نتيجة بعض العوامل منها الاحتلال، ولا بد من الشروع فوراً في عملية اصطفاف التي تحدثنا عنها سابقاً في مواجهة الأخطار المحيطة بنا محلياً وخارجياً، وهذا يتطلب عدة فعاليات وخطوات عملية:

أولاً: إعادة قراءة للواقع ووضع النقاط على الحروف للخطر الداهم الذي يستهدف الجميع لطمس كل خير قائم على الأرض ويتمثّل بالإنسان والأرض والمقدسات والتراث.

ثانياً: عقد لقاءات دورية تساهم في توطيد العلاقة وبالتالي إزالة أي التباس وسوء فهم من طرف لآخر.

ثالثاً: تشكيل لجان مرجعيات لترسيم العلاقة ومواجهة الواقع الذي نعيشه.

رابعاً: دعوة كل المؤسسات الرسمية والشعبية، وأماكن العبادة على وجه الخصوص للقيام بالدور المنوط بها وإزالة كل الرواسب وسوء الفهم وتصويب النظرة لكل وفق نظرة الشرع لها.

خامساً: القيام بجولات مشتركة وبالذات للعالم الغربي تبين حقيقة ما يجري على الأرض الفلسطينية بين المسلمين والمسيحيين من احترام متبادل.

سادساً: تشكيل قوة مانعة للتصدي لكل أشكال الفساد والانحراف الأخلاقي الموجودة في المجتمع وتطويقه وتجفيف روافده والقضاء عليه.

سابعاً: التأكيد على أن الحركة الإسلامية هي حركة تحررية تقوم بواجبها للدفاع عن كل أبناء الشعب الفلسطيني وحقوقهم ومقدساتهم هذا الواجب الذي تقرّه الشرائع السماوية و الأعراف والقوانين الدولية، وليس كما يروج البعض إليه أنه صراع ديني.

ثامناً: التعاون في العمل على تقدّم المجتمع الفلسطيني وازدهاره ودعوة المستثمرين للارتقاء بالاقتصاد الفلسطيني واعتبار ذلك واجب ديني وأخلاقي ووطني.

تاسعاً: التعاون السياسي، وذلك بكشف طبيعة الصراع فوق الأرض الفلسطينية، وحق شعبنا العقيدي التاريخي فيها وما لحق بشعبنا من مآسي وويلات.

وبعد

إن من البديهي في النهاية أن نشير أن طبيعة العلاقة التي كانت ولا زالت بين المسلمين والمسيحيين لا تعني بأي حال أن يطلب من المسلم تجميد لأحكام دينه وشريعة ربه ومنهجيته لواقع الحياة، فليست هذه حالة التسامح التي قد يفكر بها البعض ، بل "أنما ينبغي أن يقوم التسامح على ما أمر به ديننا وما يعتقد به المسيحيون من حسن الجوار وحب الخير للمجتمع ووجوب العدل مع الجميع" [1]

إن كل دين له مقوماته الجوهرية وخصائصه الذاتية فلا يجوز إغفال هذه المقومات والخصائص من أجل مجاملات سطحية أو كسب معارك وهمية. [2]

---

[1] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ، ص ٨٠

[2] نفس المصدر السابق

وفي النهاية نلخص وباختصار فنقول:

- لقد عاش النصارى في كنف حضارة الإسلام العظيمة بسماحتها وافقها الإنساني اللامحدود والتي قدمت للبشرية المثل الأعلى في التعايش والتسامح وعدم الإكراه في الدين.
- لم تشهد الأراضي المحتلة طوال العقود الماضية أية حوادث يمكن تصنيفها تحت عنوان العنف الطائفي، وإن جرت أحياناً – وهي نادرة– إنما جرت تحت عنوان العنف السياسي. وحتى أن الصراع القائم اليوم مع اليهود فوق أرض فلسطين ليس صراعاً دينياً وإنما هو سياسي وكونهم محتلون ومغتصبون لأرضنا ومقدساتنا.

هذه نظرة عامة إلى واقع العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فوق أرض فلسطين نأمل ان تكون كذلك في المستقبل بل العمل على تطويرها وارتقائها.

هذا وبالله التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المقالة الرابعة

واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين

الأرشمندريت د . عطاالله حنا

هنالك ناحيتين متلازمتين للحديث عن موضوع العلاقات الإسلامية المسيحية: أولاً العلاقات بين الديانتين التوحيديتين المسيحية والإسلام وثانياً العلاقات بين المسيحيين والمسلمين.

الناحية الأولى: تتضمن مبادئ العقيدة والأخلاق بين الديانتين. والثانية: ترتبط بالحياة العملية والعيش المشترك بين أبناء الديانتين، والناحيتين مترابطتين ، ذلك لأن الدين لا ينظم العلاقة بين الخالق والمخلوق أي بين الله والإنسان فحسب وإنما ينظم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان بين المخلوق والمخلوق، وهذه العلاقة لا تنحصر بين أناس من دين واحد او من بيئة واحدة وإنما بين سائر خلائق الله من سائر الديانات والانتماءات العرقية، ويستند المؤمن في علاقاته مع الآخرين على تعاليم دينه، لذلك قبل البحث في موضوع العلاقة بين المسلمين والمسيحيين هنالك ضرورة ملحّة إلى أن نتحدث ونشير (ما هي العلاقة بين الديانتين التوحيديتين الإسلام والمسيحية) ؟.

العلاقة بين الإسلام والمسيحية

لقد عرف الإسلام المسيحية منذ نشأته وقد كانت المسيحية منتشرة في بعض القبائل العربية، وفي الجزيرة العربية، ويدعو القرآن الكريم المسيحيين تارة بالنصارى، وتارة بأهل الكتاب، وقد جاء في سورة آل عمران: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" ،" أنزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان" أن هذه الآية تبرز موقف القرآن من المسيحية وبأن الإنجيل هو كلام الله. ويدعوهم إلى الإيمان به والسير بموجبه، ومنذ البداية اعترفت الشريعة الإسلامية بالمسيحيين في تميّزهم لا كأفراد فحسب بل كجماعة، لذلك وجد في المجتمع الإسلامي على مدى العصور تعددية دينية، لكن هذه التعددية فرضت ترتيبا معينا وهو نظام (أهل الذمة) إذ ضمنت لهم حرية العبادة.

إن هنالك أهمية قصوى لتعزيز اللحمة الوطنية والأخوة الإسلامية المسيحية وذلك من خلال الحوار من أجل بناء علاقات وطيدة في الحياة والعيش المشترك، والحوار الديني يتطلب :

أولا: الاعتراف بواقع الاختلاف في بعض الأمور العقائدية وثانياً التركيز على نقاط الثلاثي في الأخلاق والعقيدة بين الإسلام والمسيحية، واعتقد بأن العلاقات الإسلامية المسيحية لا يمكن أن تبنى بشكل سليم إلا انطلاقاً من الاعتراف أولاً بواقع الاختلاف العقائدي بين الديانتين، فالعلاقة بين الديانتين تفرض أولا الاحترام المتبادل لعقائد الطرف الآخر ولتعاليمه الأخلاقية حتى وإن اختلفت ، وهذا الاحترام إذا قبلناه ووضعناه في أساس علاقاتنا يفرض علينا سلوكاً جديداً يمنعنا من الاستمرار في خطأ أساسي وقعنا فيه في العصور السابقة ولا يزال يفسد أذهاننا ويلوث بيئتنا الاجتماعية وعلاقاتنا المتبادلة، إلا وهو التكثير المتبادل، فأن اعترف كل منا في حق الآخر أن يكون

مختلفاً فلا يجوز للمسلمين أن يتهموا المسيحيين بالتثليث بدل التوحيد ولا يجوز للمسيحيين أن يدعوا الإسلام بدعة وهرطقة كونهم لا يؤمنون بالمسيح كمخلص.

والخلافات في العقائد ناتجة عن كون كل ديانة تستند في تحقيق عقائدها الى كتاب مقدس تعتبره أتياً من عند الله، لذلك يجب على كل ديانة أن تحترم اعتقاد الديانة الأخرى، ليمكن الدخول معها في حوار بناء. إن المشاجرات حول عقائد الدين والاتهامات المتبادلة لن تفيد شيئاً فالمسلم سيبقى مسلماً، وهكذا يجب أن يكون والمسيحي سيبقى مسيحياً وهكذا يجب أن يكون، المسيحية والإسلام ديانتين مختلفتان وستبقيان مختلفتين حتى يوم القيامة، والحوار والتلاقي الإسلامي المسيحي لا يهدف إلى الوصول في نهايته إلى الاتفاق حول دين واحد وفي هذا سيبقى قول أبي العلاء المعري قائماً:

في اللاذقية ضجة	ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق	وذاك بمئذنة تصيح
كل يعزز دينه	يا ليت شعري ما الصحيح

إن الهدف من الحوار هو إزالة الإلتباسات والأفكار الخاطئة لدى كل من الطرفين حول عقائد الطرف الآخر، وذلك بهدف التوصل إلى تعايش أخوي واحترام متبادل، فقد يعتقد مثلاً أن المسيحية تشرك بعبادة الله، في حين أنها قدمت مئات الشهداء، لا بل مئات الألوف من الشهداء في بدء تاريخها لمقاومة الشرك المنتشر في العالم الروماني الوثني، الحوار يهدف إلى توضيح إيمان كل من المتحاورين في الاحترام المتبادل لإيمان الآخر، فبدل أن يقول كل منا أن دينه هو الصحيح والآخر على ضلال مبين نقول أن المسيحية والإسلام طريقان متنوعان يقودان كلاهما إلى الإله الواحد

الأحد، النظرة القديمة ينتج عنها احتقار الآخر ورذله واعتباره كافراً، أما النظرة الجديدة فسينتج منها الاحترام المتبادل والمحبة المتفهمة لحق الآخر في أن يكون مختلفاً، والحوار بين الإسلام والمسيحية يجب أن لا يتوقف فقط عند الأمور المختلف عليها بين الديانتين بل يجب أن يركّز أيضاً على الأمور المشتركة بين الديانتين من أجل عيش مشترك وتفاهم دائم، وهناك نقاط كثيرة للتلاقي بين الإسلام والمسيحية:

١)على صعيد العقيدة: فالإيمان بالإله الواحد خالق السماوات والأرض يجمع المسيحي بالمسلم، وقانون الإيمان المسيحي يبتدأ ب أومن بإله واحد لا يزاد إليه شيء ولا ينتقص منه شيء. وما يقوله المسيحي عن الأب والابن والروح القدس هو أنه اله واحد، وهنالك أيضاً الإيمان بأن الله تكلّم بأنبيائه وبأن الله رحيم محب للبشر فالله محب في المسيحية ورحمان رحيم في الإسلام، والله هو المجازي لكل إنسان حسب أفعاله بقدر ما عملت يداه، كما أن القرآن الكريم يذكر الكثير عن السيد المسيح والسيدة العذراء، وهنالك نقاط أخرى كثيرة للتلاقي الإسلامي المسيحي على صعيد الإيمان والعقيدة.

٢) أما على صعيد الأخلاق فالإيمان يجب أن يقترن بالأعمال، إن الصلاة والزكاة والصوم أمور مشتركة في الإسلام والمسيحية وإن اختلفت في طريقة تطبيقها إلا أن الهدف واحد، وهنالك أمور مشتركة في أخلاق الديانتين، في الدعوة إلى الفضيلة والتمسك بالقيم والابتعاد عن الخطايا والآثام المتنوعة، وخلاصة الحديث أن المسيحية والإسلام يجتمعان على أهم الأمور الدينية على صعيد العقيدة والأخلاق، فإذا كان الإسلام يرى في الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج أركانه الخمسة،

فالمسيحية تقبل هذه الأركان، فالشهادة هي الاعتراف بوحدانية الله، والصلاة والزكاة والصوم من الأمور المفروضة على المسيحيين والحجيج إلى الأماكن المقدسة هو من التقاليد العريقة في المسيحية.

علاقات التعاون بين المسلمين والمسيحيين

إن التفاهم بين الإسلام والمسيحية يجب أن يقود الى تعاون بناء بين المسيحيين والمسلمين في مختلف مجالات الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية وهذا التعاون ليس أمراً مستحدثاً، إن له تاريخاً عريقاً، ويجب العمل على أن يستمر ويتوسّع ويتطور وفقاً لمقتضيات العصر وتطلعات أبناء شعبنا خاصة في هذه الديار المقدسة، ففي الماضي تعاون المسيحيين والمسلمين بعد الفتح العربي في مختلف المجالات، ولا سيما في الفلسفة والطب والعلوم، وبفضل هذا التعاون عرف الشرق ازدهاراً حضارياً شهد له التاريخ، ونرى بأن استمرارية التعاون ضرورية ولكن من الأهمية بمكان العمل على تدعيمها وتقويتها، وهذا التعاون ضروري ، ان على الصعيد العالمي أو على صعيد الوطن العربي وفلسطين بشكل خاص، هنالك أهمية خاصة لمثل هذا التعاون خدمة للبشرية ونمو المجتمعات وازدهارها، انه تعاون في خدمة خليقة الله ومن أجل صيانة كرامة الإنسان المهددة في كثير من الأحيان، انه تعاون على تقدم المجتمع البشري وازدهاره، تعاون في مجالات الحياة كافة ومنها الوطنية والسياسية، وما يقال عن التعاون الإسلامي المسيحي في العالم يصح أيضاً على صعيد المشرق العربي وفلسطين بشكل خاص فالمسلمون والمسيحيون وهم أبناء شعب واحد هم مدعوون إلى المساهمة في بناء الدولة وتطورها هم مدعوون إلى بناء دولة الإنسان دولة القيم دولة سائر

المواطنين، هذه الدولة التي تحترم فيها الحقوق الأساسية للإنسان ، وتنعوا فيها المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية القادرة على تأمين وضمان هذه الحقوق.

نحن نؤمن بأننا من خلال معالجتنا لقضايا الوطن يجب اعتماد عدد من المبادئ الهامة:

أولاً: الوحدة: نحن شعب واحد مع تعدد انتماءاتنا الدينية او الحزبية

ثانياً: الحرية وهو مبدأ يشكل شرطاً أساسياً للحياة والاستمرار، والحرية لا تعني الانفلات والإباحية ، وإنما العلاقة المبنية على الإحترام المتبادل.

ثالثاً: الوفاق إذ نحن في مسيرتنا الوطنية نحتاج إلى الحوار والوفاق فتبادل الرأي من شأنه أن يساهم في نجاح مسيرتنا الوطنية نحو مستقبل أفضل.

وعندما نتحدث عن المسيحية نقول بأنها ليست عنصراً دخيلاً على الشرق ولكنها عنصراً أصيلا وهاما فيه، لا بل المسيحية من مقوماته، ومن ينظر إلى بلادنا من دون ينظر إلى المقومات الروحية فيه فقد أخطأ الهدف والتحليل والمسيحيون العرب كانوا موجودين على الأرض العربية منذ زمان طويل وكنا وما زلنا نتكلّم العربية، وهم جزء أصيل من الأمة العربية وليسوا من مخلفات الحملات الصليبية ، حان الوقت لكي ندرك أننا مسيحيين ومسلمين كنا سواسية في مواجهة الغزو الصليبي، وهذه البقعة من الأرض لم تحمل إلى العالم رسالة واحدة بل رسالتين: الرسالة المسيحية والرسالة الإسلامية ، وان الوجه الحقيقي لبلادنا لا يتجلى في أصالته إلا إذا ارتفع فيه صوتان معاً صوت مسلم وصوت مسيحي، وفي الواقع هما صوت واحد لشعب واحد وأمة واحدة، فالمسيحية والإسلام هنا توأمين لا يتنافران.

وهنالك تحديات كثيرة تواجه المسيحي العربي، وهناك ردّات فعل للمسيحي عليها يجب أن نوليها الاهتمام اللائق وهي اليأس والانطواء والانزواء والاستسلام وأخيراً الهجرة، وان ما يقال هنا وهناك ويشاع عن اضطهاد إسلامي للمسيحيين هو كلام غير دقيق وغير صحيح ويهدف إلى الإساءة والمساس بوحدة شعبنا الوطنية، ولكن هذا لا يمنع من أن نعمل سوياً على تقوية الوحدة الوطنية وأن نحل أي اشكالات إن وجدت، وأن نزيل الغشاوة عن الأبصار، ومن الطبيعي أن تكون إشكاليات وعثرات في مسيرتنا الوطنية فالعلاقات بين أفراد العائلة الواحدة لا تخلو من مثل هذه العثرات وهذه الصعاب والعثرات قد تنتج عن بعض المفاهيم الخاطئة وقلة الحوار والتفاهم.

وإن مستقبل المسيحيين العرب في فلسطين مرتبط بمستقبل إخوانهم المسلمين ونحن نرى في اللقاء الإسلامي المسيحي هدفاً حيوياً وأساسياً استراتيجيا ووطنياً في المقام الأول وما يسعى إليه المسيحيون العرب هو التوق إلى القربى واكتشاف مواقع اللقاء، وما ينتظره المسيحي من أخيه المسلم هو أن يعمل على إشعاره بأنه ليس أقلية بحاجة إلى حماية، ومن واجب المسيحي أيضاً التصدي لتجربة الهروب والاستسلام والرضوخ والانعزال والهجرة وليكن المسيحي واعياً بالقدر الكافي لتاريخه وهويته وعروبته وبأن المسلم ليس غريباً عنه وأنه أخوة بالانتماء إلى هذا الوطن، حذار من الانتقاص من هويتنا العربية، حذار من أولئك الذين يحاولون تغريب المسيحيين عن هويتهم العربية الأصلية، فنحن مشرقيون وكنيستنا مشرقية ومرجعيتنا مشرقية، كفانا ما حلّ بنا من الغرب الذين كانوا يستعملون المسيحيين في الشرق جسراً لتحقيق أطماعهم تحت شعار حماية المسيحيين، لن يحمي ويحافظ على الحضور المسيحي العربي سوى التمسك بالهوية العربية المسيحية، واخوتنا الصادقة الإسلامية المسيحية، نحن نريد من المسلم أن يكون المحامي الأول عن الحضور المسيحي

هنا وأن يدرك بأن المسيحية جزء أصيل من تاريخ وحضارة وحياة هذه البلاد، علينا ألا نقلق لمصير المسيحيين في العالم العربي بل نقلق لمصير المسلمين والمسيحيين على السواء لأن لنا مصيراً واحداً.

إننا ندعو إلى التضامن الإسلامي المسيحي في العالم العربي وبشكل خاص في فلسطين، ان المسيحيين هنا جزء لا يتجزأ من الهوية الحضارية للمسلمين والعكس هو الصحيح أيضاً، ويجب أن نبحث عن صيغة لا للتعايش فحسب وإنما للتواصل الخلاق المثمر الذي يضمن الاستمرار والأمان للجميع، بعيداً عن الحقد والتعصّب والفتوية، وأن لنا من القيم الروحية الإسلامية والمسيحية ما يساعدنا على ذلك وما يفرض علينا أن ننظر الى بعضنا البعض بعين الانفتاح لأن الإنسان عدو ما يجهل.

وموضوع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين موضوع هام وحيوي وعلى جانب عظيم من الأهمية خاصة في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ شعبنا مرحلة البناء وتحقيق الطموحات الوطنية الفلسطينية ونحن نعلم بأن هنالك من لا يريدون لشعبنا أن يحيا في لحمة ووحدة وطنية وهنالك من يسعى إلى جعلنا مشرذمين مفتتين، ذلك لأن في التشرذم والتفتت يكمن الضعف وفي الوحدة الوطنية تكمن القوة ففي الوقت الذي فيه نتحدث عن واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين علينا جميعاً كأبناء شعب واحد أن نفوت الفرصة على أعداء شعبنا وأمتنا، وفي الواقع عندما نتحدث عن المسلمين والمسيحيين في فلسطين والوطن العربي لا نتحدث عن شعبين أو جماعتين أو فئتين وإنما نتحدث عن شعب واحد وأمة واحدة في تعددية دينية إسلامية ومسيحية. فبالرغم من وجود الخصوصية الروحية الدينية لكل من المسلم والمسيحي إلا أننا شعب واحد لنا

لغة واحدة وحضارة واحدة وتاريخاً واحداً ومعاناتنا واحدة وطموحاتنا الوطنية واحدة، فالاحتلال البغيض لم يميز في يوم من الأيام بين مسجد وكنيسة بين حي مسيحي وحي مسلم بين شاب مسيحي وشاب مسلم فالكل عانى ويعاني من الاحتلال، وإذا كانت تمر هذه العلاقة في بعض الأحيان بنوع من الفتور فهذا شيء طبيعي إذ أن الأزمات تعصف في كثير من الأحيان بالعائلة الواحدة وبأصحاب الدين الواحد، وظهور هذه الأزمات يكون في كثير من الأحيان نتيجة تداخلات خارجية تأتينا ممن لا يريدون مصلحة شعبنا ووحدته الوطنية فأينما تكون الفتن يكون هنالك دور للاحتلال أو لجهات عميلة ولكن هذا لا يعني أننا لا نتحمل المسؤولية، فالفتن في كثير من المواقع لاقت أرضاً خصبة ولاقت أشخاصاً يروجون لها ويعملون على تأجيجها من خلال إطلاق الكلمات والخطب التي تثير المشاعر الدينية الغاضبة من جهة ضد الجهة الأخرى.

إذن نرى بأنه هنالك حاجة ماسة لمزيد من الوعي ، نحن بحاجة إلى حملة توعية إذا صح التعبير، لأنه هنالك إشاعات كثيرة وترويج كثير وأقوال تبث هنا وهناك، وهنالك أفكار ومواقف مغلوطة التي إذا ما وصلت الى البعض من عديمي الوعي الوطني، أو أصحاب التطرف الأعمى جعلتهم يتأثرون بها وينادون بها، ويجب هنا أن نتحمّل مسئوليتنا كرجال دين مسلمين ومسيحيين وكرجال فكر وعلم وثقافة علينا أن لا نترك الساحة لمروجي الإشاعات، وناشري المواقف المعادية لمصلحة شعبنا ووحدته الوطنية، ولنتذكر ما حل بنا من نكبات قبل عام ٤٨ وبعدها وكيف أن المعاناة كانت مشتركة نحن شعب واحد وأمة واحدة ولكن هنالك من يعمل على أرض الواقع عكس ذلك، هنالك من لا يريد لنا أن نكون أمة واحدة وشعباً واحداً . هنالك أهمية قصوى للقاء الإسلامي المسيحي في فلسطين، لقاء الإنسان بأخيه وعلينا أن نسهر على

وحدتنا الوطنية ونحافظ عليها .وهنا أود أن أشيد بالمراكز الفلسطينية الهادفة الى هذا اللقاء والحوار ومنها مركز اللقاء ومركز باسيا وغيرها .

واقترح الأفكار التالية:

١- التأكيد على أهمية التربية ودور مؤسسات التعليم والمناهج في تعزيز روح المحبة والتسامح بين أبناء الديانتين وتدعيم أواصر الوحدة الوطنية.

٢- تعزيز الوعي التراثي وتوظيفه لترسيخ قيمنا العربية

٣- دعوة الباحثين والمفكرين والعلماء الفلسطينيين إلى القيام ببحوث ودراسات تحليلية وميدانية متعمقة تعالج قضايا المجتمع الفلسطيني ٠

٤- أن تقوم وسائل الإعلام المحلية بدور هام في نبذ الفتن والدعوة إلى الوحدة الوطنية.

٥- التعريف بأهمية الأراضي المقدسة والأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية وتاريخ الحضور الإسلامي المسيحي في فلسطين.

٦- المبادرة إلى عقد ندوات ومؤتمرات إسلامية مسيحية في الأماكن التي تتعرض للفتن وفي غيرها من الأماكن.

****

المقالة الخامسة

الجزية

حسين محمود احمد المهدي*

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا إله غيره ولا معبود بحق سواه وصلاة ربي وسلامه على خير خلق الله محمد بن عبد الله وعلى من آمن به وتبعه واقتفى أثره ووالاه وسلم تسليماً كثيراً وبعد ، فموضوع كلمتي عن " الجزية " وابتداءً أقول للذين يوجسون خيفة من كلمة الجزية أو يخجلون منها ، أنها من مفاخر الإسلام ، وأنها مظهر من مظاهر العدل فيه ، وأنها ليست بدعة في نظام الإسلام ، بل كانت الوسيطة بعينها فيه ، وقد سبق الإسلام إليها أنظمة كثيرة من رومانية وفارسية وغيره ، ولكن بطريقة فيها ظلم وتعسف وقبل الخوض في هذا الموضوع لا بد من بعض التعريفات والإشارات فأقول :

الجزية : هي الوظيفة المأخوذة من أهل الكتاب والمجوس لإقامتهم بدار الإسلام في كل عام مرة واحدة وهي فعلة من جزى يجزي ، إذا قضى قال الله تعالى " واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس

* محاضر في كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة القدس

شيئاً، تقول العرب جزيت ديني إذا قضيته ، [1] وبلغة العصر أقول هي مبلغ من المال أو قيمته عيناً تفرض على بالغي رجال أهل الكتاب والمجوس غير ذوي الأعذار ٠

دليل مشروعيتها : الكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " [2] ٠

وأما السنة فما روى المغيرة بن شعبة " أنه قال لجند كسرى يوم نهاوند أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية " أخرجه البخاري وعن بريدة أنه قال ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميراً على سرية أو جيشاً أوصاه بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال له " إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث ، ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم " في أخبار كثيرة واجمع المسلمون على جواز أخذ الجزية في الجملة ولم يأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المجوس الجزية حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذها من مجوس هجر في البحرين ٠

---

[1] المغني لابن قدامه المقدسي ج٨ ص ٤٩٥

[2] سورة التوبة آيه ٢٩

ممن تقبل: ولا تقبل الجزية إلا من يهودي أو نصراني أو مجوسي إذا كانوا مقيمين على ما عوهدوا عليه لما أسلفت من الأدلة ، أما غيرهم من الكفرة وعبدة الأوثان فلا تقبل منهم ولا حياة لهم في دار الإسلام، ولنا على ذلك قول الله سبحانه وتعالى " فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم "[1]

ممن لا تقبل : ولا جزية على صبيّ ولا زائل عقل (مجنون) ولا امرأة ولا على فقير ولا شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ، هكذا نص علماء الإسلام على عدم أخذ الجزية من أولئك في حين أن الزكاة في الإسلام واجبة على كل مسلم إن بلغ ماله النصاب وحتى اليتيم شمله الأمر ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " اتجروا بمال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة " وأما الجزية فلا تفرض إلا على البالغ العاقل لقول الرسول عليه الصلاة والسلام " خذ من كل حالم دينارا" وهذا يدل على أنها لا تجب على غير بالغ ولا تفرض على المرأة ولو بذلت الجزية بنفسها ، أخبرت بأنها لا جزية عليها وأما الفقير العاجز عن أدائها فلا جزية عليه وقد جعل عمر رضي الله عنه الجزية على ثلاث طبقات ، جعل أدناها على الفقير المحتمل ، فيدل على أن غير المحتمل لا شيء عليه ولأن الله تعالى قال " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " ولأن هذا المال يجب بحلول الحول ، فلا يلزم الفقير العاجز كالزكاة ، فأخذ الجزية يتناول الأخذ ممن يمكن الأخذ منه ، ومن لا يمكن الأخذ منه ، فالأخذ منه مستحيل فكيف يؤمر به[2] .

---

[1] سورة التوبة آيه ٥

[2] المغني لابن قداحه المقدسي جـ ٨ ص ٥٠٧-٥١٠

بداية مشروعيتها : لم يأخذ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الجزية من أحد إلا بعد نزول سورة التوبة " براءة " في السنة التاسعة ، فلما نزلت آية الجزية (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[1]، أخذها من المجوس وأهل الكتاب ولم يأخذها من يهود خيبر، فظن من غلط أنه مختص بأهل خيبر، وهذا من عدم عمق فقهه ، فإنه صالحهم قبل نزول آية الجزية، ثم أمره الله أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فلم يدخلوا في ذلك، لأن العقد كان قديماً بينه وبينهم على إقرارهم وأن يكونوا عمالاً في الأرض بالشطر ، فلم يطالبهم بغيره ، وطالب سواهم ممن لم يكن له عقد كعقدهم ، فما أجلاهم عمر ، تغير ذلك العقد ، وصار لهم حكم غيرهم من أهل الكتاب ، ولما كان في بعض الدول التي أخفيت فيها السنة ، أظهر طائفة منهم كتاباً قد عتقوه وزوروه، فيه أنه صلى الله عليه وسلم أسقط عن أهل خيبر الجزية ، وفيه شهادة علي بن أبي طالب وسعد بن معاذ ، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، فراح ذلك على من جهل السنة وظنوا صحته، فأجروا حكمة حتى القي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وطلب منه أن يعين على تنفيذه ، فبصق عليه ، واستدل على كذبة بعشرة أوجه منها : أن سعداً توفي قبل خيبر ، ومنها أن الجزية لم تكن نزلت بعد ، ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخر ، ولم يكونا في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي من وضع الملوك الظلمة ، واستمر الأمر عليها ، ومنها أنه هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم ولا من أهل السير ، ولا من أهل الحديث، ولا من

---

[1] التوبة آيه ٢٩

غيرهم ، ولا أظهروه في زمان السلف لعلمهم أنهم يعرفون كذبه ، فلما خفيت السنة زوروا ذلك، وساعدهم طمع بعض الخائنين لله ورسوله ، ولم يستمر حتى كشف الله أمره ، وبين خلفاء الرسل بطلانه وكذبه [1].

خصوصية أهل الكتاب في قبول الجزية

إن الإسلام أنزل أهل الكتاب والمجوس منزلة ما أنزلها غيرهم أبداً ، ففي الوقت الذي قبل منهم الجزية وسمح لهم أن يقيموا في الدولة الإسلامية كمواطنين لهم حقوق وعليها واجبات ، لم يقبل الجزية من غيرهم ولم يجعل لغيرهم من الخيارات إلا الإسلام أو القتل ، وفي ذلك يقول الله تعالى " فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " [2] .ويقول صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها " ومعلوم أن هذا عام خص منه أهل الكتاب بالآية " من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " والمجوس " بشهادة عبد الرحمن بن عوف أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر " فمن عداهم من الكفار يبقى على قضية العموم .

ولم يقف الإسلام في تسامحه مع أهل الكتاب في قبول الجزية منهم ، وإنما أجاز لنا أكل طعامهم ونكاح نسائهم ، وفي ذلك قوله تعالى في سورة المائدة " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد ج٢ ص ٢٠٣-٢٠٤

آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخذان "[1]، وهذه خصوصية لأهل الكتاب دون غيرهم وفي ذلك إكرام وتقدير لهم.

وفي الوقت الذي ألزم فيه المسلم المالك لنصاب الزكاة بدفع زكاة ماله على سبيل الوجوب وباستخدام فعل الأمر كما جاء في قوله تعالى " خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها "[2]، ويستوي في ذلك من أقام في الدولة الإسلامية أو أقام خارجها ، بينما يختلف الأمر بالنسبة لأهل الكتاب كما جاء في قوله تعالى " حتى يعطوا الجزية " وفرق بين فعل المضارع والأمر ولا يخفى ذلك على أحد من أهل اللغة .

حقوق وواجبات

والذي تقبل منه الجزية ، ويلتزم بإعطائها في كل حول ، ويلتزم بأحكام الإسلام ، وهو قبول ما يحكم به عليهم من أداء حق أو ترك محرم لقول الله تعالى " حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " من فعل هذا والتزم به يحظى بحقوق المواطنة في الدولة الإسلامية ، ويجوز أن يعقد له عقد ذمة مؤبد ، ويكون آمناً في نفسه وماله وعرضه ويستفيد من الخدمات التي تقدمها الدول الإسلامية .

ويلتزم له ولي الأمر ببذلها بحقين اثنين:

أحدهما : الكف عنه وعدم التعرض له

ثانيهما : الحماية له

---

[1] المائده آيه ٥

[2] التوبة آيه ١٠٣

وذلك ليكون بالكف آمن ، وبالحماية محروس ، وقد روى نافع عن ابن عمر أنه قال : " كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم احفظوني في ذمتي ، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام " من آذى ذمياً فقد آذاني "

نماذج من التاريخ الإسلامي

١- يروى أن أبا عبيدة أخذ الجزية من أهل حمص ونواحيها ، وبعد ذلك شعر بأنه ليس بمقدوره الإستمرار في حمايتهم وتوفير الآمن والآمان لهم وذلك لأن الروم قد حشدوا حشداً عظيماً ، وكان المسلمون قلة والجزية إنما تؤخذ ليتكفل المسلمون بحماية أهل الذمة ، ولما كان الأمر كذلك أرجع الجزية لهم ، وقال معترفاً بالحقيقة، لقد حشد الروم حشداً عظيماً لا ندري أننتصر أم لا ، فإن لم ننتصر فأموالكم بين أيديكم وإن انتصرنا أخذناها منكم لأننا تمكنا من حمايتكم ، فقال الناس وهم نصارى : أعادكم الله علينا، قالوها لأن الروم كانوا قد ظلموهم .

٢- كان عمر بن عبد العزيز في سياسته المالية يوصي عماله بأن يخففوا من فرض الضرائب على الناس ومقولته الشهيرة ، ابقوا لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً ، وقال ؛ إنما بعث محمد صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعث جابياً .

لكل ما ذكرت ليس لأحد أن يوجس خيفة من فرضية الجزية لأن المسلم مكلف أكثر من الذمي وعلى عاتقه كثير من الواجبات ومن قبيل الحرية الدينية في الإسلام أن لا يكلف غير المسلم بأشياء لا يعتقد بها وهذا عين العدالة والرحمة . ففرض الجزية ليس فيه ظلم ولا إجحاف ، وقد فرض على المسلم بالمقابل الزكاة والجهاد الذي شرع لحماية الدين ونشره وحماية الرعايا الذين يعيشون في كنف المسلمين أياً كان معتقدهم.

ولما كان الإسلام يدعو إلى معاملة غير المسلمين بالحسنى ويحرص على حماية حريتهم الدينية وحفظ حقوقهم وحسن رعايتهم كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ،كان من

حق المسلمين الذي يشكلون أقلية في بعض دول العالم أن يجدوا مثل هذه المعاملة وأن يترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية وتنظيم حياتهم وفق تعاليم الإسلام من قبيل المعاملة بالمثل على أقل تقدير.

الوسطية في الإسلام :

وبعدها تمايز الأشياء وإن كنت أقول كما قال الشاعر : ألم تر أن السيف ينقص قدره ، إذا قيل أمضى من الخشب ومع ذلك وحتى أبين مدى سماحة وعدل الإسلام لا بد من الحديث بإيجاز عن أحوال الناس الإقتصادية في ظل الإمبراطورية الرومانية والفارسية .

وأما عن الإمبراطورية الرومانية فإن الإمبراطور كان كل شيء وإرادته هي المصدر الوحيد للقانون ، وهو رئيس الإدارة المالية وهو رئيس الدولة وهو نائب الله ، يقول " ملن " في تاريخ مصر وهو بصدد الكلام عن النظام المالي لمصر في ذلك العهد وكان تقدير كمية الضرائب التي يجب أن تدفعها مصر للخزانة الإمبراطورية من اختصاص الإمبراطور يعينها من عام الى عام ، وكانت مؤنة الجيش الروماني من الشعب المصري الذي لا يبقى له شيء ولم يكن هذا النظام المتبع في تقدير الضرائب وجبايتها خاصاً بمصر ، بل كان هو النظام العام المنفذ في جميع أقاليم الإمبراطورية ، وكانت الحكومات تسلف المزارعين البذور على أن يردوها في نهاية العام مضافاً إليها فائدة قدرها ٤ ١/٦٪ ، وكانت هناك ضرائب متفرقة تفرض نقداً منها ضريبة تسمى " نوبيون" يقول " ملن " عنها أن الغرض منها مجهول ، ولكن يستدل من الوثائق التي أوردها " جونسون " أنها كانت من أجل تطهير القنوات، وقد بلغت في حالة مائة درهم على الفدان الواحد .

وهناك ضريبة على الرؤوس والأراضي والماشية كل فصيلة على حده ، الثيران والجمال والغنم والماعز والحمير ، وكل أنواع المهن التجارية حتى الباعة المتجولين والإسكافيين والعاهرات كانت تؤخذ على حساب الإيراد المتسلم كل شهر ، ولكن مقدار نسبتها غير معروف ، فهذه كانت بمثابة ضريبة دخل وقد أثبتت الوثائق العديدة وجودها ، وكان مفروضاً على المبيعات ضريبة بنسبة ١٠٪ تسمى " انكيكلوين " وهناك ضرائب على النقل ، وهذا غيض من فيض من الضرائب التي كانت تفرضها الإمبراطورية الرومانية على مواطنيها [1] .

وأما عن الإمبراطورية الفارسية فلا تقل عن سابقتها في ظلم رعاياها، يقول ابن خلدون وهو يدلل على أن الظلم مؤذن بخراب العمران والدولة " وانظر في ذلك ما حكاه " المسعودي " في أخبار الفرس عن " الموبذان " صاحب الدين عندهم أيام " بهرام بن بهرام " ،" وما عرض به" أي " الموبذان " للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة ، يضرب المثال في ذلك على لسان البوم ، حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها ، فقال له : أن بوماً ذكراً يروم نكاح أنثى ، وأنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام ، فقبل شرطها ، وقال لها إن دامت أيام الملك اقطعتك ألف قريه ، وهذا أسهل مرام ! فتنبه الملك من غفلته ، وخلا " بالموبذان " وسأله عن مراده فقال له : " أيها الملك ، إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة ، والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ، ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل ، والعدل

---

[1] الخراج والنظم المالية للدول الإسلامية / د٠ محمد ضياء الدين الريس ص ٢٥-٥٦

الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعله له قيماً وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ، ومن تؤخذ منهم الأموال ، اقتطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع، وسوموا في الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم ، وآووا إلى ما تعذر من الضياع فسكنوها ، فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الأموال ، وهلكت الجنود والرعية ، وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك، لعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك إلا بها ،" ثم ذكر بعد ذلك أن الملك لما سمع هذه العظة أو هذا النذير عاد الى صوابه ، وأقبل على النظر في ملكه ، وانتزع الضياع من الخاصة فردها إلى أربابها ، فعمرت البلاد ، وكثرت الأموال عند جباة الخراج ، وقويت الجنود وشحنت الثغور.

فهذه القصة الرمزية وإن كانت تفيد أن هذه الحالة وقعت في عهد "بهرام" إلا أنها جمعت الى أدلة أخرى تبين أن مثل هذه الحالة وجدت في غير ذلك من العهود ، وأن الظلم والاضطراب الاقتصادي وجدا قبل ذلك العهد وبعده .

وقد كان ملوك كسرى يقاسمون الزراع وأصاحب الأرض محصولاتهم وكانت نسبة المقاسمة على ما ذكر " سايكس " تتراوح بين العشر والنصف ، ورواية الجهشياري تخالف ذلك إذ يقول : وكان ملوك فارس يقاسمون الناس على ثمارهم وغلاتهم وكان أكثر ما يأخذونه الثلث وأقله السدس ، وكانوا كذلك يفرضون ضرائب معلومة على الرؤوس فقد جعلت ضريبة الرأس واجبة على كل رجل من سن العشرين إلى الخمسين .

لقد كانت دولتا روما وفارس في رخاء ونمو ، فالضرائب تتدفق الى خزائن الملوك وتصل إلى مبالغ هائلة ، وفخامة وترف عاصمتيها كان يضرب بهما المثل ، ولكن هذا كله كان في الظاهر أما في الحقيقة فإن داءً دفيناً كان يعمل عمله ليودي بحياة الإمبراطوريتين ، فقد كانتا ترزخان تحت نظام حكم استبدادي ساحق . في ذلك الوقت بدأت حركة الفتوح الإسلامية وكانت دولة الإسلام التي تكونت في الجزيرة العربية وأسسها محمد ﷺ [1] .

أين هاتين الإمبراطوريتين في ظلمهما من عدالة دولة الإسلام التي جعلت من الجزية مسببة بالحماية والكف وبمقدار محدد بدينار أو موكولة للإمام واجتهاده وعلى حسب طبقات الناس الثلاث الأغنياء والأوساط والعمال، بثمانية وأربعين ، وأربعة وعشرين واثنى عشر درهماً على الترتيب ، وجرى على هذا أبو يوسف ، وهذا الذي صنعه عمر رضي الله عنه .

الدولة الإسلامية دولة مدنية

الدولة الإسلامية دولة مدنية تحترم الإنسان وترفع من قدره وتعطيه حقوقه بغض النظر عن دينه وقد تحدد وضع الناس في أمة الإسلام على النحو الآتي :

١- إن هذه الأمة تجمع شمل كل المسلمين بلا استثناء ، ممن عاش داخل العالم الإسلامي أو خارجه .

٢- أن هذه الأمة موجودة بالفعل سواءً تجمعت أوصالها في دولة واحدة أو مجموعة دول .

---

[1] المصدر السابق ص ٥٧-٨٨

٣- أن هذه الأمة تفتح صدرها وذراعيها لمن يكن مسلماً ويعيش مرتبطاً في المكان ومشاركاً في مسؤولية الحياة مع المسلمين ٠

والإسلام لا يكره أحداً على إتباعه قال تعالى " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي "[1] وقال تعالى " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين "[2]

ومما يؤكد عدم إجبار وإكراه الإسلام الناس على الدخول فيه وجود طائفة من أهل الكتاب يعيشون بين ظهراني المسلمين في فلسطين وغيرها من أرض الإسلام ، فلو كان الإسلام يكره أحداً على الدخول فيه لما بقي أحد على غير الإسلام ٠

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ٠

****

[1] سورة البقرة آيه ٢٥٦
[2] سورة يونس آيه ٩٩

المقالة السادسة

الإسلام وأهل الذمة من أهل الكتاب

د. اسماعيل نواهضه*

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد:

يقول الله تعالى : " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ،ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون " [1]

إنها دعوة منصفة من غير شك ، دعوة لا يريد بها النبي صلى الله عليه وسلم أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد، لا يعلو بعضهم على بعض ، ولا يستعبد بعضهم بعضاً . دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد ، لا يريد أن يفيء الى

---

* عميد كلية القرآن والدراسات الإسلامية - جامعة القدس - القدس

[1] سورة آل عمران ٦٤

الحق القويم ، إنها دعوة الى عبادة الله وحده لا يشركون به شيئاً ، لا بشراً ولا حجراً ، ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضاً من دون الله أرباباً ، لا نبياً ولا رسولاً، فكلهم لله عبيد ·إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه ، لا لمشاركته في الألوهية والربوبية ، فإن أدوا عبادة الله وحده دون شريك ·

وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية إن تولوا فقولوا بأنا مسلمون· والإسلام بهذا المعنى هو الدين عند الله وهو الذي جاء به كل رسول من عند الله ·

لقد أرسل الله الرسل بهذا الدين ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جور العباد إلى عدل الإسلام ، فمن تولى عنه فليس مسلماً بشهادة الله ، مهما أول المؤولون وضلل المضللون ، ؛ إن الدين عند الله الإسلام "[1]

سكان الدولة الإسلامية

قسم الفقهاء المسلمون السياسيون سكان الدولة الإسلامية إلى أنواع ثلاثة هي :

١- المسلمون

٢- الذميون

٣- المستأمنون

يشكل المسلمون والذميون رعايا أو مواطني الدولة الإسلامية لأنهم يقيمون فيها إقامة دائمة ، أما المستأمنون فهم الأجانب لأنهم يدخلون دار الإسلام لأمد محدود ·

---

[1] سورة آل عمران آيه ١٨

والدولة الإسلامية تمارس سيادتها عادة على المواطنين جميعاً · وعلى جميع الذين يقيمون في نطاق حدودها ، ولا يصح أن يستثنى فرد أو طائفة من القانون السائد والتشريع المطبق وإلا عدّ ذلك تمييزاً بين الناس وانتقاصاً من سيادة الدولة وإذا أخذت الدولة بعين الإعتبار اختلاف أديان السكان وجنسياتهم فلا يصح أن يصبح ذلك امتيازاً لهؤلاء الأفراد أو الطوائف لأنه مناقض لسيادة الدولة ·

والمسلمون في الدولة الإسلامية هم الذين يؤمنون بالإسلام ديناً ونظاماً ، فهم يرتبطون بالدولة ارتباط وطنية وعقيدة ·والمسلم رعوية إسلامية أياً كان موطنه ، ولا يصح أن توضع أمامه الحواجز والحدود ، بل يباح له التنقل والعمل في جميع أقطار المسلمين · وأما الحدود التي توضع في وجهه الآن ، فإنها ليست من الإسلام في شيء، والمسلم يرث المسلم أياً كان موطنه · كما أنه يعاقب بعقاب الإسلام إذا ارتكب جريمة في غير دار الإسلام، ودار الإسلام تعتبر وطن المسلمين جميعاً ·

وأماالذميون : فهم الذين يقيمون بين المسلمين إقامة دائمة بموجب عقد الذمة ، فهم رعوية إسلامية أو مواطنون ، وإذا كان ارتباط المسلمين بالدولة ارتباط جنسية ودين ، فإن ارتباط الذميين قاصر على الوطنية والجنسية ، والذميون هم أولئك الذين كانوا من سكان البلاد التي فتحها المسلمون وفضلوا البقاء فيها فدخلوا في ذمة المسلمين ·

وإذا دخل المواطن في ذمة المسلمين ، فقد التزم بتكليف مالي بسيط لقاء حماية المسلمين له ، والتزم أيضاً بتطبيق أحكام المعاملات المالية والعقوبات التي تضعها الدولة · وبعض من الخضوع للقانون العام فيما يتعلق بالحقوق الشخصية (الزواج والطلاق والميراث) لأنها تتعلق بأمور دينية ولا

يصح أن يجبر عليها . وقد كان وضع الذميين في الدولة مجالاً لبحوث كثيرة وافتراءات ودس على الإسلام والمسلمين، وأكثر ما تنصب افتراءاتهم على واجب دفع الجزية الذي يرتبه عقد الذمة على الذمي – فما هي هذه الأقوال ؟.

لا بد من الإشارة إلى أن خصوم الإسلام يتبعون القاعدة المعروفة الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، فهم حين يتهمون باستعمال السيف والعدوان على الأمم فإنهم يوجهون التهمة إلى الإسلام فيقولون إنه دين السيف ، حتى يشغل المسلمون عنهم بالدفاع عن أنفسهم ، وحين يتهمون بأنهم أساءوا إلى المسلمين الذين يعيشون في كنفهم واضطهدوهم فإنهم يوجهون إلى المسلمين تهمة التعصب واحتقار غير المسلمين ويضربون على ذلك مثلاً بالجزية [1] . – فما هو قول الحق في هذا المجال ؟.

قال الله تعالى : " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " [2] .

هذه الآية والآيات التالية لها في السياق كانت تمهيداً لغزوة تبوك ومواجهة الروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين من العرب . وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيها هي صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة . وإنها إثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة ، وهذا ما يدل عليه السياق القرآني في مثل هذه المواضيع ، فهذه الصفات القائمة لم تذكرها على أنها شروط لقتال أهل الكتاب ، إنما ذكرت على أنها أمور واقعة في عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم ، وإنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم ، ومثلهم في هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم .

---

[1] انظر معالم الثقافة الإسلامية عبد الكريم عثمان ط الثالثة ص ٢٢٣-٢٣٣

[2] سورة التوبة آيه ٢٩

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة :

١- أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

٢- أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله

٣- أنهم لا يدينون دين الحق

إن هذه الآية الكريمة تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر، والذي يقول ببنوة عزير لله أو بنوة المسيح لله لا يمكن أن يقال عنه : إنه يؤمن بالله. وكذلك الذي يقول : إن الله هو المسيح بن مريم أو إن الله ثالث ثلاثة أو أن الله تجسد في المسيح ... إلى آخر التصورات الكنسية التي صاغتها المجامع المقدسة على كل ما بينها من خلاف والذين يقولون : أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار.

والذين يقولون : إن كل معصية تغفر بالإتحاد بالمسيح وتناول العشاء المقدس ، وأنه لا مغفرة إلا عن هذا الطريق . هؤلاء وهؤلاء لا يقال : إنهم يؤمنون باليوم الآخر ، وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم " لا يحرمون ما حرم الله ورسوله " .

وسواء كان المقصود بكلمة رسوله ، هو رسولهم الذي أرسل إليهم ، أو هو النبي ﷺ فالمعنى واحد ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل . وأكل أموال الناس بالباطل محرم في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

وأقرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطل هو المعاملات الربوية وهو ما يأخذه رجال الكنيسة مقابل (صك الغفران) وهو الصدّ عن دين الله والوقوف في وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين

عن دينهم ، وهو تعبيد العباد لغير الله وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم ينزلها الله ، فهذا كله ينطبق عليه ، " ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله " وهذا كله قائم في أهل الكتاب ، كما كان قائماً يوم ذاك.

كذلك تصفهم الآية بأنهم لا يدينون دين الحق ، وهذا واضح مما سبق بيانه ، فليس بدين الحق أي اعتقاد بربوبية أحد مع الله ، كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله . وتلقي الأحكام من غير الله، والدينونة لسلطان غير سلطان الله وهذا كله قائم في أهل الكتاب ، كما كان قائماً فيهم يوم ذاك .

والشرط الذي يشترطه البعض للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا فلا إكراه في الدين ، ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فما حكمة هذا الشرط ، ولماذا كانت هذه هي الغاية التي ينتهي عندها القتال ؟ إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقاداً وسلوكا ، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب وواقعهم – وفق ما تصوره هذه الآيات – كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم وعدم إمكان التعايش بين المنهجين.وذلك بوقوف أهل الكتاب في وجه دين الله فعلا، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية " وخلال الفترة اللاحقة لها " .

والإسلام : بوصفة دين الحق الوحيد القائم في الأرض ، لا بد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه ، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق، على أن يدع لكل فرد حرية الإختيار بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك ·

وإذن فالوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية ، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه، هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق ، حتى تستسلم ، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلاً · وعندئذ تتم عملية التحرير فعلاً ، لضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع ، فإن لم يقتنع بقي على عقيدته ، وأعطى الجزية لتحقيق عدة أهداف :

أولهما : أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة على دين الله الحق ·

وثانيهما : أن يساهم في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون في ذمة المسلمين وضمانتهم) ويدفع عنها من يريد الإعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين ·

وثالثهما : المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل ، بما في ذلك أهل الذمة ، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة[1] ·

ومفهوم قوله تعالى : " حتى يعطوا الجزية " فيه تأويلان أحدهما : حتى يدفعوا الجزية ، والثاني : حتى يضمنوها لأن بضمانها يجب الكف عنهم ·

في الجزية تأويلان :

أحدهما : أنها من الأسماء المجملة التي لا نعرف منها ما أريد بها إلا أن يرد بيان ·

---

[1] انظر تفسر الظلال للشهيد سيد قطب ج ٣ ص ١٦٣١-١٦٣٣

والثاني : أنها من الأسماء العامة التي يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خصه الدليل .

وفي قوله سبحانه " عن يد " تأويلان أحدهما عن غنى وقدرة ، والثاني أن يعتقدوا أن لنا في أحدها منهم يداً وقدرة عليهم .وفي قوله " وهم صاغرون " تأويلان : أحدهما أذلاء مستكينون ، والثاني : أن تجري عليهم أحكام الإسلام . فيجب على ولي الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل في الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها في دار الإسلام ويلتزم لهم ببذلها والحقوق التي ذكرتها آنفاً . وقد روى نافع عن ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم أن قال " احفظوني في ذمتي " [٢] .

وكان المسلمون يردون لهم هذا المبلغ حين لا يستطيعون حمايتهم : حدث ذلك كثيراً في تاريخ المسلمين. فقد حصل مثلاً أن أمر أبو عبيدة برد أموال الجزية لجميع مدن الشام حين علم أن الروم حشدوا جيوشهم على حدود الدولة الإسلامية في الشمال ، وذلك خشي أن لا يستطيع الدفاع عنها ، وفي كتابه لأمراء الأجناد لتنفيذ هذا الأمر طلب إليهم أن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنا قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ونحن لا نقدر على ذلك ، وقد ردوا عليهم أموالهم بالفعل وكان من نتيجة ذلك موقف رائع يذكره التاريخ ، فقد قال لهم أهل هذه المدن من الذميين : ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي الروم وهم على دينهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي لنا .كما حصل أن رد صلاح الدين الجزية

---

[٢] انظر الأحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الطبعة الأولى ص ١٤٢ –١٤٦ .

إلى نصارى الشام حين اضطر إلى الانسحاب منها ، وتكرر نفس التقدير الذي ظهر لدى الذميين أيام أبي عبيدة حين انتصر صلاح الدين ·

وعلق آرنولد على ذلك في كتابة (الدعوة إلى الإسلام) بقوله : لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعين مستبشرين ، كما استمر الحكام المسلمون على عاداتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل الملل الأخرى ·

وإذن فإن الجزية ثمن الحماية ، وهي لا تعادل إلا مقداراً بسيطاً مما كان يدفعه المسلم من تكاليف مالية كالزكاة والعشور وغيرها · والجزية ليست من مبتدعات الإسلام ، وإنما هي نوع من المعاملة بالمثل ، فقد كانت موجودة لدى الأمم السابقة كاليونان والرومان والفرس، وحين طبقها الإسلام طبقها على صورة لم يعهدها مجتمع من السماحة والعدل ومراعاة الظروف والأحوال ·

وقد حفظ الإسلام للذميين حريتهم في ممارسة عباداتهم وعقائدهم ، وسمح لهم بأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق التجارة والكسب والعمل والتنقل حتى أنهم يتمتعون بكثير مما لا يحق للمسلم أن يتمتع بها ، فمعظم الفقهاء يبيحون للنصارى تعاطيهم الخمور والخنازير والتجارة فيها إذا كانت غير محرمة في دينهم ، بينما لا يباح للمسلم أن يتعاطى هذه الأعمال ·

فدم الذمي وماله مصونان ، وحريته وكرامته محترمان ، وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا في أحاديث عدة منها :" من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته "كما أن الخليفة عمر كان يسأل عماله أول ما يسألهم عن أحوال أهل الذمة ·

ولعلنا نذكر جميعاً كيف أمر عمر بن الخطاب بضرب ابن والي مصر عمرو بن العاص لأنه أساء إلى ذمي ، ثم قال قولته الخالدة : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " ·

وقد جاء في عهد الأمان لمصر على لسان عمرو بن العاص ، أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصليبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقض ، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ، ومن بقي لا يمنع من تجارة صادرة أو واردة .

وبلغ من رعاية الدولة الإسلامية لأهل الذمة أنها كانت تفرض لهم من بيت مال المسلمين إذا كانوا في حالة لا يتكسبون بها ، وكان هذا يدخل في عهد الذمة أحياناً ، فقد جاء في عهد خالد لأهل الحيرة : " وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام" .

وقد ذكر الإمام الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الشروط المستحقة في عقد الجزية وهي:

١- أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له .

٢- أن لا يذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيب له ولا ازدراء .

٣- أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه .

٤- أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح

٥- أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا لدينه .

٦- أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم .

فهذه الستة حقوق ملزمة، فتلزمهم بغير شرط وإنما تشترط أشعاراً لهم وتأكيداً لتغلظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم ·

وهناك شروط مستحبة قد ذكرها الفقهاء أيضاً وهذه الشروط لا يلزم بعقد الذمة حتى تشترط فتصير بالشرط ملزمة ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم · ولا أرى ضرورة في الإستطراد الى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم ، ولا مقادير هذه الجزية ، ولا عن طريق ربطها ومواضع هذا الربط ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها :يقول سيد قطب رحمه الله حول هذا الموضوع ما نصه :

إنها قضية تعتبر اليوم " تاريخية " وليست واقعية ، إن المسلمين اليوم لا يجاهدون ! ! ! ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون ! إن قضية وجود الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج ·

والمنهج الإسلامي – كما قلنا من قبل مراراً – منهج واقعي جاد يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء ، ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع لأن الواقع لا يضم مجتمعاً مسلماً تحكمه شريعة الله ، ويصرف حياته الفقه الإسلامي – ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل ، ويسميهم الأرأيتين الذين يقولون : " أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم ؟ "

إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام · أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق ، فيشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ومن ثم يدينون لله

وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة ، ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان ، ويومئذ – ويومئذ فقط – سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات ٠

ويومئذ – ويومئذ فقط – يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية والأشتغال بصياغة الأحكام ، والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل لا في عالم النظريات[1] ٠

****

[1] انظر تفسير الظلال ج ٣ ص ١٦٣٤ – ١٦٤٥ ٠

الهوامش:

١- سورة آل عمران آيه ٦٤ ٠

٢- سورة آل عمران آيه ١٨ ٠

٣- انظر معالم الثقافة الإسلامية عبد الكريم عثمان طه الثالثة ص ٢٢٣-٢٣٣ ٠

٤- انظر تفسير الظلال للشهيد سيد قطب ج ٣ ص ١٦٣١ -١٦٣٣ ٠

٥- انظر الحكام السلطانية والولايات الدينية لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الطبعة الأولى ص ١٤٢-١٤٦

٦- انظر تفسير الظلال ج ٣ ص ١٦٣٤-١٦٤٥

المقالة السابعة

العلاقة الإسلامية-المسيحية
الحواريين المسلمين والنصارى في فلسطين

د. محمد عبد القادر عابدين*

المقدّمة

هناك وضع مقلق، حيث ينظر بعض المسيحيين إلى المسلمين نظرة غير سليمة يعتريها الظلم والحقد، أو - على أحسن وجه- يتوجّسون خيفة من حكم الإسلام وصحوة المسلمين. وكذلك ينظر بعض المسلمين إلى المسيحيين نظرةً غير سليمة أو مجانبةً للحقّ، مما يترك جرحاً نازفاً، وبخاصّة في فلسطين المحتلة.

ومن جانب آخر، هناك تركيز -الآن- على الخطاب الدينيّ والعقائديّ، بحيث تصبّ نتائجه في خانة مواجهة التدين على اعتبار أن ذلك مطلب للنظام العالميّ الجديد، وأنه يُمكّن الدول المسيطرة من مواجهة التيار المتدين (الإسلامي) الذي يقف في وجه الهيمنة العلمانية الاستعمارية الغربية والصهيونية.

---

* محاضر في جامعة القدس — القدس

هاتان نقطتان تقودان إلى البحث في الحوار بين المسلمين والنصارى (المسيحيين) على وجه الخصوص، وهو أمر يلزمه توضيح المقصود بالحوار، ومبرراته، وأسسه، وأهدافه، ومقاصده.

الحوار بين المسلمين والنصارى (المسيحيين)

الحوار في الإسلام مبدأ أصيل وليس مستحدثاً. وقد جاء في القرآن الكريم جملة أنواع من الحوار، منها: الحوار بين الله تعالى وملائكته وأنبيائه، وبين الله تعالى وإبليس، وكذلك الحوار بين الأنبياء وأقوامهم، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار. والسيرة العملية للرسول صلّى الله عليه وسلّم تبين أنه عليه الصلاة والسلام حاور قومه من المخاصمين والمعاندين ومنهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان، وحاور عدي بن حاتم بعد إسلامه.

وفي كلّ الأحوال كان الحوار مبنياً على المجادلة ومحاولة الإقناع، وليس على التهديد أو الإشاعة أو الفتنة أو القمع. وقد أشار سعود المولى[1] إلى أن الحوارات التي نقلها القرآن الكريم تحمل في سياق مضامينها وأبعادها المعاني التالية:

(١) الاختلاف سنة إلهية. (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيْ مَا آتَاكُمْ، فَاسْتَبِقُوْا الخَيْرَاتِ[2])

(٢) الاختلاف رحمة للناس. (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُوْ فَضْلٍ عَلَىْ العَالَمِيْنَ)[3]

---

[1] ١٩٩٦، ص٣٣-٣٤

[2] المائدة، الآية ٤٨

[3] البقرة، الآية ٢٥١

(٣) الاختلاف ركن المعرفة. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [١]

(٤) الفطرة قبول الآخر والحوار معه. {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [٢].

(٥) الحكم الأخير هو لله تعالى، والحقيقة ضالّة المؤمن يأخذها أنّى وجدها. (إِلَيْ اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٣]) . (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٤]) (لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [٥]) .

(٦) شرط الحوار هو الإسلام لربّ العالمين، أي الوقوف على أرض واحدة. (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَيْ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) [٦]

وحقيقة الحوار أنه فعلٌ أو عمليةٌ تتطلب وجود طرفين -أو أكثر- بحيث يبدي كلّ طرفٍ استعداداً نفسياً وذهنياً لها. فلا يمكن أن يأتي الحوار نتيجة ضغطٍ أو دافعٍ إجباريّ، أو أن يكون إملاءً فوقياً من القوي على الضعيف، أو أن يكون مجرد ردّ فعلٍ على اتهامات أو متغيرات متنوعة.

---

[١] الحجرات، الآية ١٣
[٢] يونس، الآية ٩٩
[٣] المائدة، الآية ٤٨
[٤] الحجّ، الآيتان ٦٨-٦٩
[٥] الشورى، الآية ١٥
[٦] آل عمران، الآية ٦٤

وحين نتحدّث عن الحوار الإسلاميّ–المسيحيّ في فلسطين، فهل يتوفّر الاستعداد النفسيّ والذهنيّ له؟ أم أنه يجري امتداداً لرغبات الغرب، أو محاولةً لدرء مخاطر الاتهام بالتطرّف والعداء للآخرين، أو جرياً وراء "الموضة" في البحث عن حوار الحضارات والأديان واكتشاف "الدين الإبراهيميّ" المشترك؟

يلاحظ أن الحوار المقترح أو المنادى به فلسطينياً لم يتخلّص من دائرة الصراع بين الغرب والإسلام، ولا من دائرة التوجيه الفاتيكانيّ، ولا من دائرة الخوف من سيطرة الآخرين، مما جعله غامض الأهداف، بل ومُعرّضاً للفشل.

فالغرب –وبعد تخلّصه من عدوه الشيوعيّ– يتخذ من الإسلام عدوّاً، ويسعى إلى تحطيم المسلمين، وبخاصةٍ العرب منهم، بشتّى الوسائل. وهاكم ما يحصل في فلسطين والعراق وليبيا والسودان وأفغانستان وغيرها، وما نادى به الأمريكي صموئيل هنتنغتون في كتابه "صراع الحضارات" شاهدٌ على ذلك. وإن الغرب يسعى لترسيخ العداء مع المسلمين ليعطي لنفسه المبرّر لتطبيق سياسته الجائرة نحو الشعوب العربية والإسلامية ولتحقيق رغبته الجامحة بفرض سيطرته عليهم. والغرب المسيحيّ، وبخاصّة الأمريكيّ الإنجيليّ، يقف إلى جانب دولة "إسرائيل" ويدعو إلى دعمها وتأييدها من منطلق دينيّ ذي تفسيرٍ مبرمجٍ لمعتقداتٍ في الكتاب المقدس، بل إن احتلال اليهود للقدس وهجرتهم إليها مشروعٌ غربيٌّ بروتستانتيٌّ. والفاتيكان كان يقيم نظرته –إلى عهدٍ قريبٍ– على أن انتشار الإسلام خطرٌ على الكنيسة، وأن الصحوة الإسلامية العالمية كارثةٌ لا يقلّ خطرها عن الشيوعية، علاوةً على أن ثمة عداءً غربياً مسيحياً للإسلام متأصّلاً في التاريخ في الإرث النصرانيّ الذي ينظر إلى الإسلام على أنه حركة "هرطقة" (السماك، ١٩٩٨؛ وأمين وعمارة،

١٩٩٧). ويبين الهزايمة (١٩٩٧) أن الدعم الغربيّ [المسيحيّ] اللامحدود لإسرائيل مصدره الكتاب المقدّس، إذ اقتطع من العهد القديم عبارات ومضامين تخدم اليهود وتحقق مآربهم.

"وإن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحيّ [الغربيّ] سوى القليل من التعاطف والودّ ... وإن الغربيين، ومنهم العلماء والمتخصصين، أظهروا تعاطفاً وتفهماً لكلّ ما يتعلق بأهداف دراساتهم، ولكن تفهمهم للإنسان وتعاطفهم معه كان أقلّ ... وهذا ما يأخذه المسلمون عليهم في أيامنا هذه. ... وفي أكثر الأحيان، عرف المسلمون العالم الغربيّ من خلال الأنظمة الاستعمارية. وباختصار، يجب أن نعي بكلّ موضوعية أن المسيحيين لم يحققوا بعد -كمجموعة- الشرط الأول والأهمّ الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو على حقيقته."**

إن الحوار المنشود، كما يحدّده طارق البشري (١٩٩٧) ليس مجرد كلام أو كتابة بين الأطراف المتحاورة، وإنما هو أيضاً ممارسةٌ من خلال الاعتراف بحقّ كلّ طرفٍ في الوجود والحياة والممارسة، مما يتطلب أن تكون مواقف كلّ طرفٍ نحو الآخر مبنيةً على قناعات أصيلة، وليس مجرد دعاوى وافتراءات.

وبالعودة إلى واقع المسلمين والمسيحيين في فلسطين نرى أن هناك خوفاً لدى المسيحيين من شعار "الإسلام هو الحلّ" ومن الصحوة الإسلامية العالمية، وهو خوفٌ لا مبرر له. فحين ينادي المسلمون،

** (السماك، ١٩٩٨، ص١٥) نقله السماك عن دراسة للأب جوزيف كوك والأب لويس غارديه في كتاب "من أجل حوار إسلاميّ مسيحيّ: موقف المسيحية من الإسلام كما صوّره الفاتيكان"، ترجمة سليم اليافي وزهير ماردينى، بيروت، دار الجديد، ١٩٨٣، ص٣١.

وهم السواد الأعظم في فلسطين،*** بأن يكون الإسلام هو الحلّ، فهذا لا يعني قط إكراه الناس حتى يكونوا مسلمين، لأن الحلّ في الإسلام هو ألا يُكره الناس حتى يكونوا مسلمين. إنما الشعار إقرارٌ بأن الإسلام في عقيدته، ومنهجه، وتشريعاته، ونظمه، وحفظه للإنسان وكرامته وحقوقه هو القادر على إخراج الناس من العبودية الظلماء، ومن النكد والفصام والضنك الذي يعيشونه، ومن استبداد الإنسان بأخيه الإنسان إلى الحرية والعدالة والكرامة والأمن والسلام. ورفع هذا الشعار والدعوة إليه حقّ طبيعيّ مقدس لأنه يكفل للمسلمين والنصارى (المسيحيين) -على حدّ سواء- حقوقهم الإنسانية والدينية والدنيوية. وفي ظلّ هذا الشعار يُنادى بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [1]، وبقوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [2]

وإن رفع شعار "الإسلام هو الحلّ" هو إقرارٌ ممن يرفعونه بأنهم يشهدون لله تعالى بالوحدانية ولرسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم بالرسالة، وليس دعوةً منهم إلى اضطهاد غيرهم أو ظلمهم. وحين يفهم الآخرون هذا الشعار على أنه دعوةٌ للشعوب والبلاد الإسلامية للخروج عن الإرادة الغربية وتهديد مصالحها فذلك كِبرٌ أو استكبارٌ وظلمٌ وجهالةٌ منهم.

وما دام الأمر كذلك، أي: ما دام المسلمون في فلسطين يرفعون شعار "الإسلام هو الحلّ"، فَعَلامَ الحوار؟ يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين (١٩٩٦، ص١٥) في شأن الحوار:

*** يعتقد أن نسبة السكان المسلمين إلى المسيحيين في فلسطين هي (١٩ : ١). ومن الغريب أن دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية قد تجاهلت متغير الديانة في تعدادها السكاني الذي أجرته عام ١٩٩٧م، ولم تتم الإشارة إليه قط، في حين اهتمت بمتغيرات كثيرة نحو المهنة، والإعاقة، ونوع السكن، وعدد الغرف، والدخل، وعدد أفراد الأسرة، ... الخ.

[1] البقرة، الآية ٢٧

[2] آل عمران، الآية ٦٤

"الإسلام عالمٌ ثقافيٌ لأتباعه، والمسيحية عالمٌ ثقافيٌ لأتباعها . وإن الإسلام يتميز عن أي دينٍ آخر بعقيدةٍ تتضمن مفهوماً معيناً للكون والحياة والإنسان، وشريعةً تعكس العقيدة في علاقات الإنسان وضرورة حياته، وأخلاقياتٍ تتجاوز الشريعة إلى مستوياتٍ في السلوك أعلى مما تفرضه حرفية السلوك. والإسلام بما هو عالمٌ ثقافيٌ، يصوغ شخصيات أتباعه وفقاً لعقيدته وشريعته ومناهج السلوك الأخلاقيّ فيه. وبين الإسلام والمسيحية مواضع اختلاف في العقيدة لا يمكن تجاوزها، وليست موضع بحثٍ ولا موضع جدلٍ في الإسلام، كما أنها ليست موضوعاً للاجتهاد، فإن الاجتهاد الإسلاميّ إنما هو في حقل الأحكام الشرعية لا في العقائد . وبين الإسلام والمسيحية مواضع اختلافٍ في الشريعة لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن أن تكون موضوعاً للمناقشة لغاية تعديلها، لأنها من الثوابت في الشريعة. أما ما ليس على هذا المستوى من الثبات في الشريعة من الأحكام والقضايا فهو موضوعٌ للاجتهاد، ولكن ليس لأي اجتهادٍ كان، وإنما للاجتهاد من داخل الإسلام، وفقاً لأصول الاجتهاد المرعية عند الفقهاء منذ أقدم العصور الإسلامية."

وعليه، فليس المقصود من الحوار أن يتمّ تغيير أحد الدينين من الداخل ليتّحد مع الآخر، ولا أن يصل المسلمون والمسيحيون إلى "دينٍ إبراهيميّ" أو "إيمانٍ إبراهيميّ"، إذ لا يمكن أن تكون العلاقة أو الحوار الإسلاميّ- المسيحيّ في فلسطين علاقةً أو حواراً بين دينين، بل هو حوارٌ بين فئتين تعيشان معاً في بلدٍ واحدٍ،- غابت عنه السيادة الإسلامية التي تكفل لهم جميعاً حقّ المواطنة- وكلٌّ منهم مطالبٌ بأن يُؤدي ما عليه من واجباتٍ نحو دينه ووطنه وبني قومه وجيرانه، دون المساس بحقوق الآخرين، أو التفريط بما عليه من واجباتٍ في عاجل أمره وآجله.

إن الحوار بين المسلمين والنصارى (المسيحيين) لا يمكن أن يكون عقائدياً- على الرغم من أن المسلمين مطالبون بدعوة الناس بالمعروف إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي دعوة الأنبياء جميعاً- ذلك أن هذا الحوار يواجه إشكاليتين تؤديان إلى الافتراق كلٌ على دينه.

الإشكالية الأولى: الاختلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام (أو لنقل ألوهيته). فالمسلمون يعتقدون أن المسيح عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأن مثله عند الله كمثل آدم، بينما النصارى -بتفاوتٍ بينهم- يعتقدون بألوهيته وبما يصفونه بالأقانيم الثلاثة.

الإشكالية الثانية: الاختلاف حول نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم. فالمسلمون يعتقدون أن محمداً عبد الله ورسوله وخاتم النبيين جاء مصدّقاً بما سبقه من الأنبياء والمرسلين والكتب، بينما النصارى ينكرون نبوته علية الصلاة والسلام. وأقصى ما أقرّ به النصارى ما جاء في الدستور العقدي للكنيسة اللاتينية من "أن المسلمين يتبعون ملة إبراهيم، ويعبدون معنا الإله الواحد الحيّ القيوم الرحيم ... وأن المسلمين هم أبناء إسماعيل، يعترفون بأبيهم ويؤمنون بالله، وهم ليسوا غرباء عن الوحي الذي نزل على الأنبياء" [1].

إذن، فالحوار مع النصارى في العقيدة غير مستحبّ، وهذا ما أكدّه هويدي (١٩٩٤) في مراجعته لموقف علماء الأزهر الشريف حيال الحوار، بدليل قوله تعالى:(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُوْلُوْا اشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ)، بينما يمكن أن يكون الحوار في الأمور الدنيوية التي تتعلق بالمعاملات التي تدور في إطار

[1] السماك، ١٩٩٨، ص٤٢

التعايش والبر الواجبين في علاقة المسلمين بغيرهم. والحجج العقلية تدعم هذا التوجّه أيضاً، فثمة تعارضٌ عقديٌّ حقيقيٌّ بين الإسلام والمسيحية، والنقاش فيها يؤدي إلى التجريح، إذ القرآن الكريم ينصّ على كفر من قال بالتثليث ومن لم يؤمن بمحمد صلّى اله عليه وسلّم، بينما يرفض النصارى تهم التكفير والشرك وتحريف الإنجيل.

وثمة حجةٌ أخرى لهذا التوجّه هي أن النصارى أنفسهم يرفضون أن تبنى العلاقة معهم على أساس عقديّ. يقول المطران كيرلس بسترس[1] "إن العلاقات بين المسيحية والإسلام لا يمكن أن تُبنى اليوم وفي المستقبل على أساس ما ورد في القرآن الكريم. فالمسيحية اليوم ليست النصرانية التي التقاها القرآن، والمسيحيون اليوم ليسوا (أهل كتاب) وحسب، كما يرد ذكرهم في القرآن، وتعاليمهم ليست التعاليم التي يكفرها القرآن. هذا ما يجب تأكيده بكلّ جرأة وصراحة، وذلك ليس من باب المساومة بل من باب الأمانة الحقيقية." ويتابع المطران بسترس قائلاً: "فالمسيحيون يتساءلون: كيف يدخلون في حوارٍ دينيّ مع مسلمين يعتبرونهم كفرةً؟ والمسلمون يؤمنون من جهة بأن القرآن كلام الله، ويريدون من جهة أخرى الدخول في حوارٍ دينيٍّ مع المسيحيين، ولا يعرفون السبيل إلى ذلك. والطريق الوحيد لتخطي هذه المشكلة هو الإقرار بأن ما ورد في القرآن حول إيمان أهل الكتاب النصارى لا يعتبر التعبير الصحيح عن الإيمان المسيحيّ الذي يعتنقه المسيحيون اليوم."

وهكذا، فالحوار في العقيدة مع النصارى يقود إلى مأزق، إذ لا يمكن مطالبة المسلمين بالتخلي عن معتقداتهم وما ورد في القرآن، وإلا لم يعودوا مسلمين، كما أن النصارى لن يخرجوا من نصرانيتهم ولا يطالبون بذلك كشرطٍ للحوار، وإلا كانوا مسلمين.

---

[1] ١٩٩٤، ص٢٢٥

ومهما يكن من أمر الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ في فلسطين في جانبه العقديّ، فإنّ لكلّ واحدٍ من الدينين: الإسلام والمسيحية مجالين للعمل من خلالهما:

المجال الأول: العمل مع أتباعه والمؤمنين به في توجيههم، وتعليمهم، وتربيتهم وفقاً لتعاليمه وأخلاقياته، وأخذهم بإحياء سننه وتعظيم شعائره.

المجال الثاني: العمل المشترك مع الطرف الآخر من خلال المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية، بحيث تتوجّه الجهود نحو إنقاذ الإنسان الذي ضلّ طريقه وكاد يفقد إنسانيته، فوقع في الرذيلة والدمار، واعتدى على الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

ويقول العلماء إن واجب المسلم الصدع بالحقّ ودعوة كلّ بني الإنسان للإيمان والتوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لإقامة الحجة عليهم دون محاسبتهم على اختيارهم الذي مردّه إلى الله ربّ العالمين. وهنا يسأل سائل: وماذا حين يبقى غير المسلم على دينه، وبخاصّة النصرانيّ على نصرانيته؟ هل يتعاونون أم يتصارعون؟ والجواب باختصار هو قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1]. وإنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد عقد حلفاً (وثيقةً مدنيةً) مع اليهود في المدينة المنورة لحمايتها وترتيب أوضاعها رغم بقائهم على دينهم.

---

[1] الممتحنة، الآيتان ٨-٩

والخلاصة أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين اليوم تقوم على أنّ كليهما مواطنون في فلسطين. وحيث إنّ فلسطين الآن معتدى عليها، ومحتلة، ومهدّدةٌ في مقدّساتها من قبل طرف ثالث، فالمطلوب من الطرفين التعاون للوقوف في وجه المعتدي، وردّ الحقّ لأصحابه، ولترتيب أوضاعهم المدنية والدنيوية دون إجحافٍ بحقوق الآخرين، أو محاولةٍ لاحتوائهم. وبالنسبة للمسيحيين الفلسطينيين، فلا بدّ من وقفة محاسبة حول العلاقة مع الغرب في مواجهة الكيان السياسيّ اليهوديّ في فلسطين، إذ إنّ مواجهته بل إزالته "لا تتمّ إلاّ بإزالة الكيان من عقول الغربيين ومن عواطفهم، لأن الدول الكبرى، وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا مؤمنة بهذا الكيان. ويصعب على العرب مقارعة [تلك] الدول العين بالعين والسن بالسن، فلا يبقى إلاّ عملية غسل أدمغة الغربيين من الأباطيل التي حشتها فيه اليهودية المتصهينة" [1]

وبناءً على ما مضى، يمكن تحديد الأهداف التالية للعلاقة الإسلامية–المسيحية في فلسطين:

١. إبراز المساحات المشتركة بين المسلمين والمسيحيين في الإيمان وفي الأخلاق والتسامح.

٢. تعميق المصالح المشتركة للطرفين في مجالات الحياة الدنيوية اجتماعياً واقتصادياً وصحياً، وتوسيع مجالات العمل المشترك والتعاون في النوادي والجمعيات ومؤسسات التعليم والصحة.

٣. تعميق الانفتاح على وجهة نظر الآخرين واحترامها، والخروج من خندق الخوف والريبة نحو الآخرين، والحرص على عدم المسّ بثقافة الآخرين ومعتقداتهم، من أجل الحفاظ على الأمن الداخليّ والنسيج القيميّ الأخلاقيّ في المجتمع.

---

[1] الهزايمة، ١٩٩٧، ص٣٠٧

٤. المحافظة على الوجود المشترك في الديار المقدّسة، وعلى أملاك ومقدّسات كلّ طرف فيها.

٥. منع وقوع خلافات بين المسلمين والمسيحيين، وحلّ أيّة منازعات في الأمور الدنيوية والاجتماعية بعيداً عن اللجوء إلى الغرب ممثلاً في مؤسساته الدينية (الفاتيكان)، ومؤسساته السياسية، بحيث توصد الأبواب في وجه الفتن والصراعات الدينية (الطائفية).

وكي تكون تلك العلاقة صادقةً، ويكون الحوار مجدياً، فلا بدّ من أن تقوم على قاعدة حسن النية، والبراءة الذهنية والنفسية، والثقة المتبادلة، بعيداً عن سوء الظنّ، وعن حملات التشهير المرجفة، والاتهامات الباطلة، والأوهام الصدئة، ومحاولات الاستدراج والتمترس وراء اختلافات عقدية أو موضوعات فرعية مجتزأة. إنه من العبث أن يضع كلٌّ في ذهنه أهدافاً غير معلنةٍ للحوار بحيث يتمّ توظيفه أو توجيهه على نحوٍ غير صادقٍ، كأن يقصد منه استدراج المسلمين، وإثارة الشك لديهم، أو إشغالهم في قضايا فرعية جزئية كحقوق المرأة، وتحديد النسل، ونظرة الدين إلى السلام، أو التخفّف من أزمة الضمير بفعل ما سبّبه الاستشراق والاستعمار والحروب الصليبية، أو فكّ الارتباط بين المسيحية الغربية والحركة الصهيونية. إن النتائج المرجوّة من الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ في فلسطين هي:

- تعزيز فهم كلّ طرفٍ للآخر، بحيث يزول الخوف من شعار "الإسلام هو الحلّ" أو الشعور بالأقلية لدى المسيحيين، ويتوقف الربط الإشراطي بين المسيحيين الفلسطينيين والعداء الغربي المسيحيّ لدى المسلمين.
- إزالة شبهات الصراع الديني الذي يُروّج له ويؤججه أعداء الطرفين، بحيث تعالج أيّة خلافات دنيوية محلية بين الطرفين وفقاً لطبيعتها وليس باعتبارها خلافات دينية.

- تعزيز روح الانتماء والعمل الجماعيّ والوطنيّ المشترك بين الطرفين، خاصّة وأن معاناتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية تكاد تكون مشتركة.
- حماية المسيحيين من حالات التقوقع والانعزال والسلبية، ومن تيار الهجرة إلى الخارج، ومن تيار الانجرار وراء ضلالات الصراع بين الغرب المسيحيّ والمسلمين التي تشكّل كلّها ردود فعلٍ لحالات خوف.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلتُ، وإليه أنيبُ، وإليه المصير، والحمد لله ربّ العالمين.

****

المراجع:

- جلال أمين ومحمد عمارة. (١٩٩٧). الإسلاميون والحوار مع الغرب. (في هشام العوضي: محرّر). الإسلاميون والحوار مع العلمانية والدولة والغرب، ط١. بيروت: دار ابن حزم.
- رضوان السيد. (١٩٩٥). معوقات ومتطلبات العيش المشترك. مجلة الغدير، مجلد ٥ (٢٧-٢٨)، ص ٩٣-١٠٣.
- سعود المولى. (١٩٩٦). الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ: ضرورة المغامرة. بيروت: دار المنهل اللبناني.
- طارق البشري. (١٩٩٧). الإسلام والحوار مع العلمانية. (في هشام العوضي: محرّر). الإسلاميون والحوار مع العلمانية والدولة والغرب، ط١. بيروت: دار ابن حزم.
- فهمي هويدي. (١٩٩٤). الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ كما يراه علماء الأزهر الشريف، ص ٧٣-٩٠. العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية للبحوث والتوثيق.

- كيرلس سليم بسترس. (١٩٩٤). العلاقات المسيحية الإسلامية تاريخاً وحاضراً ورؤيةً مستقبلية، ص ٢٢١-٢٤٨. العلاقات الإسلامية المسيحية: قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل. بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية للبحوث والتوثيق.
- محمد السماك. (١٩٩٨). مقدّمة إلى الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ. بيروت: دار النفائس.
- محمد مهدي شمس الدين. (١٩٩٦). تأملات في صيغة الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ. (في سعود المولى: محرر). الحوار الإسلاميّ-المسيحيّ: ضرورة المغامرة. بيروت: دار المنهل اللبناني.
- محمد عوض الهزايمة. (١٩٩٧). حاضر العالم الإسلاميّ وقضاياه السياسية المعاصرة. عمّان: دار عمّار.

المقالة الثامنة

بسم الله الرحمن الرحيم

المواطنة في الدولة الإسلامية

الشيخ حسن يوسف*

عطفاً على ما سبق إننا لا ننكر لوجود الغير ولا نسعى لإلغائه وتهميشه، بل نقرّ بواقعة، ونذهب أبعد من ذلك إننا ننظر إليه الشريك الكامل في الحدث وحركة الحياة، كي يستفاد منه ويستفيد في مجالات الخبرة والتخصص و الإبداع إلى غير ذلك من المجالات المختلفة. والإطار العام الذي يكشف هذا الأمر ويوضحه ما قاله الرسول الكريم ﷺ عن مجموع أهل الكتاب الذين يعيشون بين ظهرانينا " لهم ما لنا وعليهم ما علينا ".

إذن هي حقوق المواطنة الكاملة دونما نقص، فلهم من الحقوق ما لأي مسلم، وعليهم من الواجبات ما على المسلمين من واجبات. فهي ليست منّة يتفضل بها من يشاء وقت ما شاء بل هي حق وواجب، وهذا ما صدقه الواقع ولا يزال يصدقه. إننا لا ننظر لأهل الكتاب أنهم مواطنون من الدرجة الثانية أو الثالثة أو ما هو دون ذلك، إنهم مواطنون من الدرجة الأولى ليس إلاّ، والأبواب

* رئيس قسم الزكاة في مدير الأوقاف – رام الله

مفتوحة أمامهم على مصاريعها وتكافؤ الفرص مشرعة لهم كذلك، والارتقاء في الواقع هي ممنوحة لهم بمقدار ما تخولهم أوضاعهم للتبوء فيها.

وهذا الأمر نابع من معايير وقيم العدل والمساواة التي يجذرها الإسلام في قلوب وضمائر وحياة الأمة على كل صعيد وفي كل زمان ومكان. وإن كرامة الإنسان في الإسلام هي معيار أساسي في النظرة الإسلامية للإنسان كإنسان. وبغض النظر عن دينه ولونه وجنسه وعرقه وغير ذلك من الوشائج الأخرى.

وبما أن هذه هي نظرة الإسلام لأهل الكتاب . وكون النصارى هم الأقرب، فنذكر أن هذا المواطن كي يكون منتجاً ومواطناً وفياً يؤدي ما عليه من واجبات وتدفع له حقوقه الكاملة وغير المنقوصة، فقد أعطاه الإسلام حق أن يحافظ على دمه وعرضه وماله ومعبده، وأن لا تنتهك حرماته بل وتصان ، والدفاع عنهم من كل عدوان غادر، وتجنب كل ما يوغر صدورهم أو يؤذيهم في أنفسهم أو أهلهم وذراريهم.

إن أهل الكتاب كمواطنين في ظل الدولة الإسلامية – ويعيشون بين ظهراني المجتمع المسلم بآلامه وآماله، أتراحه وأفراحه في آن واحد لهم وضعهم الخصوصي، فلهم أشبه ما يكون بحكم ذاتي في ظل دولة الإسلام فيقيمون طقوسهم و معتقداتهم ومناسكهم وفق معتقداتهم دونما اعتراض لا من الحاكم ولا المحكوم، ويقر الإسلام بواقعهم الثقافي والحياتي دونما إكراه أو حتى مجرد سخرية أو استهزاء. والمسلون كلهم – على مستوى الحاكم والمحكوم– هم في هذا الأمر سواء ويتطلب هذا الأمر أن يعطوا ولاء ووفاء لدولة الإسلام ، والالتزام بالسياسات العامة المرسومة للدولة المسلمة التي يخضع لها كل رعايا الدولة مسلمين وغير مسلمين على حد سواء.

وفي تقديرنا أن أهل الكتاب لم يجدوا من العناية والرعاية والحماية ما وجدوه في ظل دولة الإسلام وبشهادة مؤرخيهم وكتابهم من مشارب و طوائف مختلفة.

وهذا ترتون يقول " لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزوار والوثنيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، (ويضيف) وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضائهم وقوانينهم " [1]

واعترف ترتون " بتسامح الحكام المسلمين وليس أدل على ذلك من كثرة استحداث الكنائس وبيوت العبادة في المدن العربية الخالصة، ولم تخل دواوين الدولة فقط من العمال النصارى واليهود بل أنهم كانوا يتولّون في بعض الأحيان أرفع المناصب وأخطرها فاكتنزوا الثروات الضخمة وتكاثرت لديهم الأموال الطائلة كما اعتاد المسلمون المساهمة في الأعياد المسيحية. " [2]

فهذا دليل قاطع على أن أهل الكتاب هم مواطنون بنفس الدرجة كما هو الحال بالنسبة للمسلمين. وفي مجال الأمور الحياتية من حرية العمل والكسب ومزاولة ما يختارون من المهن الحرّة ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

"وقد قرر الفقهاء المسلمون أن أهل الذمة في البيع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين ولم يستثنوا من ذلك إلّا عقد الربا فإنه محرّم عليهم كالمسلمين". كما يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين" [3].

---

[1] قصة الحضارة ول ديورانت ج ١٣ ص ١٣١

[2] أهل الذمة في الإسلام ص ١٧٠

[3] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٢١-٢٢ .

قال آدم ميتز ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة، وتجاراً، وأصحاب ضياع، وأطباء، بل ان أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلاً يهوداً، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد وهو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده." [1]

وأما فيما يتعلق بتولي وظائف الدولة فلأهل الكتاب الحق في تولي وظائف الدولة كالمسلمين إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية التعبدية كالإمامة، ورئاسة الدولة، والقيادة في الجيش والقضاء بين المسلمين. فالإمامة والخلافة رياسة عامة في الدين والدنيا، خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجوز أن يخلف النبي في ذلك إلا مسلم ، ولا يعقل أن ينفذ أحكام الإسلام ويرعاها إلا مسلم، وقيادة الجيش ليست عملاً مدنياً صرفاً بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام إذ الجهاد في قمة العبادات الإسلامية" [2] .

و ما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة، كالوزارة مثلاً، والحكم الإداري، وحق الانتخاب والترشيح في مجلس شورى الدولة. (البرلمانات أو مجالس الشعب والأمة) . والحكم المحلي من مجالس بلدية وقروية ومؤسسات خدماتية. إذا توفرت فيهم شروط الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة." فقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة منهم نصر بن هارون سنة ٣٦٩ هـ وعيسى بن نسطورس سنة ٣٨٠ هـ "[3] .

---

[1] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري / آدم ميتز ج ١ ص ٨٦ .
[2] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٢٣
[3] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٢٣

ويقول آدم متيز في كتاب الحضارة الإسلامية:" من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال" الولاة وكبار الموظفين" والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام." [1] .

" وآخر ما سجله التاريخ من ذلك ما سارت عليه الدولة العثمانية في عهدها الأخير بحيث أسندت كثيراً من وظائفها الهامة والحساسة إلى رعاياها من غير المسلمين ، وجعلت أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى" [2] .

وبما أن الكتابي كما أشرنا له حقوق المواطنة الكاملة، فإن الإسلام يدعو أبناء المجتمع المسلم إلى الحفاظ على روح هذه المواطنة بكل أمانة وصدق وهو نابع في الأساس من العقيدة الإسلامية التي تربت عليها أجيال الأمة فأصبحت نمطاً ونهجاً لها دونما تكلف أو نفاق اجتماعي أو ما يسمى بمصطلح الاستهلاك المحلي.

وقد التزم المجتمع المسلم بهذه الأخلاقيات، فشعر أهل الذمة بكرامتهم وإنسانيتهم في ظل الإسلام. وما قصة ابن عمرو بن العاص حينما تسابق مع القبطي النصراني، إلّا دليل واضح على ما نقول، فقد حكم عمر بن الخطاب الخليفة الراشد رضي الله عنه أن يرد للقبطي اعتباره وكرامته فأمر بأن يلطم عمرو وابنه علماً أن عمرو بن العاص رضي الله عنه وال مصر آنذاك لم يسيء الى القبطي، ولكن تفسير عمر رضي الله عنه أن ابن عمرو لم يقم بذلك إلا لأنه استقوى بموقع أبيه، ثم

---

[1] آدم ميتز الحضارة الإسلامية ج١ ص ١٠٥

[2] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص٢٥

نظر عمر رضي الله عنه الى وال مصر عمرو بن العاص قائلاً: " يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" [1] .

" أجلس الوليد بن يزيد من كان بقبرص من الذميين، وأرسلهم الى الشام مخافة حملة الروم ورغم أنه لم يفعل ذلك إلا حماية للدولة، واحتياطاً لها في نظره، فقد غضب عليه الفقهاء وعامة المسلمين، واستعظموا ذلك منه، فلما جاء يزيد بن الوليد وردهم الى قبرص استحسنه المسلمون وعدوه من العدل وذكروه في مناقبه" [2] .

وهناك شواهد وأدلة بالآلاف لا مجال لحصرها وإنما للتدليل من خلال ذكر القليل. على أية حال طالما أن من له حق المواطنة التي كفلتها له الشريعة، فإن عليه واجب الأداء كي تكتمل الدائرة، لأن الحق يقابله الواجب. فما هي واجبات أهل الكتاب في الدولة التي ترعاهم وتسهر على رعايتهم وحريتهم وكرامتهم؟ وقد حددت الشريعة الإسلامية ثلاثة واجبات وهي:

١- أداء الجزية والخراج والضريبة التجارية وهذه هي واجبات مالية .

٢- التزام أحكام القانون الإسلامي في المعاملات المدنية ونحوها

٣- احترام شعائر المسلمين ومشاعرهم. [3]

أنا أعلم أن كل واجب مما ذكرت بحاجة الى توضيح وبحاجة الى كتاب كامل، كما وإنني لا أريد أن يكون هناك تداخل في الأوراق مع الأخوة الذين كتبوا في هذه العناوين، ولكن هي إشارة سريعة طالما أن عنوان هذه الورقة هو" حقوق المواطنة لأهل الكتاب ".

---

[1] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٢٧

[2] فتوح البلدان للمؤرخ البلاذري ص ٧١-٧٢

[3] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٣١

ولكن مع ذلك لا بد من إعطاء صورة إجمالية ومختصرة عن مسألة الجزية التي يخلط كثيرون في فهمها .فالجزية هي أشبه ما تكون بضريبة تأخذها الدولة المسلمة من غير المسلمين من أهل الكتاب مقابل حمايتهم، وفي حالة ان أحداً منهم انتظم في صفوف قوة الحماية فتسقط عنه، وهي لا تؤخذ من راهب و لا حبر ولا شيخاً متقدماً في السن ولا امرأة ولا ممن لا يستطيع العمل، وبعد كل هذا ما الذي تأخذه الدولة.

ثم أن المسلم في ظل دولة الإسلام كمواطن هو يدفع ما يقابل ذلك عن طريق الزكاة · وهي أمر ملزم على من يستطيع ويملك النصاب. وإنسان يعيش في ظل الدولة كمواطن تتوفر له كل الخدمات والظروف لماذا لا يساهم ويشارك حتى يشعر بمواطنته؟

ثم لنبحث في كل أرجاء المعمورة هل توجد دولة في هذا العالم لا تأخذ من مواطنيها نصيباً محدداً كحق لها عليهم وكي يشعر هذا المواطن أن عليه واجب لدولته التي ترعاه وتكفله وتحميه وتقدم له الخدمات التي لا تخفى على أحد يجب أن يؤديه؟ وفي حالة عدم قيام الدولة بذلك فتسقط الجزية .وقال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين " لا تضربوها على النساء والصبيان" [1].

ويقول المؤرخ آدم ميتز "كان أهل الذمة بحكم ما يتمتعون به من تسامح المسلمين معهم ومن حمايتهم لهم، يدفعون الجزية كل منهم بحسب مقدرته، وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة الدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها إلّا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع" [2].

****

[1] غير المسلمين في المجتمع المسلم د. يوسف القرضاوي ص ٣٣
[2] الحضارة الاسلامية آدم متيتز ج ١ ص ٩٦

المقالة التاسعة

وحدة الدين

"إن الدين عند الله الإسلام"

د . سعيد سليمان القيق*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقد كانت بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تصحيحاً لمسار الحياة الدينية التي أفسدها الهوى وانحرف بها المزاج الخاص، وتركت فيها تعاليم الله التي أوحاها إلى أنبيائه ليسلك الناس على منوالها درب الحياة حتى يصلوا الى يوم الحساب فقد حرفوا أتباع الأنبياء وانحرفوا وبدلوا وغيروا ونقصوا وزادوا . يقول الله تعالى " قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى" [1]

من هنا يتضح أن موضوع رسالة الأنبياء واحد فهم رسل مبشرون ومنذرون لئلا يكونوا للناس حجة بعد ذلك. قال تعالى: " إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا

---

* رئيس دائرة الدعوة وأصول الدين-جامعة القدس

[1] سورة ابراهيم آيه ١٠

من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن حاجوك فقل أسلمت فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد" [1].

وقبل الحديث عن هذه الحقيقة " الدين واحد عند الله – وحدة الدين" سوف أقوم بتوضيح مفهوم الدين لغويا وارتباطه بالمفهوم الشرعي.

بالرجوع إلى معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة الدين تؤخذ من فعل متعد بنفسه " دانه يدينه " ومن فعل متعد باللام "دان له" ومن فعل متعد بالباء "دان به". ولكل حالة من تلك الحالات معان خاصة بها يمكن تلخيصها على النحو التالي:

الأولى

دان يدينه وتعني ملكه وحكمه، وساسه، ودبره، وحاسبه، وقضى في شأنه وجازاه وكافأه. وقد جاء في الحديث " الكيس من دان نفسه"[2].ومعناه:حكمها، وضبطها، وحاسبها والديان الحاكم القاضي.

الثانية

دان له وتعني أنه أطاع وخضع له فالدين هنا بمعنى الخضوع والطاعة والاستسلام والعبادة والورع. وكلمة الدين لله يصح أن تفهم الحكم لله والخضوع له.

---

[1] سورة آل عمران أيه ١٩-٢٠

[2] أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج ٤ ص ١٢٤

دان بالشيء وتعني أنه أتخذه دينا ومذهباً أي اعتقده أو اعتاد عليه أو تخلق به فالدين هو المذهب أو الطريقة التي يسير عليها المرء نظريا أو عمليا .فيقال هذا ديني وديدني أي طريقي ومنهجي في الحياة، وبهذا فكلمة الدين تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له.

إذا وصف بها الطرف الأول كان خضوعاً وانقيادا وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا وسلطانا وحكما . وإذا نظر الى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يعبر عنه المبدأ الذي يلتزم بالانقياد له. والفرق بين كلمة"دين" بفتح الدال وكسرها هو أن أحدهما وهو بفتح الدال يتضمن في الأصل التزاما ماليا والآخر بكسر الدال يقتضي إلزاما أدبيا [1]، وجمع دين أديان وجمع ديانة ديانات.

ولا يخفى أن هذه المعاني جميعها متلازمة فإن المعنى الثاني لازم للمعنى الأول والمعنى الثالث لازم للمعنيين الأولين فكلمة "دين" تشير إلى علاقة ما بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له بمجموعة من الأفكار والمبادئ والشعائر الموحية بهذا التعظيم وهذا الخضوع.على أن هناك معاني أخرى لكلمة "دين" تتضمنها هذه الحالات منها المكافأة والحساب والخدمة والقضاء والسياسة والقرض والملك والسلطان...الخ.

---

[1] أنظر ابن منظور لسان العرب مادة د ي ن وكذلك محمد مرتضى الزبيدي / تاج العروس

المعنى الاصطلاحي لكلمة الدين

من الواضح أننا لو أضفنا كلمة "الدين" إلى أية أمة أو شعب لأصبح المعنى الناتج من الجمع بين الدين والأمة هو "مجموعة من المعتقدات والمبادئ التي تدين بها تلك الأمة أو الشعب" وما يترتب على اعتناق هذه المعتقدات من قضايا عملية درج العلماء على تسميتها "شريعة".

فإذا أضفنا كلمة الدين إلى الإسلام يصبح معنى الدين الإسلامي "علما" على جميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم" من قضايا نظرية وعملية وكذلك لو أضفنا هذه الكلمة إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى أمة من الأمم لأصبح المعنى يختلف عن معنى الدين الإسلامي وأعطى مجموعة من المبادئ والمعتقدات والأمور العملية التي تميّز من آمن بهذا الدين أو ذاك.

وتعريف الدين الإسلامي

هو ذاك المنهج الذي أنزله الله إلى عبادة عبر رسله وأنبياته مشتملاً على العقائد والمعارف والتعاليم والأخلاق والأوامر والنواهي، ومهمة إصلاح الفرد وسياسة المجتمع وفق نمط معين حدد هذا الدين مساره. وقد أطلق القرآن على هذا الدين عدة عناوين سماه إسلاماً، وإيمانا، وملة، وشريعة فكل واحد من هذه الأسماء علم على الدين كله ولكن باعتبارات مختلفة فالدين باعتبار وجوب الاستسلام لتعاليمه والانقياد لها "إسلام"، ومن حيث التصديق بالله وما جاء من عند الله" أيمان" وباعتبار انه يملى و يكتب هو ملة وباعتبار أن الله سنة وابتداه هو: شريعة، فالإسلام والإيمان عنوانان لدين كله. وكل منهما شامل للاعتقاد والقول والعمل والأخلاق[1] وإطلاق

[1] نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٧٣ عمر سليمان الأشقر

الإسلام على الدين كله فيدل عليه قول الله تعالى " إن الدين عند الله الإسلام" [1] دين الله واحد " إن الدين عند الله الإسلام" – وحده الدين. يمكننا توضيح هذا المبدأ الراسخ في قلوب المؤمنين من خلال الحقائق التالية التي بينها القرآن الكريم.

أولاً: إسلام الكون لله تعالى

قال تعالى: "ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا آتينا طائعين." [2].

لقد انقاد الكون للناموس الإلهي واتصلت حقيقة الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لمشيئة الله وتصور آية من سورة الشورى هذا الاستسلام والإنقياد " تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض [3]

إن السموات الهائلة الضخمة التي تراها تعلونا ولا نعلم عنها إلا جانباً يسيرا... إن هذه السماوات تتفطر من خشية الله وعظمته وعلوه و إشفاقا من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم عظمة الله التي يحسها ضمير الكون فيرتعش ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه. لم يبق في هذا الكون متمرد على هذا الاستسلام لعظمة الله إلا الإنسان وهو في تمرده هذا خاضع بلا إكراه لناموس الكون الذي خضع لله رب العالمين. فهو لا يملك أن يخرج عنه وهو أقل بكثير من كرسي صغير جدا في عجلة هذا الكون الهائلة والقوانين الكونية الكلية السرمدية التي تسري عليه سواء رضي بها أو لم

---

[1] سورة آل عمران
[2] سورة فصلت آيه ١١
[3] سورة الشوره آيه ٥

يرض. قال تعالى: " أفغير دين الله يبغون وله أسلم في السماوات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون "[1].

قال ابن كثير في تفسيرها، يقول الله تعالى منكراً على من أراد دنيا شوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له الذي له أسلم من في السماوات والأرض أي استسلم له من فيها طوعا وكرها كما قال تعالى "ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها" ·والمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله والكافر مستسلم لله كرها فأنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

ثانيا: دين الأنبياء واحد (التوحيد)

الكون كله خضع واستسلم لتوحيد الله بما أودع فيه من النواميس والقوانين التي تحكمه وتسيره حسب علم الله وإرادته وتصريفه... والإنسان شيء في هذا الكون. لا بد أن يكون له قانون ينصاع له، وكان هذا القانون هو الإسلام الذي حمله موكب الأنبياء جميعا. والقرآن الكريم يصور هذه الحقيقة. يقول الله تعالى " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون"[2]

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، المعنى دينكم واحد وفي الحديث: "نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد[3]

---

[1] سورة آل عمران آيه ٨٣

[2] سورة الأنبياء آيه ٩٢

[3] أورده ابن الأثير في النهاية بلفظ " أولاد العلات وقال: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد أراد ان أيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة ٢٩/٣ وأورده السيوطي في الجامع الصغير.

فتتلاشى آماد الزمان وأبعاد المكان وتتغاير الأقوام واختلاف اللغات أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل ووحدة الطبيعة التي تميّزهم كأنبياء، ووحدة الخالق الذي بعثهم وأرسلهم. ووحده الاتجاه الذي يدعون إليه الخلائق. يقول الله تعالى: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون" [1]

قال ابن كثير في تفسيرها : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له لهذا قال " وأنا ربكم فاعبدون". وقال تعالى: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " [2]

ووحدة دين الله لأنبيائه تبدو جلية في عرض القرآن الكريم لها من عدة نواحي:

١- من ناحية وحدة المصدر

٢- من ناحية وحدة الموضوع

٣- من ناحية النطق بالإسلام أو وحدة التسمية.

- أما فيما يتعلق بوحدة المصدر: ففي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تنص على أن المصدر لكل رسالات الأنبياء هو الوحي من عند الله. يقول الله تعالى: " إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيس وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زابورا". [3]

---

[1] سورة المؤمنون آيه ٥١-٥٢
[2] سورة الأنبياء آيه ٢٥
[3] سورة النساء آيه ١٦٣

إنهم موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من البشر موكب من الأنبياء لشتى الأقوام وكلهم تلقى الوحي من الله.

- أما فيما يتعلّق بوحدة الموضوع: فالموضوع الذي جاء به الأنبياء والرسل هو موضوع واحد يقول الله تعالى " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون"[1].

وسورة الشعراء تعرض موضوعية رسالة الأنبياء جميعا بأسلوب واحد يقول الله تعالى: إذا قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون أني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون " [2]

" إذا قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون [3].

" إذا قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون" [4]

" إذا قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون".

وقالها موسى لفرعون" قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مؤمنين"

وقالها عيسى للحواريين (... اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) [5]

وبهذه الوحدة موضوع رسالات الأنبياء جميعا يوجه القرآن الكريم سؤالا في سورة الزخرف" وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن إلهه يعبدون" [6].

---

[1] سورة الأنبياء آيه ٢٥
[2] سورة الشعراء آيه ١٠٦-١٠٨
[3] سورة الشعراء آيه ١٢٤-٤٢٧
[4] سورة الشعراء آيه ١٦١-١٢٧
[5] سورة المائده آيه ١١٢
[6] سورة الزخرف آيه ٤٥

وحول هذا السؤال يكون الجواب : إن التوحيد هو أساس دين الله الواحد من أقدم الرسل. وهذا الجواب قاله سيدنا عيسى يوم يجمع الله الرسل " ما قالت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله".

- وبالنسبة لوحدة النطق بالإسلام أو وحده التسمية فإن الأنبياء جميعاً قد أقروا بأنهم على دين واحد هو دين الإسلام ، ونطقوا بهذه التسمية باللفظ الصريح، فقال نوح عليه السلام: فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين" [1] . وقاله سيدنا إبراهيم: " قال أسلمت لرب العالمين"

" ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني أن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون". [2] وقد نفى القرآن الكريم في سورة آل عمران عن سيدنا إبراهيم أنه كان على ملة غير الإسلام قال تعالى " ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين" . [3] وكان سيدنا سليمان مسلماً فقد قال وهو يحمد الله على ما آتاه من الملك والنبوة " ... وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين". [4]

وعلى درب الموكب الموحد المسلم الموكب التي تحمل الأمانة الكبرى، نصح سيدنا موسى قومه " وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين" [5]

---

[1] سورة يونس آيه ٧٢
[2] سورة البقرة آيه ١٣١-١٣٢
[3] سورة آل عمران آيه ٦٧
[4] سورة النمل آيه ٤٢
[5] سورة يونس آيه ٨٤

وعلى العهد والميثاق الذي وفى به الأنبياء السابقون كان سيدنا عيسى يدعو حواريه الى الإسلام فقد قال لحواريه " فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون" [1]

وإذا كان الأنبياء والمرسلون قد نطقوا بالإسلام دينا اعترافاً منهم بنعمة الله التي وهبها إياهم وبما اختصوا به من نشر دين الله الذي ينسجم مع الكون في التسليم لجلال الله وإسلام الوجه لكبريائه فإن الله وملائكته وأولى العلم كذلك يشهدون أن الدين عند الله الإسلام.

قال ابن كثير في توجيه قراءة: أن الدين عند الله الإسلام بفتح همزة " أن" ذكر ابن جرير ان ابن عباس قرأ:" شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام بكسر " إنه" وبفتح "أن" الدين عند الله الإسلام، أي شهد هو الملائكة وأولوا العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام.

أما الجمهور فقد قرءوها "إن" بالكسر على الخبر فيكون معنى الآية على هذه القراءة المشهورة: إن الله يخبر بأنه لا دين عند الله يقبله من أحد سوى الإسلام وهو أتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم فمن لقي الله بعد بعثه محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعة الإسلام فليس بمتقبل منه. [2]

كما قال تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلم يقبل منه" وهذا الرفض لكل دين غير دين الإسلام جاء في أعقاب الميثاق الجليل الذي قطعه الله على أنبيائه.

---

[1] سورة آل عمران آيه ٥٢

[2] التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن الكريم ص ٧٣ عبد العزيز الدرديير

ثالثاً: ميثاق الله ووحدة الدين

قال تعالى: "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءآتيتكم من كتاب وحكمه ثم جاءكم رسول مصدق لمل معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فألئك هم الفاسقون". [1]

فهاتان الآيتان تدلان على أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على سائر الأمم السابقين وجميع أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن الإيمان به حق لا ريب فيه خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم جاء مصدقاً لما جاء به سائر الأنبياء من التوحيد وسائر كليات الدين وأصوله. فمن أعرض عن شيء من هذا فهو من الفاسقين وبعد أن بين الله تعالى ذلك عقبه ببيان أمن كل من كره الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ولم يتلق ذلك بالقبول والإذعان والرضى التام فإنه يكون بمنأى عن الحق بعيداً عن الرشد فيستحق من الله تعالى العقاب الأليم. فقال عز من قائل: "أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون".

رابعاً: الإسلام هو دين الحق المقبول عند الله

أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التي جاء بها وأن يخبر كل من يتأتى منه الخطاب بأن الدين الحق المقبول عند الله تعالى هو دين الإسلام وأن كل ما سواه فهو باطل لأن رسالته صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات ودين الإسلام الذي جاء به ناسخ لكل دين سواه.

---

[1] سورة آل عمران الآيتان ٨١-٨٢

فقد قال تعالى" قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيين من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" والمعنى: قل يا محمد لمن جادلك من أهل الكتاب وغيرهم قل لهم جميعاً: أمنت أنا وأتباعي بوجود الله تعالى ووحدانيته، واستجبنا له في كل ما أمرنا به ونهانا عنه.

وآمنا كذلك بما أنزل علينا من قرآن يهدي إلى الرشد ويخرج الناس من الظلمات إلى النور وآمنا كذلك بما أنزله الله تعالى من وحي على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وآمنا أيضا بما أتاه الله لموسى من توراة ومعجزات وما أتاه لعيسى من إنجيل ومعجزات ونحن مع ذلك كله لا نفرق بين جماعة الرسل فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب.

وإذا قال قائل لم خص هؤلاء الأنبياء المذكورين في الآية بالذكر؟ نقول خصهم بالذكر، لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ويتبعونهم فأراد القرآن الكريم أن يبين لهم أن زعمهم هذا باطل، لأنهم لا يكونون مؤمنين بهم حقاً " إلا إذا آمنوا بمحمد " وقد أخبر القرآن ان الكفر بواحد من الأنبياء يؤدي إلى الكفر بهم جميعا وذلك يؤدي بدوره إلى الكفر بالله تعالى. لأنهم جميعاً جاءوا بشرع الله وتوحيده فدينهم جميعاً الإسلام الذي هو توحيد الله وأفراده بالعبودية وإسلام القياد إليه جل وعلا. وليس بينهم " عليهم السلام" من تفاضل أو اختلاف إلا في فروع الدين والتشريعات التي تختلف نظراً لاختلاف الأمم والأزمان.

جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من الناس يهوديا كان أو نصرانياً ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب

النار"[1] . وقد توعد الله تعالى من رغب عن دين الإسلام ، ومال الى غيره بالخيبة والخسران في الآخرة لحرمانه من ثواب الله واستحقاقه العقاب جزاء ما قدمته يداه. وقد ذكرنا ذلك في ثنايا هذه المقالة .

وفي الحديث الشريف:" من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ[2] ، أي مردود عليه وغير مقبول منه، هذا هو الموقف القرآن الكريم من حقيقة الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده وعليه وبه يكون مصيرهم يوم الدين .ولكن لا غنى لنا عن عرض موقف الإسلام في الدنيا من الأقليات النصرانية واليهودية داخل الأقطار الإسلامية فموقف الإسلام الصحيح موقف واضح تحكمه روح الإسلام ومبادئه ونصوصه الثابتة وسماحته الإنسانية ويقوم على المحاور التالية:

أولاً: إن الأقليات غير الإسلامية ضمن المجتمع الإسلامي تتمتع بشرط ولائها للدولة بالحرية الدينية والحماية الدينية والحماية التامة وعدم الإكراه على اعتناق دين معين قال تعالى:" لا إكراه في الدين" .

وقال أيضاً: عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مود والله قدير والله غفور رحيم لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فلولئك هم الظالمون" .

---

[1] أخرجه مسلم في باب وجوب الإيمان برسالة نبينا من كتاب الإيمان

[2] رواه الشيخان عن عائشة رض الله عنها / انظر كشف الخفاء ص ٣١٠ ج٢

فانطلاقاً من هذه الآيات المحكمة فإن المواطنين من أبناء الأقليات الدينية الذين يعيشون مع الأغلبية المسلمة ويشاركونهم الانتماء للوطن والولاء له هم شركاء في المواطنة لهم" البر والعدل" فريضة من الله فرضها على الأغلبية المسلمة.

ثانياً: المساواة الكاملة بين المسلمين وغير المسلمين بحيث يتمتعون جميعاً بالحقوق المدنية والسياسية على قدم المساواة التي يكفلها الدستور وتنظمها القوانين، علماً أن مبدأ المساواة لا ينفي المبدأ المعمول به في الدنيا كلها من أن يكون حق الإدارة للأغلبية وتظل حقوق الأقلية مصانة محفوظة.

ثالثاً: إن تحكيم الشريعة الإسلامية لا ينقص من نصرانية الأقليات النصرانية ولا غيرها في المجتمعات الإسلامية، بينما غياب هذه الشريعة هو قطع لإحدى رئتي الإسلام وكسر لإحدى ساقيه ينقص من إيمان المؤمنين به.

ذلك فضلاً من أن تطبيق هذه الشريعة يجعل الحفاظ على حقوق الأقليات النصرانية في المواطنة ديناً يتدين به المسلمون وليس مجرد تسامح يمنح عند الرضى ويمنع عند ضيق الصدور[1].

رابعاً: إن عزل الدين عن الحياة الاجتماعية ليس حلاً لمشكلة الطائفية بل هو في الحقيقة تنصل وهروب من مواجهتها. إن علمانية المجتمع بالمعنى المطلق الذي يعزل الدين عن الحياة لا يمكن ان تكون الحل الصحيح لمشكلة الطائفية في المجتمعات التي تتعدد فيها الأديان. إن

---

[1] وهل الإسلام هو الحل؟ د. محمد عمارة ص ٨٥

العلمانية من هذه الزاوية تقتل المريض حتى تخلصه من مرضة وهي – فوق ذلك. مبدأ مجاف تماما لطبيعة الإسلام الأساسية التي تقوم على وحدة الإنسان ووحدة حياته وترابط مكوناتها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

****

المقالة العاشرة

العلاقة الإسلامية-المسيحية
نظرة الإسلام إلى غير المسلمين

د. محمد عبد القادر عابدين*

المقدّمة

موضوع العلاقة الإسلامية-المسيحية ليس وليد القرن العشرين، ولا ثمرةً من ثمار الوضع السياسيّ الجديد الذي أصبح يقبل بوجود "إسرائيل" كدولةٍ يهوديةٍ وجوداً طبيعياً على المستوى الرسميّ العربيّ. غير أنّ هذا الموضوع ساخن، تدلّ على سخونته الندوات والمؤتمرات والدعوات في بلاد العرب والمسلمين وخارجها التي تدعو إلى وضع ملامح جديدة لتلك العلاقة، تلائم المتغيرات الجديدة على الساحة الإقليمية.

والكتابة في العلاقة الإسلامية-المسيحية شائكةٌ، نظراً لتداخل عناصرها، وصعوبة الفصل بين مكوناتها العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ومن ناحيةٍ أخرى، فالكتابة في هذه العلاقة محفوفةٌ بالمخاطر من عدة وجوه:

---

* مدرس للدراسات العليا — جامعة القدس

أولاً: أنها تتناول موضوعاً شائكاً متداخلاً شديد الحساسية.

وثانياً: أنها تأتي -غالباً- استجابةً لدعوات قادمةٍ من الغرب، ممّا يقيّدها في أهدافها، واختيار موضوعاتها، والنتائج المرجوّة منها.

وثالثاً: أنّ الخوض فيها قد يُفسّر على أنه جزء من محاولات التطبيع، ونتائج "السلام" القادم، والدخول إلى جحر الدعوة إلى وحدة الأديان، أو مقولة "الدين الإبراهيميّ".

ورابعاً: أنها تجري من الطرف الإسلاميّ - حالياً- كردّ فعل يُقصد منه "الدفاع" عمّا يُتهم به المسلمون من إرهابٍ وتطرّفٍ.

وبعد، فتأتي الكتابة في هذا الموضوع، وتحمّل مخاطره في هذه الدراسة، على غلبة الظنّ أنّها تتمّ بروحٍ علميةٍ محضةٍ، دون مأربٍ سياسيّ، أو هوىً متبع، محاولةً الالتزام بحدود الموضوع، وما يتعلّق به من مبرراتٍ وأهدافٍ للحوار الإسلاميّ-المسيحيّ في الديار المقدّسة، والإفادة من الحقّ الإنسانيّ في التعلّم وإبداء الرأي. وحَسْبُ الباحث في هذه الورقة أنه اجتهد في ألاّ يفرّط في جنب الله، ولا يظلم أحداً، فإن أصاب فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأ فمن عند نفسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وتتحدّث هذه الورقة عن "نظرة الإسلام إلى الآخر"، محدّدةً إياه بأنه غير المسلم، من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. كيف ينظر الإسلام إلى الإنسان ؟

٢. كيف ينظر الإسلام إلى غير المسلم ؟

٣. ما الحقوق التي أقرّها الإسلام لغير المسلم ؟

منهج الدراسة

اتبعت الدراسة منهجاً تحليلياً تاريخياً يقوم على فهم النصوص، وتتبع الأحداث ماضياً وحاضراً.

نظرة الإسلام إلى الإنسان

"الإسلام" و"الإنسان" هما جوهر هذا الجزء من الدراسة، فما الإسلام؟ وما الإنسان؟

لقد انبرى العلماء لبيان معنى الإسلام في كتابات عديدة من نواحٍ عقدية وتاريخية، جملةً وتفصيلاً، ليس المقام هنا لبيانها. وإنما يكفي في هذا المقام البيان بأن الإسلام هو دين الله تعالى الذي أوحى به إلى الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم، وله أركانه وأحكامه. ويدخل الإنسان في هذا الدين بشهادته لله تعالى بالوحدانية ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم بالرسالة. وبغير ذلك لا يكون الإنسان مسلماً.

أما "الإنسان"، فقد خاض في تعريفه العلماء والفلاسفة حسب خلفياتهم وانتماءاتهم العلمية المتباينة. وتكفي في هذا المقام الإشارة إلى ما أورده الدكتور محمد الزحيلي[1] "أن الإنسان هو آدم وحواء، ومن توالد منهما وتناسل، والمكوّن من جسم وعقل وروح، دون النظر إلى التفاوت والاختلاف في سائر الأغراض الأخرى، سواء كان ذكراً أم أنثى، غنياً أم فقيراً، كبيراً أم صغيراً، أبيض أم أسود أم أصفر".

---

[1] ١٩٩٧، ص ١٠

وقد يكون الإنسان نبياً مرسلاً، أو مؤمناً تقياً، أو كافراً شقياً، أو منافقاً محتالاً. ومهما يكن من أمر هذا الإنسان، فالمهمّ أن الله تعالى قد خلقه فسوّاه فعدله، واختاره من سائر خلقه لما يتميز به من عقلٍ وقدرةٍ وإرادةٍ، فحمّله الأمانة، وأوكل إليه عمارة الأرض، وأرسل إليه المرسلين بالبينات والكتب مبشرين ومنذرين، وليقوم الناس بالقسط. يقول الله تعالى (يَا أَيُّها الإنسانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ، الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، في أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)[1]. ويقول: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ)[2]. ويقول: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)[3]

ومن تكريم الله للإنسان وتفضيله على غيره أن أودع فيه مركبات يتباهى بها على غيره من المخلوقات، فمنحه العقل والإرادة والاختيار، لتحرّي الحقّ والصدق، وليبحث عما ينفعه ولا يضره، ويكون مسئولاً عن عمله. يقول الله تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}[4]. كما نفخ فيه من روحه، وخلقه على أحسن هيئة وأكمل صورة، معتدلاً سويّاً، فلا هو مكبٌّ على وجهه، ولا يمشي على أربع، فتبارك الله أحسن الخالقين، (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[5].

---

[1] الانفطار، الآيات ٦-٨
[2] البقرة، الآية ٣٠
[3] الحديد، الآية ٢٥
[4] الإسراء، الآية ٣٦
[5] التين، الآية ٤

وقد سخّر الله ما في الكون للإنسان، وجعله تحت تصرّفه، }أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[1]. والإنسان كما وصفه الدكتور الخالدي[2] "كريم عند الله، ثقيل في ميزان الله، نفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، واستخلفه في الأرض، وجعله سيداً لما فيها، وأنزل إليه كتبه، وبعث له رسله، وكرّمه بإسماعه كلامه."

وعليه، فالإنسان مخلوق حرّ مكرّم ينبغي حفظ دينه ونفسه وعقله ونسله وماله، وهذه تُشكّل مقاصد الشريعة الغراء وضروراتها الخمسة المبينة في كتب الأحكام والتي تقوم عليها حياة الإنسان الدينية والدنيوية (العالم، ١٩٩١). وقد اتفقت الشرائع السماوية كلها على حفظ هذه المصالح، وعملت على حمايتها.

وفي التصور الإسلاميّ للإنسان إعلاءٌ من شأن الإرادة فيه، إذ هي مناط التكليف والجزاء، والعهد مع الله سبحانه وتعالى.

نظرة الإسلام إلى غير المسلمين (الآخرين)

تبين آنفاً أنّ الإسلام احترم الإنسان لإنسانيته، ولما أودعه الله فيه من خصال. وكي لا يتركه هملاً، أرسل إليه الأنبياء والمرسلين ليرشدوه ويهدوه سبيلَ الحق. والرسالات كلها مصدرها واحد وهو الله سبحانه وتعالى. وقد بين الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ذلك فيما أخرجه الأمام أحمد في مسنده وأبو داود والبيهقي في السنن، قال صلّى الله عليه وسلّم: "... والأنبياء أخوة

---

[1] لقمان، الآية ٢٠

[2] (١٩٨٦، جزء ٣، ص ٣٢٥)

أبناء علات، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد." ويُصدّق ذلك قوله عزّ وجلّ في (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ، اللهُ يَجْتَبِيْ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيْ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيْبُ)[1].

والإسلام الذي جاء به الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم مبنيٌّ على عقيدةٍ سليمةٍ بعيداً عن الأوهام والأباطيل، والشرك، يحترم العقل ويُطالب بالاحتكام إليه. وقد امتدّ الإسلام إلى بقاع واسعةٍ، ودخل فيه خلقٌ كثير ببساطة تعاليمه، وتسامح أهله، وعدلهم واستقامتهم. ويصف الهزايمة (١٩٩٧) تلك النفحة الإنسانية التي اكتسبها العرب من الإسلام فحملوها للناس بأنه كان لها أثرها في كسبهم عقولاً جبّارةً وأيدٍ ماهرةً أسهمت في بناء الحضارة العربية الإسلامية المستضيئة بنور الإسلام.

ومن عوامل نجاح المدّ الإسلاميّ أنه قام على الألفة والمحبة والعدل، حتى في مواقف الحرب والقتال مع خصومه، إذ لا يمثّل بجثة قتيلٍ، ولا يُكره أسيرٌ على شيء، وتترك للناس الحرية الكاملة في مباشرة شعائرهم الدينية، ويعامل كلّ أفرد الرعية بالعدل والمساواة. وآيات القرآن الكريم وسيرة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم وأفعال الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من السلاطين والأئمة الأبرار كلّها تدلّ على بطلان زعم من زعم أن المسلمين كانوا يجبرون الناس على اعتناق دين الإسلام أو الخروج من دينهم. وكَذَبَ (غيومان لوستير) الذي ينقل عنه الهزايمة (١٩٩٧، ص٣٧) زعمه "إن هؤلاء العرب -المسلمين- قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس أسلموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح ربحوا النفوس ببرّهم وإحسانهم".

---

[1] سورة الشورى الآية ١٣

وتأتي معاملة الإسلام للإنسان بالقسط انطلاقاً مما شرعه الله تعالى من أنه عزّ وجلّ مصدر الشرائع والقوانين، وأنه لا يجوز لأحد مهما كان أن يضيق تلك الشرائع والقوانين، أو يلغيها، أو يعدّل فيها، أو يعتدي عليها بغير ما شرعه الله تعالى، وكلّ عمل يخالف شرعه فهو ردّ. وحيث إنه تعالى شرع القسط والعدل، فلا مناص من معاملة كلّ بني الإنسان بالقسط والعدل والقسطاس المستقيم.

وحينما جاء الإسلام كان الناس، كما بين ابن قيم الجوزية في كتابه "هداية الحيارى"، على شكلين: إما أنهم أتباع رسالات يؤمنون بالله ويتبعون رسله، أي أهل كتاب، كاليهود والنصارى، وإما أقوام ليسوا أتباع رسالات ولا يوحّدون الله، بل يعبدون النار والأصنام والكواكب والشياطين وغير ذلك مما خلقه الله ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ويكذبون رسله، ويعطّلون شرائعه. وبعد مجيء الإسلام، صار الناس على ثلاثة أشكال*: أقوام آمنوا برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم واتبعوا النور الذي معه، فهم المسلمون؛ وأتباع رسالات سماوية بقوا على دينهم ولم يؤمنوا برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم، فهم أهل الكتاب؛ وأقوام لم يؤمنوا برسول ولا نبي، ولم يشهدوا لله بالوحدانية، وعبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فهم كفار ومشركون.

أما الصنف الأول، فعليهم واجبات ولهم حقوق وأحكام تفصيلية مبسوطة في كتب العقيدة والفقه والتفسير. وأما الصنفان الثاني والثالث، فهاكم الحديث عنهما بإيجاز، إذ إنّ التفصيل في ذلك مبسوطٌ أيضاً في كتب العقيدة والفقه والأحكام. وهنا تبرز نقطتان: النقطة الأولى هي أن الإسلام بنى علاقاته مع الآخرين -محاربين أو مهادنين، كتابيين أو مشركين- على معايير

* صنّف العلماء الناس في القرآن الكريم إلى ثلاثة أصناف: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين.

وأسسٍ ثابتةٍ، وليس على مصالح سياسيةٍ وإقليميةٍ متغيرةٍ غير موضوعية، والنقطة الثانية هي أن الإسلام خصّ أهل الكتاب بأحكامٍ دون غيرهم من الآخرين غير المسلمين.

ويمكن تناول الحديث عن أهل الكتاب وعن الكافرين في عدّة جوانب: النظرة إلى معتقداتهم، ثم معاملتهم، ثم الحذر منهم ومحاربتهم.

أولاً: معتقدات أهل الكتاب والكافرين

من هم أهل الكتاب؟ "أهل الكتاب" مصطلح شرعيّ يُقصد به "اليهود والنصارى، ومعهم المجوس، ومن قام دينه في الأصل على كتابٍ سماويّ، وإن حرّف أو بدّل" [1]، وينقل أبو سريع عبد الهادي (١٩٨٦) أن المجوس ليسوا أهل كتاب، بل إنّ لهم شبهة كتاب، وإنما أُلحقوا بأهل الكتاب لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب" [2]. وأما الكافرون فيُقصد بهم من لا دين له من غير اليهود والنصارى والمجوس.

ومعتقدات هؤلاء جميعاً في مجملها مخالفةٌ لما يؤمن به المسلمون، ذلك أنها تتضمن افتراءات على الله تعالى، وعلى كتبه ورسله وأنبيائه، وظلماً لعباده، أو أنها تشرك به تعالى، وتكذب رسله، وتعطّل شرعه، وتنكر يوم المعاد، وتزيّن للناس حلّ وسلامة فعل ما لم يأذن به الله. وقد أفاض في بيان بطلان تلك المعتقدات أهل الاختصاص قديماً وحديثاً.

أما معتقدات النصارى -على وجه الخصوص- فهي ليست نقيضاً كاملاً للإسلام، ولا هي مساوية له، فهما يفترقان افتراقاً كاملاً بعضهما عن بعض في مسائل كبرى في الاعتقاد والتشريع،

---

[1] الزحيلي، ١٩٩٧، ص١٧٨

[2] (الشوكاني، جزء ٤، ص٥٧)

غير أن ثمة أوجه اتفاق تظهر من الاعتقاد المشترك للمسلمين والنصارى ومن فيهم من القسيسين والرهبان لبعض الأمور التي يمكن استخلاصها على النحو التالي:

- الإيمان بوجود إله، وأنّ الله هو خالق كلّ شيء، وأنّ الإنسان مخلوقٌ له.
- الإيمان بأنّ الله تعالى هو الرازق الرحيم بعباده.
- الإيمان باليوم الآخر، والبعث، والحساب، وأنّ الله يعامل الناس يوم الحساب بالعدل، والإنصاف، والرحمة.
- الإيمان بأنّ الإنسان لم يُخلق سدى، وأنّ الله أرشده إلى الهدى فبعث الأنبياء والمرسلين.
- الإيمان بأنّ للإنسان حاجةً روحيةً، وأنه يحتاج للإيمان والعبادة.
- الإيمان بأنّ للإنسان كرامته التي يجب حفظها.

ثانياً: معاملة أهل الكتاب والكافرين

لقد خصّ الإسلام أهل الكتاب بمعاملة خاصّة، وشرّع شرائع تميزهم عن غيرهم من غير المسلمين، كالوثنيين والملاحدة. ويشير الزحيلي (١٩٩٧) إلى أن هذه الأحكام تنطبق على أهل الكتاب حين يكونوا مع المسلمين في غير بلاد المسلمين تحكمهم أنظمة غير الإسلام. وهذه الأحكام هي:

١- النهي عن مجادلتهم في دينهم إلا بالحسنى بحيث لا يكون هناك مجالٌ للعداوة والبغضاء والشحناء، أو للأحقاد والضغائن والمكائد، أو الطائفية والفتنة. وتعني الحسنى أن يكون الجدال أو الحوار هادفاً قائماً على الحجج والبينات، ومحترماً للأحاسيس

والمشاعر. يقول الله تعالى }ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ، إِلاَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا، وَقُوْلُوْا آمَنَّا بِالَّذِيْ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُوْنَ{[1].

٢- إباحة مؤاكلتهم، والأكل من ذبائحهم وطعامهم دون حرج، وذلك في جنس ما أحلّه الله تعالى للمسلمين ابتداءً. يقول الله تعالى: (وَطَعَامُ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ[2]). ويبين أبو سريع عبد الهادي (١٩٨٦) أن ما عليه جمهور علماء المسلمين هو حِلّ أكل طعام أهل الكتاب الطاهر عموماً، وأكل ذبائحهم، وطهارة رطوبتهم.

٣- إباحة مصاهرتهم والتزوّج من نسائهم العفيفات المحصنات، علماً أن الزواج في أصله قائمٌ على المودة والرحمة، وأن البحث عن المؤمنات ذوات الدين خيرٌ وأبقى. (وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوْهُنَّ أُجُوْرَهُنَّ، مُحْصِنِيْنَ غَيْرَ مُسَافِحِيْنَ وَلا مُتَّخِذِيْ أَخْدَانٍ)[3].

أما حين يعيش أهل الكتاب مع المسلمين ويقيمون في بلاد المسلمين فيشير إليهم الإسلام بمصطلحٍ شرعيٍ آخرٍ هو "أهل الذمّة"* الذين لهم عهد الله وعهد رسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين،

---

[1] العنكبوت، الآية ٤٦
[2] المائدة، الآية ٥
[3] المائدة، الآية ٥

* أورد الغنوشي (١٩٩٣، ص٢٩) "أنّ مصطلح أهل الذمة مصطلحٌ فقهيٌ لم تبق حاجة إليه [في العصور الحالية] بعد أن استقرّت العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وتأسست على أساس "المواطنة" داخل المجتمع الإسلامي، وعلى أساس "التعاهد" خارجه." وفيما يتعلق بمصطلح

ويعيشون في أمانٍ في ذمة الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين. ويخصّ الإسلام أهل الذمة بمعاملة خاصّةٍ أيضاً فيضمن لهم حقوقهم المترتبة على واجباتهم، ويتم إقرارهم على دينهم، وتُوفّر لهم الحماية على دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وكنائسهم، وتحميهم دولة الإسلام مقابل مبلغٍ من المال يفرض على أغنيائهم الأغنياء القادرين يُسمى "الجزية". ويصف الشيخ القرضاوي الجزية بأنها "ضريبةٌ" تفرض على الرؤوس، ويعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين. وتُقابل الجزية على أهل الذمة المواطنين الزكاة والجهاد المفروضين على المسلمين. ويدفعهم الجزية تجري على أهل الذمة أحكام الدولة في المعاملات والواجبات والحقوق كالمسلمين سواءٍ -سوى في العقيدة والعبادة، فلكلٍّ شأنه.

ويعتبر بعض المثقفين (السيد، ١٩٩٥) أن تجربة أهل الذمة قد انتهت في القرن التاسع عشر الميلاديّ، مشيراً إلى أن المسيحيين العرب والباحثين الغربيين لا يعتبرونها تجربةً ناجحةً للعيش المشترك، بزعمهم أنها ترتبط بالصَغار والتمييز في القيمة الإنسانية، وفي حقوق الفرد والجماعة، وهو زعمٌ باطلٌ لا أصل له في الأصول الفكرية الإسلامية، ولا في الممارسة العملية في العصور الإسلامية المختلفة.

وإضافةً إلى ما مضى، فهناك أمورٌ تتعلّق بمعاملة أهل الكتاب والكافرين معاً يمكن إجمالها فيما يلي:

- حلّ أكل الأطعمة الطاهرة من غير الذبائح، كالخبز والماء والفواكه والخضار، فإنها تؤكل منهم جميعاً، وحلّ استعمال آنيتهم فهي طاهرة غير نجسة، وثبت أن الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه توضؤا من "مزادةٍ" لامرأةٍ مشركة (أبو سريع عبد الهادي، ١٩٨٦).

"الجزية"، فقد أورد القرضاوي (١٩٩٦) أنه يمكن للنصارى في البلاد الإسلامية أن يسمّوه ما يشاءون إذا كانوا يأنفونه، وأنه لا حرج في تركه، ويكتفى بالمواطنة في دار الإسلام.

- جواز تعليمهم والتعلّم منهم، فقد ثبت أنّ أسرى المشركين فدوا أنفسهم مقابل تعليم المسلمين، وأن عدداً من غير المسلمين كانوا يُعلّمون أبناء المسلمين. وقد وضع العلماء لأخذ العلوم من غير المسلمين ضوابط تضمن سلامة عقيدة المتعلّمين وفطرتهم، وعدم إثارة الشكوك والشبهات فيهم.
- جواز بيعهم ومعاملتهم في الأمور التجارية والاقتصادية بيعاً وشراءً، وإجارةً ورهناً ودَيْناً، ومصانعةً واستعمالاً. ويدخل في ذلك جواز توليهم الوظائف التي تكلفهم بها الدولة – على اعتبار أنّ تولّي الوظائف ليس حقّاً للفرد على الدولة، إنما هو تكليفٌ له منها. وقد أورد الغنوشي (١٩٩٣) بياناً مفصّلاً للفقهاء والعلماء في تولّي غير المسلمين للوظائف.

ثالثاً: الحذر من أهل الكتاب والكافرين ومحاربتهم

يعتبر مجيء الإسلام حدثاً فاصلاً في تاريخ البشرية بين عصور الأديان والنبوات وعصر الدين الخاتم الذي جاء للعالمين بنبوة الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم. ومنذ ذلك الحين، ما فتئ أعداؤه، فرادى وجماعات، يطعنون في دين الله، ويشوهونه، ويحاولون أن يغيروه. وقد تحالف أولئك الأعداء في المدينة المنورة ومكة المكرمة في بداية عهد الإسلام، ثم في بلاد أوروبا وغيرها لاحقاً وعلى مدى القرون، وطفقوا يحملون عليه فكرياً وعسكرياً واقتصادياً، ويوجّهون إليه الضربات تترًا للانقضاض على أمّته، ولكنّ الله تعالى سلّم. كما تسابقوا في الافتراء عليه بعدائه للمسيحيين واليهود وغيرهم، وبانتهاكه حقوق الإنسان.

ويذكر أنور الجندي (١٩٩٨) أنه ليس هناك ما يبرر الحملة والافتراء على الإسلام سوى الحقد والضغينة، إذ إنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم قد أرسى قواعد أساسية شكّلت محور الرسالات السابقة، فانعدمت مبررات العداء، سوى أنه حسدٌ من عند أنفسهم. وتلك القواعد الأساسية هي: الدعوة إلى وحدانية الله تعالى، وتعزيز فكرة البعث والحساب بعد الموت، واتخاذ التقوى بدلاً من العصبية و"العنصرية" أساساً لبناء القيم السامية، والتأكيد على وحدة الرسالات السماوية.

ولذلك حذّر الإسلام أتباعه من اتباع غير المسلمين في معتقداتهم، لئلا يضلونهم بغير علم، وشرع محاربة من يقاتلهم في دينهم، أو يتآمر عليهم، أو يخونهم، أو يعتدي عليهم. يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً، وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) [١]. ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي) [٢]

---

[١] آل عمران، الآية ١١٨
[٢] الممتحنة، الآية ١
[٢] البقرة، الآية ٢٢٩
[٣] البوطيّ، ١٩٩٢، ص٢٥

الحقوق التي أقرّها الإسلام لغير المسلمين

انطلاقاً من أن الناس أسرة واحدة، وأنهم لآدم، وأنهم متساوون في الكرامة والتكليف، فقد ضمن الإسلام لغير المسلمين حقوقهم الإنسانية، علماً أن بعضاً منها لا يمكن أن يتأتى إلا حين تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

ومن المعلوم بداهةً أن الحقّ يقابله واجب، فلا يتمّ الحديث عن حقوق دون أن تُؤدّى الواجبات. وقد شرع الله أحكاماً، وحدّ حدوداً جعلها فواصل بين الحقوق والواجبات، فيقول تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)[1].

والأساس في الحقوق أنها منحة ورحمة من الله ربّ العالمين للناس جميعاً، وأنها تنبع من التكريم الإلهيّ للإنسان. ومن مستلزمات هذا التكريم "أن يرعى كلّ فردٍ من الناس الحق في الحياة [والإفادة من الكون المسخّر للناس] لأمثاله بمقدار ما يرعاه لنفسه، فيكون هذا الحق مطلباً للناس جميعاً على مستوى الأفراد والجماعات"[2]

وينظر الإسلام إلى غير المسلمين إلى أنهم بشر لهم كرامة الإنسان وحرمته ممّا يضمن لهم الحقوق التالية عموماً:

١. الحقّ في الحياة: فالحياة منحةٌ وهبةٌ من الله تعالى، فلا يجوز الاعتداء عليها، ولذلك شرع الله عزّ وجلّ ما يحفظها، فحرّم قتل النفس وإزهاق الروح بغير حقٍّ (كالقتل العمد الذي هو قِصاصٌ فيه عبرةٌ لأولي الألباب، أو السعي في الأرض فساداً)، وحرّم الانتحار، وحرّم إفناء

الجنس البشري، وحفظ حرمته ميتاً (الزحيلي، ١٩٩٧؛ والوزير، ١٩٨٩). وينسحب هذا الحقّ على غير المسلم كانسحابه على المسلم، مما يعني أن المسلمين لا يعتدون على غير المسلمين ظلماً وعدواناً، ولا يستبيحون دماءهم، ولا يعينون على إبادتهم أو التنكيل بهم، ولا ينتهكون حرمة أموالهم، فهذه كلّها أمور محرّمة لدى المسلمين على خلاف ما يفعله غيرهم بهم في فلسطين وغيرها. يقول الله تعالى: (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ) [١]، و (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) [٢].

٢. الحقّ في المعاملة بالعدل والإنصاف وعدم التمييز ضدهم أمام القانون في الحقوق والواجبات، وأنهم لا يتفاضلون في المعاملة في الحياة الدنيا لعرقٍ أو جنسٍ أو لونٍ أو نسبٍ أو جاهٍ أو مالٍ، وإنما التفاضل بالتقوى التي مرجعها إلى الله تعالى. ويدخل في هذه المعاملة العادلة أن غير المسلمين كالمسلمين سواء أمام القضاء وفي الحقوق المدنية والسياسية والتعبدية فلا يُنقص منها شيء. يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [٣]

والأصل في هذه المعاملة العادلة في الإسلام مبدأ الوحدة الإنسانية الذي بينه الله سبحانه وتعالى في: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ

---

[١] الأنعام، الآية ١٥١
[٢] المائدة، الآية ٣٢
[٣] المائدة، الآية ٨

لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)[1]، وفي سورة الحجرات : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[2].

ومن أدلة وأمثلة المعاملة العادلة والمساواة أمام القانون ما حدث بين الإمام عليّ بن أبي طالبٍ - رضي الله عنه- وأحد اليهود إذ تقاضيا إلى قاضٍ، فغضب الإمام عليٌّ -رضي الله عنه- بين يدي القاضي، والسبب كما بينه الإمام عليٌّ نفسه للقاضي: "إنما غضبت إذ سميته [أي اليهودي] باسمه، وكنيتني تعظيماً [وكان القاضي قد ناداه بيا أبا الحسن]، ونحن في مجلس قضاءٍ يستلزم العدل". (أبو كتة، ١٩٨٣)

٣. الحقّ في أن يكون حرّاً غير مستعبدٍ ولا مقيّد الإرادة، بحيث يتصرّف بإرادةٍ واختيارٍ، دون إكراهٍ أو إجبارٍ، وأن لا يُضطهد أو يُحكم عليه بالمصادرة أو النفي أو العذاب. وقد أشار الوزير (١٩٩١) إلى أنه لا يمكن سلب حرية أي كائنٍ إلا بالعدل، أي أنه يشترط أن تكون ثمة تهمة موجهة ضدّه تتطلب محاكمته، على أن يُعطى الفرصة التي يستحقها لدفع الشبهة عن نفسه، وبيان براءته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فإن ثبت جرمه، يعاقب عقاباً عادلاً منصفاً باعتبار ذنبه، لا باعتبار دينه.

ويبين الزحيلي (١٩٩٧) أن هذا الحق أصلٌ لحقوق أخرى كثيرة، وعدّ منها حرية الاعتقاد والتدين، وحرية التفكير العقلاني والبحث والمعرفة وكشف الحقائق، وحرية التعبير والدعوة إلى الخير، وحرية العمل، وحرية التملك، وحرية المسكن والانتقال.

---

[1] سورة البقرة الآية ٢١٣
[2] سورة الحجرات الآية ١٣

ومن مقيدات هذا الحق في الحرية عدم الاعتداء على حريات الآخرين، أو انتهاك حرماتهم وأعراضهم، وإلا انعدم التوازن في المجتمع، واضطربت الحياة في نواحيها المتنوعة.

٤. الحقّ في التدين والاعتقاد: ولعلّ هذا الحق قائماً على أن التدين مرتبط بالقناعة الشخصية والإيمان القلبيّ الذي لا سلطان لأحدٍ عليه سوى الله الخالق سبحانه وتعالى. ويعني هذا الحق أن لا يجبر غير المسلم على ترك دينه قسراً ليلحق باعتقاد المسلمين ودينهم، وإنما يؤخذ بالبينة والحجة والبرهان، ولا يُسفّه دينه. قال الله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِيْ الدِّيْنِ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ، فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوْتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىْ لا انْفِصَامَ لَهَا، وَاللهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ)[1]. وقال: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِيْ الأَرْضِ جَمِيْعاً، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىْ يَكُوْنُوْا مُؤْمِنِيْنَ)[2]

ولكن الله تعالى أرشد الناس إلى الهدى ودين الفطرة، وبعث لهم الأنبياء والمرسلين، وقرّر محاسبة الإنسان على إيمانه أو كفره، إذ يقول سبحانه وتعالى: (وَقُلْ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا، وَإِنْ يَسْتَغِيْثُوْا يُغَاثُوْا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِيْ الوُجُوْهَ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً)[3].

ويدلنا هذا الحق الممنوح لغير المسلمين على مدى التسامح الدينيّ في الإسلام، إذ إن الإسلام لا يُلزم الإنسان البالغ العاقل على الدخول فيه، مع يقينه المطلق أن الإسلام هو الحقّ المبين والصراط

---

[1] البقرة، الآية ٢٥٦
[2] يونس، الآية ٩٩
[3] الكهف، الآية ٢٩

المستقيم، فالإنسان يختار الدين الذي يريد - شريطة أن لا يكون ارتداداً عن الإسلام -، أي أنه يختار الكفر أو الإيمان، ويتحمّل نتيجة اختياره خيراً أو شراً (الزحيلي، ١٩٩٧).

ويترتب على هذا الحق في التدين والاعتقاد أن احترم الإسلام دور العبادة لغير المسلمين فلا تهدم ولا تنتهك حرمتها، واحترم شعائرهم وطقوس عباداتهم، فلا يمنعون منها. ويصف الوزير (١٩٨٩، ص١٤٦) هذا بأنه حمايةٌ مما يسمّى الاضطهاد الدينيّ فيقول: "لا يسمح الإسلام باضطهاد الجماعات الدينية بعضها الآخر، أو أن تنقص كلٌّ منها قدر أئمة الآخرين وزعمائهم، أو أن تلحق بهم الإهانة والسباب وما إليها، فالقرآن يعلّمنا احترام معتقدات الآخرين، واحترام أئمتهم وزعمائهم،" إذ يقول تعالى:(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)[1].

ويقول الدكتور الخالدي: "ومن أوضح المظاهر لتكريم الله للإنسان وأبلغها وأبرزها لإنسانيته، وأظهرها دلالة على حقوقه وحريته: احترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختصّ بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله نتيجة عمله وحساب نفسه. وإن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف "إنسان"، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد فكأنما سلبه إنسانيته ابتداءً. ويتلازم مع حرية الاعتقاد حرية الدعوة له، والأمن من الأذى والفتنة "[2]

٥. الحقّ في حرية الرأي والتعبير: إذ أتاح الإسلام الفرصة لغير المسلم للتعبير عن وجهة نظره بمختلف وسائل التعبير المشروعة ضمن مقيدات ثابتة [3]

- أن يتم التعبير وإبداء الرأي بالحجة والبرهان والحجة الدامغة.

---

[1] الأنعام، الآية ١٠٨
[2] ١٩٨٦، جزء٣، ص٣٢٧
[3] الزحيلي، ١٩٩٧، ص١٨٩

- أن لا يؤدي التعبير عن الرأي إلى حرمان الآخرين من إبداء رأيهم.
- أن يكون الرأي مطابقاً للحقيقة والواقع، بعيداً عن الخرافات والأوهام والأباطيل والظنون.
- أن يلتزم صاحب الرأي بالآداب المقرّرة شرعاً من حيث طيب الكلام، والإعراض عن التشهير والقبح والفحش في القول، والبعد عن المسّ بكرامة الآخرين أو تجريحهم.

ويشير الوزير (١٩٨٩) إلى أن الإسلام أعطى رعاياه -مسلمين وغير مسلمين- الحقّ في التعبير عن الرأي، بل عدّه واجباً ما دام فيه إحقاقٌ للحقّ وإنكار للباطل، إذ لا يجوز الصمت بحيث يقع الخطر وينتشر الخلل. وقد شجب القرآن الكريم الصمت الذي أبداه من سبقنا بتركهم التعبير عن الحقّ والصواب، فأدى إلى انحطاطهم وضياعهم، إذ قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1]. فالجدل المهذّب، والنقد المستقيم، والدعوة بالمعروف، وإظهار مواطن الخلاف كلّها أمورٌ تندرج تحت حرية التعبير.

ويأتي الحق في الاجتماع نتيجة منطقية لحرية التعبير، إذ قد يحتاج أولئك الذين يودّون التعبير عن آرائهم ن المواطنين إلى التدارس والتباحث فيما بينهم. وقد أقرّ هذا المبدأ الإمامُ عليٌّ بن أبي طالبٍ - كرّم الله وجهه - في علاقته بالخوارج، "فاعترف لهم بحقّهم في الاجتماع والمدارسة، مبيناً لهم أنهم أحرارٌ طالما لم يجرّدوا سيوفهم ليفرضوا أنفسهم وتصوراتهم على الآخرين كرهاً"[2].

---

[1] المائدة، الآيتان ٧٨-٧٩

[2] الوزير، ١٩٨٩، ص١٤٧

٦. الحقّ في المعاملة الإنسانية الطيبة: وذلك بالإحسان، وحسن المعاشرة، ورعاية الجوار، ومشاركتهم مشاعرهم براً ورحمةً في الحياة المعيشية، والتزاور، والعدل ومنع الظلم عنهم أو الاعتداء عليهم بالقول أو بالفعل، والوفاء بالعهد، وحرمة أموالهم وأعراضهم، وتجريم السرقة منهم وغشهم وخياتهم، وحفظ حقوقهم المالية، والحق في التعليم والتملك والتقاضي والعمل والضمان الاجتماعيّ. ويرى العلماء أنه يدخل في هذا الحقّ على وجه الخصوص توفير الحماية والرعاية لغير المسلمين اجتماعياً وصحياً للضعفاء والأطفال والمسنين والمرضى والجرحى، وصون حرمة نسائهم وكرامتهنّ، وحرمة مسهنّ بسوء. ويشهد على ذلك السلوك العمليّ للمسلمين في معاملتهم للذميين.

وقد أوضح الدكتور الزحيلي (١٩٩٧، ص ١٧٦) أن "منهج الإسلام في المعاملة الإنسانية لا يفرّق بين الناس في الدين والعقيدة. لذلك أوجب إقامة العدل بين جميع الناس، ومنع الظلم، وحمى الدماء، والأبدان، والأموال، والأعراض للمسلمين ولغير المسلمين، وأمر بالإنصاف ولو مع اختلاف الدين." قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[١]. وفي الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قال صلّى الله عليه وسلّم: "أيها الناس إنكم قد أسرعتم في حظائر اليهود. ألا لا تحلُّ أموال المعاهدين إلاَّ بحقّها." وفي رواية الطبراني: "ألا وإني حرَّمت عليكم أموال المعاهدين بغير حقّها. ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)[٢].

---

[١] المائدة، الآية ٨

[٢] الهندي، كنز العمال، الجزء ٤: ١٠٩٤٦

وقرّر الشرع الإسلامي أن لغير المسلم ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، ولذلك عاش غير المسلمين في ظلّ خلافة الإسلام أحقاباً وقروناً ينعمون بالأمن والعدل والحرية الدينية، والمشاركة في شؤون الحياة والعلم والحكم، كما كانت عليه الحال للمسلمين. وإنما وقع الظلم عليهم كما وقع على المسلمين في فترات التاريخ السوداء المظلمة التي لم يكن أمر الإسلام فيها نافذ، كما وقع على اليهود والمسلمين في الأندلس على أيدي طواغيت محاكم التفتيش، وعلى المسلمين والنصارى في فلسطين على أيدي الإنجليز واليهود (الزحيلي، ١٩٩٧).

والأساس في المعاملة الطيبة لغير المسلمين أن الله تعالى أمر بالقسط والبرّ مع الناس جميعاً، إلا إن كانوا محاربين، يضطهدون المسلمين ويؤذونهم بغير ما اكتسبوا، فشرع لهم القتال ضدهم دفعاً للظلم وإحقاقاً للحق. يقول الله تعالى في سورة الحجّ :(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[1].

والدليل على أن الأصل في إقامة العلاقة مع غير المسلمين هو القسط والعدل قوله سبحانه وتعالى: }لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[2]. وقد أورد الزحيلي

---

[1] سورة الحجّ الآيتان ٣٩-٤٠

[2] سورة الممتحنة، الآيتان ٨-٩

(١٩٩٧) نقلاً عن الإمام القرافيّ أن الله تعالى أمر بالبرّ بغير المسلمين من غير مودّة باطنة، بحيث يتمّ الإحسان إليهم، والرفق بضعفائهم وشيوخهم ونسائهم وأطفالهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذاهم في الجوار لطفاً من المسلمين بهم لا خوفاً منهم، أو ذِلّةً عليهم، أو تعظيماً لهم، والدعاء لهم بالهداية، ونصحهم في أمور دينهم ودنياهم، وصون أموالهم وأعراضهم وعيالهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وذلك كلّه من باب مكارم الأخلاق الذي بُعث الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم ليتمّها.

٧. الحقّ في المواطنة: تعني المواطنة أن ثمة مواطنين في دولة. وقد كان أول وجود واقعيّ للدولة في الإسلام في المدينة المنورة بعد الهجرة الشريفة إليها، حيث وُضِع الميثاق المسمّى بالصحيفة الذي حدّد أركان الدولة الأربعة: الشعب، والتشريع، والإقليم، والسلطة الحاكمة (الكيلاني، ١٩٩٧). وقد حدّدت الصحيفة (الميثاق) العلاقة بين السلطة الحاكمة ومواطني الدولة عموماً. ومن أهمّ المبادئ العليا للدولة الإسلامية أنها دولة الفكر والعقيدة، ولا تحدّ نفسها بروابط الدم أو النسب أو الأرض. ويترتب على هذا أن مواطني الدولة "يشمل جميع المسلمين الذين يسكنون داخل الدولة بغض النظر عن أصولهم ومنابتهم، مثلما يشمل أهل الذمّة من غير المسلمين الذين ارتضوا النظام الإسلاميّ نظام حياة"[١] وعليه، فحقّ المواطنة يُكتسب بأحد سببين: عقد الإسلام، أو عقد الذمة.

والدولة الإسلامية في مفهومها الحديث -أو هي دار الإسلام- هي "كيانٌ سياسيٌ قانونيٌ يمارس السلطة السياسية على مجموعاتٍ من الأفراد، في إقليمٍ معينٍ، وقد تضمّ بعض الشعوب

[١] الكيلاني، ١٩٩٧، ص٣٦

والأقليات غير الإسلامية، كما [هي] الحال في مصر والسودان"[1]. ويُعرّف بعض الباحثين الدولة الإسلامية على أنها الدولة التي يشكّل المسلمون نصف سكانها (الهزايمة، ١٩٩٧). بينما يُعرّفها أبو الأعلى المودوديّ تعريفاً شرعياً بأنها "الدولة التي تتسم بخصائص ثلاث: السلطة الحقيقية فيها لله تعالى، وليس لأحدٍ -من دون الله- شيءٌ من التشريع، وتحكم بما أنزل الله"[2]

ومن قواعد الحكم في الإسلام كما بينته الصحيفة التي وضعت في المدينة المنورة "الوحدة السياسية بين مواطني الدولة الإسلامية على اختلاف أصولهم ومعتقداتهم. وأساس هذه المواطنة: الإيمان بالنسبة لمسلمي الدولة، والولاء بالنسبة لغير المسلمين. ويظهر هذا من إعطاء الوثيقة لليهود حقّ المواطنة تحت سيادة الدولة الإسلامية، وفي مقابل حقّ المواطنة هذا تترتبّ التزامات التكافل مع الدولة، والولاء لها، لحفظ كيانها داخلاً وخارجاً"[3] وقد نقل الكيلاني (١٩٩٧) عن محمد حميد الله أن الصحيفة نصّت على "أنه من تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرٌ عليهم، ... وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ (أي يهلك) إلاّ نفسه وأهل بيته" (ص٢٣). وتبين من ذلك أنه يتوجب الولاء لسيادة الدولة المنوطة بتشريع الله ورسوله نظير حقّ المواطنة، وأنّ الفرد ملتزمٌ تجاه دولته، يحفظ سيادتها الخارجية، وأن التآمر عليها خيانةٌ عظمى، وإخلالٌ بعهد الولاء المترتبّ على المواطنة مما يُوقع تحت طائلة المسؤولية.

---

[1] البسيوني، ١٩٩٢، ص٢١
[2] ١٣٨٨ هـ، ص١٩
[3] الكيلاني،١٩٩٧، ص٢٣

٨. الحقّ في الاستجارة والأمان: وهو حقّ أثبته الإسلام لغير المسلمين، بأن يكون للإسلام دولته فيرغب غير المسلم بدخول دار الإسلام بإذن المسلمين وموافقتهم. وهو صورة من صور الهجرة، إذ يفد غير المسلم، سواءٌ أكان كتابياً أم مشركاً، من بلده الأصليّ إلى دار الإسلام -طوعاً أو كرهاً- قاصداً التعرّف على الإسلام. وقد أعطى الإسلام ذلك الشخص غير المسلم حقّه في أن يُستقبل ويُستضاف ويُجار، فيُعرض عليه الإسلام ويُعرّف بأحكامه دون أن يُجبر عليه، فإن آمن به دخل في الإسلام بفضل الله ورحمته، وجرت عليه أحكام المسلمين. وإن لم يُؤمن ورغب في البقاء في دار الإسلام، فيُجاب إلى طلبه، ويُعقد معه عهد ذمة إن كان كتابياً، فيصبح "ذمّيّاً"، أو يُعطى حقّ الأمان إن كان مشركاً، فيصبح "مستأمناً". وبموجب ذلك العهد أو الحقّ يُعامل كواحدٍ من رعايا دولة الإسلام، وينعم بالأمن والأمان والطمأنينة، فلا يُعتدى عليه بأي شكلٍ من الأشكال. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[1].

وقد أكّد الرسول صلّى اله عليه وسلّم حقّ الأمان، وأقرّه حين أجارت الصحابية أم هانىء بنت أبي طالب -رضي الله عنها- بعض المشركين يوم فتح مكة. فقد روى الإمام مسلمٌ في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى[2] أنّ أم هانىء قالت للرسول صلّى الله عليه وسلّم: "يا رسول الله، زَعَمَ ابن أبي عليٌّ بن أبي طالب أنّه قاتل رجلاً أجرتُه، فلان بن هبيرة." فقال لها رسول اله صلّى الله عليه وسلّم: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء." [3]

---

[1] التوبة، الآية ٦

[2] الجزء ٥، ص ٢٣١

[3] الهندي في كنز العمال، الجزء ٤: ١٠٩٥٠

وقد عدّ العلماء كما أورد الشيخ سعيد حوّى في الجزء الثاني من كتابه "الإسلام" (ص١٧) شروطاً لعقد الذمة والاستجارة، منها:

- ألا يذكر الذميّ/المستأمن الإسلام إلا بخير.
- ألا يفعل الذميّ/المستأمن الذي فيه ضرر على المسلمين.
- أن تجري على الذميّ/المستأمن أحكام الإسلام فيما يحللونه ويحرّمونه (كأن يقام على النصرانيّ حدّ الزنى لأنه محرّمٌ عندهم، ولا شيء عليه في الخمر فهم يحلّونه).

وأشار الدكتور الزحيلي [1] إلى شرطين للمستأمن هما: "ألا ينتهك أحكام المستأمنين المقرّرة شرعاً، وألا يشكّل خطراً على عقيدة الأمة، وأمنها، وأمانها، ومصالح الدولة العامة."

٩. الحقّ في الحياة الخاصّة: فقد حرص الإسلام على الحفاظ على حياة الإنسان، وعلى خصوصياته بحيث لا يُنظر إلى عوراته في منزله، ولا يُتتبّع في سلطانه، ويكون في مأمنٍ عن عيون الآخرين وشغبهم ودخولهم عليه عنوة. وقدّر الإسلام أنّ حرمة المسكن مقصدٌ شرعيّ (الكيلاني، ١٩٩٧) فيُمنع تفحص البيوت وتدقيق النظر فيها، أو الرقابة على رسائل الناس ومراسلاتهم وقراءتها بغير إذنهم، وكذا كلّ ما يدخل في باب التجسس المنهيّ عنه على الرعايا والمواطنين.

يقول الشيخ الغنوشي [2] "ومن الحقوق -التي تنشأ عن علاقات الأفراد فيما بينهم- والتي يتمتع بها أهل الذمّة: ضمان حرمة المسكن، فلا يدخل عليهم أحدٌ مساكنهم إلاّ بإذنهم، عملاً بعموم

---

[1] ١٩٩٧، ص٣٢٧
[2] ١٩٩٣، ص٩٥

النص القرآني: }يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها، ذلكم خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ " [1]

١٠. الحقّ في الاحتكام إلى شريعتهم فيما يتعلّق بأحوالهم الشخصية من زواجٍ وطلاقٍ وميراثٍ ونحو ذلك -إن شاءوا-، إذ هم مخيّرون بين الاحتكام لشرائعهم أو الشريعة الإسلامية. ولذلك سمح لهم الإسلام أن تكون لهم محاكمهم الخاصّة ليحتكموا إليها. وفيما يتعلق بالعقوبات، فقد قرّر الفقهاء أنّ الحدود لا تقام عليهم إلاّ فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنا، وليس فيما يعتقدونه حلالاً كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير للنصارى (القرضاوي، ١٩٩٦).

وختاماً، فإنّ الإسلام يأمر بالسماحة، وملاطفة، وحسن المعاشرة، ورعاية الجوار، والبرّ والرحمة بغير المسلمين. وتتجلى هذه السماحة والرحمة في مواضع كثيرةٍ سواء في البرّ بالوالدين غير المسلمين والإحسان إليهما ومصاحبتهما في الدنيا بالمعروف، أو الإحسان إلى الضعفاء واليتامى والمساكين، أو الإقساط إلى من لا يقاتل المسلمين في دينهم، وغير ذلك.[2]

****

[1] النور، الآية ٢٧

[2] (انظر امثلة ذلك وتفصيله في القرضاوي، ١٩٩٦، ص ٣٥-٤١

المراجع:

- ابن حنبل، أحمد بن محمد. (ت ٢٤١ هـ). المسند، ط٣، (شرح وفهرسة أحمد محمد شاكر). القاهرة: دار المعارف للطباعة والنشر.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد. (ت ٧٥١ هـ). هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٣٩٦ هـ.
- إبراهيم بن عليّ الوزير. (١٩٨٩). على مشارف القرن الخامس عشر الهجريّ، ط٤. بيروت: دار الشروق.
- أبو الأعلى المودوديّ. (١٣٨٨ هـ). نظرية الإسلام السياسية. دمشق: دار الفكر.
- أبو سريع محمد عبد الهادي. (١٩٨٦). أحكام الأطعمة والذبائح في الدين الإسلاميّ، ط٢. بيروت: دار الجيل.
- أنور الجندي. (١٩٩٨). الضربات التي وجهت للانقضاض على الأمة الإسلامية. دمشق: دار القلم.
- راشد الغنوشي. (١٩٩٣). حقوق المواطنة: حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلاميّ، ط٣. هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- سعيد حوى. (د.ت.). الإسلام، الجزء الثاني. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع.
- الشوكانيّ، محمد بن عليّ. (ت ١٢٥٥ هـ). نيل الأوطار، ط١، الجزء الرابع. القاهرة: المطبعة العثمانية المصرية، ١٣٥٧ هـ.

- صلاح عبد الفتاح الخالدي. (١٩٨٦). المنهج الحركيّ في ظلال القرآن، الجزء الثالث. جدّة: دار المنارة للنشر والتوزيع.
- عبد الغني البسيونيّ. (١٩٩٢). النظم السياسية والقانون الدستوريّ. بيروت: الدار الجامعية.
- عبد الله إبراهيم زيد الكيلاني. (١٩٩٧). القيود الواردة على سلطة الدولة في الإسلام وضماناتها. عمّان: دار البشير ومؤسسة الرسالة.
- محمد سعيد البوطي. (١٩٩٢). حرية الإنسان في ظلّ عبوديته لله تعالى. دمشق: دار الفكر.
- محمد الزحيلي. (١٩٩٧). حقوق الإنسان في الإسلام. دمشق: دار الكلم الطيب ودار ابن كثير.
- محمد عوض الهزايمة. (١٩٩٧). حاضر العالم الإسلاميّ وقضاياه السياسية المعاصرة. عمّان: دار عمّار.
- محمود أبو كتة. (١٩٨٣). نظرة المسلم إلى أخيه المسيحيّ. ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر التراث العربيّ المسيحيّ الإسلاميّ، ٩-١٩٨٣/٩/١١. القدس: المعهد المسكوني للدراسات اللاهوتية.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج. (ت ٢٦١ هـ). صحيح مسلم بشرح النوويّ، ط١، الجزء الخامس. القاهرة: المطبعة المصرية للأزهر، ١٩٢٩.

- الهندي، علاء الدين عليّ بن حسام الدين. (ت ٩٧٥ هـ). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الجزء الرابع. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.
- يوسف حامد العالم. (١٩٩١). المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ط١. هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ.
- يوسف القرضاوي. (١٩٩٦). الأقليات الدينية في الحلّ الإسلاميّ. القاهرة: مكتبة وهبة.

المقالة الحادية عشرة

أحكام أهل الذمة في الدولة الإسلامية

د. حمزه ذيب مصطفى *

مقدمه

يعتبر هذا الموضوع من الموضوعات الهامة في تاريخ علاقات المسلمين بغيرهم وعلاقة الدولة المسلة بمجموع أفرادها حين تنظيم العلاقة وفرض النظام والقانون ، غير أن هذا الموضوع طويل ومتشعب وذو ذيول كثيرة ، ومن غير الممكن أن ألخصه في وريقات وعلى جناح السرعة كما هو الأمر هنا ، إذ بوسع الباحث أن يكتب عنه الكثير الكثير ، ولا يحصر القول فيه كتاب بمفرده ، وهناك الدكتور الفاضل عبد الكريم زيدان الذي جمع ما تفرق من كتب الفقهاء ما وسع مجلدين فيما يتعلق بهذا الموضوع في كتابه القيم " أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام " .

* عميد كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة القدس - القدس

غير أنني سأحاول جهدي بيان الغاية والمراد من وراء مطلب هذا البحث من قبل الأكاديمية الفلسطينية البحثية " باسيا " التي تحاول جاهدة تحري الموضوعية والدقة في البحث، وبيان الأمور على حقيقتها كما هي ، جاهدة في تجلية الصورة للإنسان المسلم في الغرب الذي يخضع للأساليب النائية بنفسها عن الموضوعية والدقة في الحكم على الناس والأفراد ، فكانت المحاولة لبيان حقيقة ما عليه العلاقة في فلسطين تحديدا وبوجه خاص ما بين المسلمين والمسيحيين ، وإن كان ذلك يصلح لأن يعمم على أجزاء الوطن العربي والإسلامي كافة، حيث تعيش الأكثرية المسلمة والأقلية المسيحية ، ونحن أولاء في بحثنا هذا سنعمل على بيان هذا الموضوع من الوجهة الحضارية والإنسانية وليست الفقهية فحسب ٠

وإن مما يثلج صدر المسلم أولا وكل إنسان موضوعي ثانيا بغض النظر عن فكرة أو معتقده ، البحث في موضوع مصطلح " أهل الذمة " وذلك لأسباب ووجوه عدة منها :

١-عدالة الإسلام وسماحته

من الممكن تصدير هذه الترجمة بنص خالد من القرآن وهو المصدر الأول والأساس في مصادر التشريع الإسلامي وفقهه العظيم ، هذا النص هو قوله تعالى " لا إكراه في الدين "[1] حيث الإسلام لا يلزم أحدا [2] في الدخول فيه ويترك الأمر للإنسان كي يدخل ويؤمن به عن طواعية واختيار ٠ وهذا كما في سماحة وحرية واعتقاد، فيه أيضا دليل قوة الإسلام ، حيث هو دين موافق للفطرة والعقل ، ومن تبحر أحكامه ونظرها نظرة عملية موضوعية مجردة عن كل هوى أو

---

[1] سورة البقرة آيه ٢٥٦

[2] البعض من الفقهاء استثنى مشركي العرب من غير النصارى وقالوا : ليس لهم السيف أو الإسلام

تعصب أدرك لا محالة بأنه دين حق وإنسانية وعقل . فجوانب أحكامه كافة منسجمة كل الإنسجام مع المنطق الصريح السليم ، ومتوافقة كل التوافق مع مراحل الفطرة الإنسانية ، ولا يسع الباحث والعاقل والموضوعي سو التسليم والموافقة والإيمان ، إذ على سبيل المثال أن من البدهيات والقواعد في جانب التشريع الإسلام أن الإنسان لا يكلف فوق طاقته بل ضمن قدرته واستطاعته كما في قوله تعالى " لا يكلف الله نفساً الا وسعها " [1] .

وقضية التيسير والتسهيل من قواعد الإسلام العظيمة ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " [2] هذه بعض أمثلة من متعلقات الفطرة .

أما في مجال الحكم والقضاء والفصل بين الناس فعدالة الإسلام أوضح من الشمس في رابعة النهار ، وعلى المسلم أن يكون بعيداً عن الحيف والظلم والتجني على الآخرين ، وهذا ما نص عليه الكتاب الكريم في القول الجليل " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى " [3] . وفي مجال الشهادة والإستشهاد أما القضاء أثناء الفصل في الحقوق أوجب الإسلام تحري الصدق والقول الفصل دون محاباة أو مجاملة على حساب الحق ولو كان مع أقرب الناس للإنسان ، وليس هناك شيء أوضح من النص الكريم " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " [4] .

أما في قضايا المحافظة على حقوق الآخرين وأموالهم سيما أولي الضعف في المجتمع فكان رأي الإسلام صريحاً في ضرورة ذلك لدرجة أن القرآن عبر عنه بأن ذلك " عهد الله " . قال جل شأنه : " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط

---

[1] البقرة آيه ٢٨٦
[2] سورة البقره آيه ١٨٥
[3] سورة المآنده ٨
[4] سورة الأنعام ١٥٢

، لا نكل نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون..."[1] .

فالإسلام لم يفرض نفسه على أحد لحكمة بالغة حيث النفس من طبيعتها النفور مما يفرض عليها ، ولكن الإسلام جعل ذلك ماطاً بعقل الإنسان وفطرته ، والإسلام فيه كل الموافقة للعقل والفطرة ، ولا يسع المنصف حيث البحث والتدقيق والمقارنة والمفاضلة إلا أن يختار دين الله سبحانه وتعالى ، وهذا سر بقاء تمسك الشعوب بالإسلام إلى يومنا هذا منذ أن عرفته وآمنت به ، في حين نرى المبادئ التي الزم الناس بها وفرضت عليها دونما قناعة سرعان ما تركت وملها أصحابها منذ منحهم حرية التمسك أو الترك لها كما رأينا ذلك في الكتلة الشرقية مع مبادئ الشيوعية .

٢- سعة فقه الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان

رغم أن الإسلام جاء قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان وطرأ على الحياة البشرية الكثير من المتغيران ، واستجد الكثير من الأشياء ، وتعاور على القرون الكثير من التفاوت، ودخل إلى حياة الناس ما لم يكن متوقعاً أو متصوراً في يوم الأيام والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، فالأمر والحالة هذه ألا يكون الإسلام صالحاً للأزمنة المختلفة والمتباينة ، ويكفيه إعتبار تراثاً وتاريخاً ، فضلاً عن أن يكون الأفضل والأحسن على الدوام رغم الطروءات الكثيرة ، فحينما تنظر إلى القوانين المعاصرة وإلى آخر ما ابتدع الإنسان من نظم وتشريعات تجد أن الإسلام أوفاها وأشملها وأعظمها ، وتحس بل يتبين لك أن النقص في التشريعات التي ابتدعها الإنسان . ووضع فيها

---

[1] سورة الأنعام ١٥٢

– كي تكون صالحة – أقصى ما يستطيع من فكر وجهد عقلي ومعرفي رغم كل ذلك تجد النقص والخلل قد اعتراها وأنها غير ناضجة البتة حين مقارنتها بالتشريع الإسلامي وأنه هو الأكثر دقة وشمولية وقدرة على معالجة قضايا الإنسان المعاصر سواء أكان ذلك من متعلقات الجسد أو النفس أو العقل . وهذا لا لشيء إلا لأن الإسلام دين الله وهو النظام والتشريع الذي ارتضاه الخالق لبني البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وصدق الله حيث قال " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون "[1]

٣- معالجة الإسلام لهذا الموضوع (أهل الذمة) تاريخيا

جاءت معالجة الإسلام لموضوع أهل الذمة في وقت كانت البشرية متأخرة في جوانب الحياة الكثيرة ، ومها " التشريع والتقنين " وإن الناظر إلى طريقة معالجة الإسلام لموضوع أهل الذمة النظرة التشريعية والفقهية يجد الدقة المتناهية والنظرة العادلة الشاملة ، حيث استحدث الإسلام هذا الجانب من قوانينه الكثيرة والمتعددة والملمة لكل نواحي الحياة ، جاء ذلك متساوقا مع عدالة الإسلام وسماحته وشمولية تشريعه ، وهذا ما سنتعرف عليه حيث الكلام عن الأحكام بكل سماحة وقوة واقتدار ، كل ذلك أثناء طفولة البشرية أو تأخرها في تلك العصور ، ولم تكن البشرية قد تطورت تطورها الحالي في مجالات الحياة كافة ومنها التشريعات . كما لم تكن تعرف حينها ما يعرف ب " مباديء حقوق الإنسان " ولم يكن شعاره الثورة الفرنسية قد رفع بعد وهو " العدالة والحرية والمساواة " .

---

[1] سورة المائده ٥٠

فأني عدالة قديمة أو معاصرة تضاهي وتماثل عدالة الإسلام ؟؟ وأي هامش من الحرية النافعة للإنسان والبشرية أوسع وأكبر من الهامش الذي أفرده الإسلام ؟ ومتى أفرد الإسلام هذا الهامش ؟ قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمان حيث كانت عهود الظلم والبطش والدكتاتورية . وقبل معرفة إنسان القرن العشرين لمبادئ ومنظمات حقوق الإنسان ومواثيق جنيف للحرب والسلم . ويرحم الله الفاروق عمر حيث قال " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ولمن قال هذه العبارة عمر ؟ هل قالها لعامة الناس أو الضعفاء منهم ؟ أم قالها للسوقة والرعاع ؟ أم قالها في معزل عن الناس والآخرين ؟ لقد قالها لرجل وقائد وزعيم ومسئول كان من أعظم الرجال والقادة في التاريخ الإسلامي ، قالها لعمرو بن العاص حاكم مصر وزعيمها ، والقصة في ذلك معروفة ومشهورة .

وأية مساواة أفخر وأدق من المساواة التي فرضها الإسلام على أتباعه كي يكون الناس جميعا سواسية أمام الحق والقضاء والفصل ، لا فرق في ذلك بين قائد وجندي وزعيم وفرد عادي ؟ كيف وقد مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أما القضاء مع رجل من عامة الشعب ولم يكن مسلما أيضا بل كان يهوديا ، والأقوى من ذلك والأقدر في شريعة الإسلام أن يحكم لليهودي في ذاك المجلس على الإمام علي أمير المؤمنين مع أن الحق لعلي غير أن أمير المؤمنين كان يفتقر الى الدليل كي يكسب القضية . مما أثر ذلك كثيرا في نفسية الرجل اليهودي فما كان منه إلا أن أعلن إسلامه .

٤- رحمة الإسلام بالناس

هناك الكثير من أصحاب المبادئ ممن نراهم متعطشين للدماء سفاكين سفاحين ما أن يستطيعوا التحكم في رقاب العباد حتى يعملوا فيهم السيف أو الحراب ، فيقتلون دون وازع من

مبدأ أو ضمير ، ولا يسمحون بمخالف لهم أ، يعيش بل لا بد له من أن يبيد . والأمثلة على ذلك من التاريخ الماضي والحاضر كثير جد كثير . إذ ماذا صنع نبوخذ نصر حينما دخل بيت المقدس؟ وماذا صنع دو نواس في نصارى مدينة نجران حينما خالفوه ورفضوا أن يتبعوا دينه ومعتقده ؟ وكان قد خيرهم بين القتل أو اتباع الملة اليهودية حيث كان هو كذلك ، فاختاروا القتل على أن يدخلوا ملته ويتبعوا عقيدته فأحرقهم بالنار وقتل منهم بالسيف من قتل ومثل بهم شر تمثيل، فقد المؤرخون عدد القتلى ب " عشرين ألف " وفي قصتهم نزل قول الله تعالى : " قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود ، إذ عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود "[1] . بل وماذا فعل التتار بالمسلمين حينما دخلوا عاصمتهم بغداد ؟ لقد عاثوا في الأرض فسادا فقتلوا ونهبوا وأحرقوا ، إذ قتلوا في بغداد كما قال المؤرخ العلامة ابن كثير ألف ألف نسمه[2] . وألقوا من مخزون مكتبات بغداد في نهري دجله والفرات ما جعل مياه النهرين سوداء لمدة أسبوع من كثرة ما القي من المخطوطات المكتوبة بالمداد الأسود ، وهذا بالفعل ليس ضد الإسلام والمسلمين فحسب لا بل ضد الإنسانية جمعاء . إذ العلوم والمعارف ليست حكرا على أمة أو طائفة أو جماعة .

وماذا صنع الأسبان بمسلمي الأندلس ؟ لقد قتلوهم شر قتلة وأذاقوهم من صنوف العذاب والإستئصال العرقي ما تقشعر له حتى جلود الحيوانات .[3]

وماذا فعل الصليبيون بالمسلمين في بلادنا المقدسة ؟ وفي المقابل كيف عاملهم صلاح الدين الأيوبي حينما انتصر عليهم ؟ فشتان ما بين المعاملتين . وماذا فعل بمجموعة أو حفنة من

---

[1] الآيات من سورة البروج من ٤-٧

[2] البداية والنهاية

[3] أنظر كتاب : تاريخ مسلمي الأندلس " الموريسيكيون " تأليف : الإسباني أنطونيو دومينقير والفرنسي : برنارد نبثنت

الفلسطينيين المدنيين العزل في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت في عمليات الاجتياح لهذه المدينة سنة ١٩٨٢م؟ .

وأخيرا وليس آخرا البارحة وفي العصر الحديث عصر مبادئ حقوق الإنسان ومواثيق جنيف ، ماذا فعل الصرب بمسلمي كوسوفا من القتل والبطش وإحراق المنازل واغتصاب النساء وقتل الأطفال وبقر بطون الحوامل وتشريد المدنيين وتهجيرهم من أراضيهم ؟

ولكن لننظر في المقابل كيف عامل الإسلام أهل الكتاب ، فهل حكم عليهم بالإعدام والقتل والتشريد كونهم لم يدخلوا في الإسلام ؟ وهل سبق أن قتل مسلم واحدا من أهل الكتاب بحجة أنه لم يسلم ؟ أم أن الإسلام عامل أهل الكتاب المعاملة الحسنة الكريمة ، بل حتى عند الجدال أمر القرآن الكريم بألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ؟ قال تعالى : " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن "[1] .

لقد وضع الإسلام تشريعا خاصا بأهل الكتاب كي يحافظ عليهم وعلى ممتلكاتهم وكنائسهم وحريتهم الدينية ، وضمن لهم كافة حقوقهم ، وسنرى بعد قليل بعض التفصيلات في هذه الحقوق والأحكام المتعلقة بها ، ولا أدري أميزة عظيمة هذه للإسلام أم مذمة ؟ وصدق المشاعر : كم منطق في الحقيقة تقلب .

والأيام بين الناس دول ، فكم سادت دول ثم بادت وعظمت إمبراطوريات ثم اضمحلت وانتهت ، والإنسان يوم حاكم وآخر محكوم ، فأيها أفضل لأهل الكتاب في فترات الضعف أن يلاحقوا شر ملاحقة ويضطهدوا ويعذبوا فضلا عن التقتيل والتشريد أم تحفظ دماؤهم وأموالهم

---

[1] سورة العنكبوت ٤٦

وممتلكاتهم وبيعهم ويبقوا في ديارهم آمنين مطمئنين ويعيشون بكل حرية مع توفر كل دواعي الاستقرار الهادئ ؟

سنرى أهل الذمة ألا كبير فرق بينهم وبين أهل البلاد أو المسلمين في الحقوق والواجبات ، وإذا ما كانت المناصب الوضعية والرفيعة والوظائف البسيطة والعالية بينهما سواء فلم حينئذ التخوف أو الذم لهذا العقد الذي قصارى وجل ما فيه المحافظة على أهل الكتاب بكل ما تحمل كلمة " المحافظة " من معنى وغاية ؟

وليعلم أن هناك بعض الوظائف مقصورة على أهل الكتاب، ولا يعاب الإسلام في ذلك ولا تعاب النصرانية أو اليهودية · إذ هل أحمد من أهل الكتاب يقبل أن يشغل مسلم وظيفة راهب في كنيسة أو حبر في كنيسة ؟ أم هل يقبل النصارى لعالم مسلم أن يكون مكانا البابا في الفاتيكان ؟

فهل رفض المسلمين لبعض المواقع أن يتبوأها واحد من أهل الكتاب يعد ذلك عيب ونقس ومذمة للإسلام والمسلمين ؟ في تصوري وتقديري أن كل من يعيب على المسلمين موضوع " أحكام الذمة " لا يكون فاهماً معناه ولا عارفاً الفلسفة ولا الحكمة من وراء ذلك أو يكون التعصب والهوى هو المسيطر عليه والموجه لا لرأيه وأفكاره ، وفي هذا من الخطأ والخطل ما فيه ·

هذه بعض جمل اضطررت لكتابتها في مقدمة هذه الورقة المتعلقة بهذا الموضوع ، نظرا لظروف الكتابة وظرف طرح هذا الموضوع من الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية " باسيا" ، إذ كان الطرح أن تخوفا أو كلاما ما يقال من بعض فضلاء النصارى وباحثين غربيين عن موضوع " عقد أهل الذمة " فرغبت في هذه المقدمة التي رأيتها ضرورية قبل الدخول في تفاصل أحكام هذا العقد لأن أحكام هذا العقد واضحة في الشريعة الإسلامية وهي محل اتفاق وليس

هناك كبير خلاف حولها بين علماء المسلمين وكل من رجع إلى كتب الفقه الإسلامي ومصادره يجدها بكل وضوح وبيان ٠

أهل الذمة

الذمة في اللغة بكسر الذال المعجمة العهد [١] وتعني أيضا الأمان والكفالة ، والحق والحرمة [٢] ٠

وأهل الذمة : هم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام ٠ وتعقد الذمة أو يبرم عقد الذمة لأهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى [٣] ٠ وذلك بنص الآيه الشهيرة من كتاب الله وفيها " حتى يعطوا الجزية " [٤]، وكذلك المجوس ، وقد ثبت جواز عقد الذمة لهم من السنة في قوله صلى الله عليه وسلم " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " [٥] ٠ كما أخذ صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر [٦] ٠ أما غير هؤلاء ففيه خلاف بين الفقهاء مبين ومفصل في كتب فقه الإسلام لمن رغب الاستزادة ٠

وأنا هنا بحثي إنما يعنيني موضوع أهل الكتاب تحديدا والنصارى بشكل أخص نظرا للجهة التي طالبتني بالبحث وللواقع الذي فرض التفكير في هذا الاتجاه نحو هذا المنحى ٠

---

[١] القاموس المحيط : ١١٥/٤

[٢] المعجم الوسيط : ٣١٥/١

[٣] جاء في نيل الأوطار : ٦٥/٨: قال في الفتح : فأما اليهود والنصارى فهم المراد بأهل الكتاب اتفاقا ٠ وانظر : الأحكام السلطانية : ص : ١٤٣

[٤] جزء من آيه ٢٩ : التوبة

[٥] ضعيف لانقطاعه ، لكن له شاهد رواه الطبراني بلفظ " سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب " ٠ والعمل على هذا عند فقهاء الأمة الإسلامية ٠

[٦] رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد

صفة عقد الذمة

عقد الذمة عقد لازم في حق المسلمين لأهل الذمة فلا يملك المسلمون نقضه ما لم يحدث من الذمي ما يقتضي نقضه ، وأما في حق الذمي فهو عقد غير لازم إذ يحتمل النقض من جهته .

بم يصبح غير المسلم من أهل الذمة ؟

هناك صور عدة يصبح من خلالها غير المسلم ذميا سواء أكان من أهل الكتاب أو المجوس أو سواهم على حد قول من يجيز ذلك من فقهاء المسلمين ، وهذه الصور هي:

١-العقد [١] :

وهو أن يبرم الإمام للذمي عقدا باللفظ وهو الإيجاب والقبول مثله مثل العقود الأخر ، أو ما يقوم مقام اللفظ كالكتابة أو الإشارة . وذلك كأن يطلب الحربي من الإمام عقد ذمة فيبرم له الإمام هذا العقد [٢] .

٢- القرائن الدالة على رضاه بالذمة [٣]

هناك قرائن تقوم مقام العقد إذا ما تحققت صار غير المسلم ذميا ، وتجري عليه أحكام الذمة ، من هذه القرائن :

---

[١] هذه الصور موجودة ومثبوتة في كتب الفقهاء بصورة فيها تفصيل غير أن الدكتور الفاضل عبد الكريم زيدان في كتابة " أحكام الذميين " ذكرها بصورة مفصلة ومفردة ومرتبة فآثرت هذا الترتيب

[٢] انظر : نهاية المحتاج الى شرح المنهاج : ٢٣١/٧، فتح العزيز : ٩٩/١٦-١٠٠

[٣] بدائع الصنائع : ١١٠/٧ .

أ-الإقامة في دار الإسلام :

الأصل في الحربي أن يقيم في دار الإسلام ولا يسمح له بالإقامة الطويلة أو الدائمة ، وإنما يسمح له لفترة وجيزة يمكن من خلالها بالإقامة الخفيفة لقضاء بعض الحاجات أو التنقل ، وقد قدرها فقهاء الحنفية والشافعية بأقل من حول . [1] أما إذا أقام صاحب العهد أو المستأمن في دار الإسلام مدة يفهم منها رضاه ورغبته بالإقامة الدائمة والدخول في الذمة فإنه يصير والحالة هذه ذميا وتنطبق عليه أحكام أهل الذمة ، ولهذا التصور حالات نص عليها في كتب الفقه وهو معلومة بصورها وأشكالها ، غير أنها تدور على مدة الإقامة هو حول كامل أو أكثر ، فإذا ما أقام هذه المدة أو أكثر بعد ما يطلب منه الخروج ومغادرة البلاد فإنه يصبح ذميا بالقرينة هذه [2].

ب- شراء صاحب العهد أو المستأمن في دار الإسلام أرضا خراجية [3]

إذ يصبح صاحب العهد أو المستأمن ذميا فيما إذا اشترى أرضا خراجية فزرعها ووضعت الدولة عليها الخراج ، وتعليل ذلك أن الخراج وظيفة مالية لا يلتزم بها إلا من كان من أهل

---

[1] قال الماوردي من الشافعية : ولأهل العهد إذا دخلوا دار الإسلام الأمان على نفوسهم وأموالهم ولهم أن يقيموا فيها أربعة أشهر بغير جزية ، ولا يقيموا سنة إلا بجزية أ.هـ . الأحكام السلطانية : ١٤٦

[2] انظر المبسوط : ٨٤/١٠ ، البدائع : ١١٠/٧

[3] أصل الخراج : الغلة التي فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فلاحي سواد العراق يخرجها أهلها كل عام من إنتاج الأرض ، ثم اصطلح الخراج على كل بلاد افتتحت صلحا ، واتفق على غلة يخرجها أهلها كل عام مقابل تملكهم الأرض أو إفادتهم منها وانتفاعهم بها . انظر كتابة : الخراج لأبي يوسف ، الأحكام السلطانية : ص ١٤٦

الإسلام . فحينما يقوم المستأمن بشراء الأرض وزراعتها والإستفادة منها، كان ذلك قرينة تدل على الرغبة في التوطين والإقامة .[1]

ج- الزواج

إذا ما تزوجت صاحبة العهد أو المستأمنة رجلا من أهل دار الإسلام فإنها تصبح ذمية بهذا الزواج ، حيث المرأة تابعة لزوجها حيث حل والتبعية للدار . فإذا تزوجت مسلما أو حتى ذميا وهما من أهل دار الإسلام ، فإنما يدل ذلك على رضاها بالإقامة في هذه الدار على وجه الدوام . بعكس الرجل لا يصير ذميا إذا تزوج ذمية لأنه غير تابع لها فلا يدل حينئذ زواجه منها على رضاه بالدخول في عقد الذمة . وهذا ما عليه الحنيفة ، إذ ورد في شرح السير الكبير[2] ما نصه : قد بينا أن المرأة تابعة للزوج في المقام ، والزوج لا يكون تابعا لامرأته ، فإذا تزوجت المستأمنة في دارنا مسلما أو ذميا صارت ذمية بخلاف المستأمن إذا تزوج ذمية .. وعلى هذا لو تزوج مستأمن مستأمنة في دارنا ، ثم صار الرجل ذميا كانت ذمية " أ. هـ .

وقال السرخي[3] : الحربية المستأمنة إذا تزوجت مسلما أو ذميا فقد توطنت وصارت ذمية لأن المرأة في السكن تابعة للزوج ، ألا ترى أنها لا تملك الخروج إلا بإذنه ، فجعلها نفسها تابعة لمن هو من دارنا رضا بالتوطين في دارنا على التأبيد ، فرضا بذلك دلالة كالرضا بطريق الإفصاح فلهذا صارت ذمية " أ. هـ .

---

[1] انظر : البدائع : ١١٠/٧، الهداية : ٣/٤ أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام : ص ٣٤، ٣٥

[2] ح ١١٥/٤

[3] المبسوط : ٨٤/١٠ ، وانظر البدائع : ١١٠/٧

٣- الذمة بالتبعية

هناك حالات يكون فيها غير المسلم ذميا بالتبعية ، من هذه الحالات :

أ- الأولاد الصغار:

نص كثير من فقهاء الإسلام كفقهاء الحنفية والحنابلة والمالكية على أن الأولاد الصغار يدخلون في الذمة تبعا لآبائهم وأمهاتهم إذا كان هؤلاء الآباء ذميين . جاء في شرح السير الكبير [١] ما نصه : ولو دخل حربي مع امرأته دارنا بأمان ومعهما أولاد صغار وكبار ، فأسلم أحدهما فالصغار من الأولاد صاروا مسلمين تبعا للذي أسلم منهما ... ولو صار أحدهما ذميا كان الصغار من الأولاد ذميين تبعا له أ.هـ .

وجاء في المغني في الفقه الحنبلي [٢] ما نصه : ومن بلغ من أولاد أهل الذمة أو أفاق من مجانينهم فهو من أهلها بالعقد الأول لا يحتاج الى استئناف عقد له أ.هـ .

أما المالكية فقد جاء في القوانين الفقهية لابن جزيء [٣] : لا يعقد الذمة إلا الإمام، ولا تعقد إلا لكافر حر بالغ ذكر ، قادر على أداء الجزية .. فأما المرأة والعبد والصبي فهم أتباع ولا جزية عليهم أ.هـ- .

---

[١] ١١٩/٤ ، ١٢٠

[٢] ٥٠٨/٨

[٣] ص ١٣٧، ١٣٨

ب- الزوجة

ما قيل في فقرة " جـ " تحت " الزواج " يقال هنا حيث الزوجة تبع لزوجها إذ لو أسلم الزوج وكان من أهل دار الإسلام فإن الزوجة تصبح ذمية وكذلك لو صار الزوج ذميا وهو في دار الإسلام فإن لزوجة تصبح ذمية كذلك . جاء في السير الكبير وشرحه وهو يذكر ويعلل تبعة المرأة لزوجها [1] . لأن المرأة في المقام الأول تابعة لزوجها بمنزلة ما لو تزوجت بمسلم ابتداء .. وكذلك إذا صار الزوج ذميا لأن الذي من أهل دارنا كالمسلم أ.هـ

ج- اللقيط

اختلف في حكم اللقيط بين الفقهاء ، فقد ورد عن فقهاء الشافعية والحنابلة أن اللقيط يعتبر مسلما إذا وجد في أي مكان من دار الإسلام ما دام فيها مسلمون . أما إذا لم يكن في المكان أحد من المسلمين لا يحكم بإسلامه ، جاء في المغني لابن قدامه [2] : قال ابن المنذر : أجمع عوام أهل العلم عن أن الطفل إذا وجد في بلاد المسلمين ميتا في أي مكان وجد أن غسله ودفنه في مقابر المسلمين يجب .. وقال : إذا وجد لقيط في قرية ليس فيها إلا مشرك فهو على ظاهر ما حكموا به أنه كافر أ.هـ. أما فقهاء الحنفية فقالوا: يعتبر اللقيط ذميا إذا وجد في مكان أهل الذمة كقرية من قراهم أو معبد من معابدهم .

---

[1] ٩٥/٤

[2] ٦٨١/٥ ، وانظر المجموع : ١٧٨/١٤

٤- الذمة بالغلبة والفتح :

هذا وضع آخر وحالة أخرى يكون غير المسلم ذميا ، في حالة فتح المسلمين بلادا غير إسلامية ورأى الإمام أو الخليفة ترك أهل هذه الديار أحرارا بالذمة لضرب الجزية عليهم والخراج على أراضيهم كما صنع عمر بن الخطاب مع أهل العراق حينما فتح سوادهم [١] .

بم ينتقض عقد الذمة ؟

اختلف الفقهاء فيما ينقض عقد الذمة ، فذهب الحنفية الى أن العقد ينتقض بإسلام الذمي وقالوا بأن الذمة عقدت وسيلة إلى الإسلام ، فلما أسلم حصل المقصود فلا يبقى عقد الذمة. كما ينتقض بترك الذمي لدار الإسلام ولحوقه بدار الحرب ، وهو بهذا اللحوق تكون صلته قد انقطعت بدار الإسلام وصار من أهل دار الحرب .

وينتقض أيضا بتغلب الذميين على موقع لمحاربة المسلمين ، إذ يصبح الذمي بذلك محاربا للمسلمين مما يجعل عقد الذمة منقوضا ، حيث من مجريات هذا العقد حينئذ .[٢]

أما غير فقهاء الحنفية فقد توسعوا في الأسباب المؤدية الى نقض هذا العقد فمن ضمن ما ذكروا : كأن يمتنع من التزام أحكام الإسلام ، أو طعنه في الإسلام أو القرآن ، أو سب الله تعالى، أو ذكر

---

[١] البدائع : ٦٨١/٥

[٢] البدائع : ١٢/٧، ١١٣ ، الهداية : ٣٨٥/٤

رسول الله صلى الله علي وسلم بسوء ، أو امتناعه عن دفع الجزية ، أو قطعه للطريق على مسلم أو فتنته له عن دينه ·· وما شابه ذلك ، ومن أراد الإستزادة فليرجع إلى كتب الفقه الكثيرة[1].

الحقوق المترتبة للذميين

هناك الحقوق الكثيرة المترتبة لأهل الذمة على المسلمين ودولتهم فعلى الدولة الإسلامية أن تحفظ هذه الحقوق لهم وتعمل جاهدة على تأمينها والعمل بها ومراعاتها وهذا الذي كان وتم طيلة فترات التاريخ الإسلامي ولا يزال ، وإلى يومنا هذا ومن هذه الحقوق :

١-المحافظة على شخصية الذمي وتأمين حريته

لقد أوجب الإسلام المحافظة على الذمي ضمن نصوصه العامة ، وكفل حريته في التنقل والذهاب والإياب ، إذ لا بد للذمي في كل ذلك أن يكون آمنا على نفسه وماله ، قال تعالى : " إن الله لا يحب المعتدين "[2]، كما منع الاعتداء الآثم فقال سبحانه : "فلا عدوات إلا على الظالمين"[3]، فالإسلام حرم الظلم للمسلم وغير المسلم ، قال تعالى : " وما ربك بظلام للعبيد "[4] · والذمي من ضمن عباد الله ، وجاء في الحديث القدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا "[5] وهذا نص عام لكل عباد الله في الأرض ·

---

[1] انظر للحنابلة : كشاف القناع : ٧٣٧/١، شرح منتهى الإرادات : ٢٧٤٤/١، المغني : ٥٢٥/٨ ، وللشافعية انظر الماوردي: ص ١٤٥، مغني المحتاج : ٢٥٨/٤، ٢٥٩، والمجموع حيث توسع في ذلك ٢٦٠/١٨، ٢٦١

[2] سورة البقرة : ١٩٠

[3] سورة البقرة : ١٩٣

[4] سورة فصلت : ٤٦

[5] رواه مسلم

كما أن هناك نصوصا تنهى عن ظلم أهل الذمة تحديدا وتأمر بالمحافظة عليهم ، وصرف أي اعتداء عنهم وإن قل [1] . روى الإمام أبو داود في سننه رحمه الله تعالى بسنده مرفوعا عن عدة من الصحابة قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا من ظلم معاهدا او انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " [2]

والنصوص في ذلك واضحة وجلية ، وعلى هذا سار الخلفاء المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ خطوا لأنفسهم نهجا استقوه من مدرسة النبوة الكريمة ، فقد ورد عن الفاروق في حضه على حفظ أهل الذمة والوصية بهم قوله : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرا ، أن يوفى بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وألا يكلفهم فوق طاقتهم أ.هـ [3] . كما كان في أيام حياته يوصي عماله دائما بأهل الذمة ويسأل الوفود القادمة على المدينة ليتأكد من أن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام بأهل الذمة متحققة ومعمول بها . روى الطبري في تاريخه [4] أن عمر بن الخطاب سأل وفد البصرة : لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى ؟ فقالوا : ما نعلم إلا وفاء أ.هـ .

وها هو الإمام علي من بعده يسير على نفس الخطى فيرفع عقيرة المساواة ما بين المسلمين والذميين إذ يقول : إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا أ. هـ . [5]

---

[1] انظر كتاب : الخراج لأبي يوسف ص ١٢٦، ١٢٥

[2] صحيح سنن أبي داود ، حديث رقم ٢٦٢٦

[3] كتاب الخراج لأبي يوسف : ص ١٢٥ والخراج ليحيى بن آدم : ص ٧٤

[4] ٢١٨/٤

[5] المغني لابن قدامه : ٤٤٥/٨ ، البدائع : ١١١/٧

وهذا هو خط سير المسلمين قاطبة في الفتوحات الإسلامية . وكتب التاريخ حافلة بالنماذج ولولا خشية الإطالة لذكرت من ذلك الكثير .كما أن فقهاء المسلمين قاطبة أوجبوا على المسلمين رفع ودفع الظلم عن أهل الذمة وأمروا بالمحافظة عليهم وعلى ممتلكاتهم . جاء ذلك في حق المسلمين وحكامهم، إذ من الفقهاء من خاطب حكام المسلمين بشأنهم كما هو الحال مع الإمام أبي يوسف وأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله ، فقال في وصيته للرشيد ك وقد ينبغي يا أمير المؤمنين – أيدك الله – أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق عليهم أ.هـ [1].

وقضية الفقيه الأوزاعي في انتصاره لأهل الذمة من لبنان والدفاع عنهم بكل قوة لدى الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس شهيرة معروفة [2].

٢- حريته في التنقل والإقامة :

لأهل الذمة حرية التنقل كيفما شاءوا ولهم حق الإقامة أينما شاءوا [3] لأنهم تماما كأهل دار الإسلام لا فرق بينهم وبين المواطنين المسلمين .

---

[1] الخراج لأبي يوسف : ١٢٤، ١٢٥

[2] انظر كتاب : الأموال لأبي عبيد : ١٧٠، ١٧١

[3] سوى ما استثنى من ذلك الحرمان الشريفان مكة والمدينة ، ويتبعهما الحجاز في عدم جواز السكنى فيه

٣- خروجهم من دار الإسلام وعودتهم إليها :

لأهل الذمة الحق في الخروج من دار الإسلام إلى أي مكان يشأونه لتجارة أو غيرها شريطة ألا يلتحق بدار حرب على الإسلام والمسلمين أو كان القصد من السفر والخروج الإضرار بمصالح المسلمين [١]

٤-إعناتهم والقبض عليهم

لا يجوز إعنات أهل الذمة أو إلقاء القبض على أحدهم أو مساءلتهم ومحاسبتهم إلا بحق أو بجريرة ذنب يستحق إجراء من هذا النوع ، لأن في ذلك ظلما لهم ، والظلم كما أسلفنا محرم وفي حق الذمي بصورة آكد ، ومن القواعد العامة في الشريعة الإسلامية " لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص". فلا يجوز إعنات الذمي أو حبسه أو توقيفه إلا بموجب ذلك قانونا ونظاما .

٥- حرية العقيدة الدينية

إن من موجبات عقد الذمة كفالة الحرية الدينية لأصحاب هذا العقد ، وإلا ما هو الموجب لعقد الذمة إذا لم تكن الحرية الدينية مكفولة ومضمونة ؟ ناهيك أن الإسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه حيث الآية الكريمة صريحة وجلية ، إذ تقول " لا إكراه في الدين " [٢] ، وإن كان الإسلام قد أمر بالأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وعلى رأسها الإيمان بالله وتوحيده ، إلا أن الدعوة شيء والإكراه شيء آخر ، إذ الدعوة سبيلها الحكمة والموعظة الحسنة ، قال تعلى : " ولا تجادلوا

---

[١] انظر المغني : ٥٣٠/٨

[٢] البقرة : ٢٥٦

أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن "[1] والنصوص من الكتاب والسنة في ذلك كثيرة وواضحة ، ولولا خشية الإطالة في هذه الورقة لذكرت المزيد من التفصيل سيما فيما يتعلق بمعابد وكنائس أهل الكتاب ، حيث لا يجوز هدمها أو الإعتداء عليها أو تخريبها ، وكتب الفقه حول هذه القضية تزخر بالقول الجميل والفصل، قول دال على سعة أفق ودقة فهم ومرونة شريعة ، وسماحة دين ، ومن أراد الإستزادة فليرجع إلى المصادر وكتب الفقه التي تناولت هذا الموضوع . وقد أشرت إلى بعضها في الهامش .

٦- حرية التعليم والعمل

لا فرق بين مسلم وصاحب عقد الذمة في حرية التعليم ن إذ للذمي الحق الكامل في التعليم وتعليم ذرياتهم مبادئهم الدينية ولهم الحق في إنشاء المدارس الخاصة بهم كما هم المسلمون تماما .

أما العمل فلأهل الذمة الحق في ممارسة ما شاءوا من أعمال ووظائف وتجارات إلا ما حرمه الإسلام على المسلمين أنفسهم كحرمة التعامل بالربا وبيع الخمور والخنازير ، ويلتحق بالخمور اليوم المخدرات بكافة أنواع هذه السموم .وفيما يتعلق بالوظائف فالتاريخ الإسلامي القديم والحديث حافل بالأمثلة على اعتلاء أهل الذمة رفيع المناصب ومنها الوزارة فإذا جاز للذمي أن يكون وزيرا في الدولة الإسلامية فدونها من باب أولى .

---

[1] العنكبوت : ٤٦

٢- حرية الإنسان

دعا الإسلام لأن يكون الإنسان حراً لا عبداً ، وعالج الإسلام الرق نفسياً وعملياً ، فقد جاء الإسلام وكان الرق منتشراً لدى العرب ولدى الشعوب الأخرى كالهنود واليونان والرومان والفرس ، ودعا إلى تحرير الأرقاء بطرق شتى ، وجفف منابع الرق حتى لا تكون طبقة جديدة من الأرقاء في المجتمع ٠ حتى استطاع القضاء عليه بعد أن تفهم العبيد معنى الحرية وكانوا قادرين لأن يعيشوا بكرامة واستقلالية واعتماد على النفس ٠ وتأكيداً لمعنى الحرية وتنفيراً من العبودية قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه " بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" ٠ وفي رواية "لم استعبدتم ٠٠٠" قال أمير المؤمنين هذه العبارة التاريخية لوالي مصر عمرو بن العاص ولابنه الذي اعتدى على القبطي في مصر ٠

٣- العدل في الإسلام

يدعو الإسلام إلى العدل في مجالات الحكم والقضاء والشهادة والفصل بين الناس والتعامل فيما بينهم ، وعلى المسلم أن يكون بعيداً عن الحيف والظلم والتجني على الآخرين ، فيقول الله سبحانه وتعالى " ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى " [١] ويقول عز وجل أيضاً " وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى " [٢] فلا بد من تحقيق العدل بين الناس جميعاً سواء كان الطرف الآخر قريباً أو كان بعيداً وسواء كان صديقاً أو كان عدواً ٠

---

[١] سورة المائدة الآية ٨
[٢] سورة الأنعام الآية ١٥٢

٤- العلم للجميع

لقد كرّم الله سبحانه وتعالى الإنسان بالتعليم قراءة وكتابة ، ولبيان مدى اهتمام الإسلام بالتعليم كانت أول الآيات نزولاً في القرآن الكريم حول الحث على القراءة والخط والكتابة فيقول عز وجل " اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم "[1] وبالرغم من أن التوحيد هو أصل في الإسلام ، إلا أن الله سبحانه وتعلى طالب الإنسان بالقراءة والخط والكتابة قبل مطالبته بالتوحيد والعقيدة والعبادة ، وذلك لبيان أهمية التعليم ، وأنه لا يكون التوحيد صحيحاً ولا سليماً دون التعليم ، لأن التعليم هو الذي يقود الإنسان إلى الحق والحقيقة وإلى اليقين والثبات ، وإلى المعرفة أو العرفان ، ويحسن في هذا المقام أن أورد تعقيباً للإمام الزمخشري في تفسيره (الكشاف) حول هذه الآيات الكريمة بقول :" فدلّ على كمال كرم الله سبحانه وتعالى للإنسان بأن علّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل الى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليلٌ إلا أمر بالقلم والخط لكفى به "[2] . وما من شك أن الكتابة ساهمت مساهمة كبيرة في حفظ القرآن الكريم كما حفظت كتب التوحيد والتفسير والفقه وسائر علوم الشريعة واللغة، فلولا التدوين والتوثيق لذهب بها

---

[1] سورة العلق الآيات من ١-٥

[2] تفسير الكشاف للزمخشري الجزء ٢ ص ٥٥٢ وتفسير النسفي الجزء ٤ ص ٣٦٨

الإعصار وصارت نسياً منسياً ، لأن ما كان يحفظ بالصدور قد ذهب بوفاة الحفاظ ، وبهذا ظهرت الحكمة الإلهية في الأمر بالكتابة بنص القرآن الكريم[1] .

وترشد هذه الآيات الكريمة إلى ما يأتي :

١- وجوب تعلم القراءة ، ومن المعلوم بداهة أن القراءة هي بداية المعرفة بالنسبة لكل إنسان .

٢- وجوب تعلم الخط والكتابة ، ومن المعلوم بداهة أيضاً أن الكتابة هي لنشر المعرفة بين الناس ، وأن القلم الأداة الفاعلة الفعّالة في التوثيق وحفظ المعرفة ونقلها للآخرين ، ولولا القلم لتعرضت أمور كثيرة إلى الضياع ، ومن المعلوم أيضاً أن الطباعة انبثقت عن فكرة الكتابة بالقلم .

٣- الحث على البحث والتقصي ، وذلك للتوسع في المعرفة وللوصول إلى أفكار جديدة ومكتشفات علمية حديثة متطورة .[2] ، بالإضافة إلى عشرات الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة في الحث على طلب العلم بشكل عام .

٥- الضرورات الخمس

لقد تكفل الإسلام توفير الضرورات الخمس لكل مواطن حتى يستطيع أن يعيش في مجتمع مستقر آمن ، وهذه الضرورات هي : العقل ، الدين ، النفس ، العرض (النسل) المال . فالدولة

---

[1] اليمين في القضاء الإسلامي للشيخ عكرمة صبري ص ٥٢

[2] التربية في الإسلام للشيخ عكرمة صبري ص٢ ، والعلم طريق الإيمان للشيخ عكرمة صبري ص٥ وبحث حول حق التعليم في الإسلام للشيخ عكرمة صبري ص٤

الإسلامية ملزمة في الحفاظ على هذه الضرورات للمواطنين جميعهم ، لذا فإن غير المسلم يشعر بالطمأنينة حين تتوفر له هذه الضرورات بما فيها النفس والدين.

٦- لا إكراه في الدين

لم يضق الإسلام ذرعاً بالأديان السابقة ، بل احتواها ووضع قواعد ومبادئ ثابتة لكيفية العلاقات والمعاملات مع غير المسلمين ن ودعا أول ما دعا الى التعامل مع اتباع هذه الديانات بالتسامح والمحبة بعيداً عن التعصب والمعاداة ، فمن مبادئ الإسلام في التسامح الديني :

١- إن الأنبياء والمرسلين أخوة لا تفاضل بينهم في النبوة والوحي ، والله سبحانه وتعالى يقول " لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " [١] ويقول في آية أخرى " لا نفرق بين أحد من رسله " [٢] ، ويقول في آية ثالثة " والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله عفواً رحيما" [٣] ، فالمسلم مطالب بالإيمان والاعتقاد بالأنبياء والمرسلين جميعهم وأنهم جميعاً موحى إليهم من الله سبحانه وتعالى ، مع الإشارة إلى أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يتميز عنهم لكونه آخر الأنبياء والمرسلين وأن رسالته شاملة لجميع مناحي الحياة كلها .

٢- لا يجوز الإكراه على العقيدة بل لا بد من الاقتناع والرضا ، والله عز وجل يقول " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " [٤] ، ويقول سبحانه وتعالى في آية

---

[١] سورة البقرة آيه ١٣٦
[٢] سورة البقرة آيه ٢٨٥
[٣] سورة النساء آيه ١٥١
[٤] سورة البقرة آيه ٢٥٦

أخرى " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " [1] ، وجاء الاستفهام هنا للإنكار .

٣- أن تكون المناقشة مع أصحاب الديانات بالحسنى ، فيقول عز وجل " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن " [2] ، ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكن ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" [3] .

٤- إن أماكن العبادة لأصحاب الديانات الأخرى محترمة ومصانة ولا يجوز الإعتداء عليها ، والله سبحانه وتعالى يقول " ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدم صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً " [4] . وعندما تسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفاتيح مدينة القدس من صفرونيوس بطريك الروم عام ١٥ هـ / ٦٣٦م ، رفض أن يصلي في كنيسة القيامة وصلى خارجها حتى لا يأتي المسلمون بعده ويدعون أحقيتهم بها ، وبنى مسجد عمر مقابل كنيسة القيامة رمزاً للتسامح والمحبة والعدالة . وعندما فتح المسلمون

---

[1] سورة يونس آيه ٩٩
[2] سورة العنكبوت آيه ٤٦
[3] سورة آل عمران آيه ٦٤
[4] سورة الحج آيه ٤٠

مدينة دمشق عام ١٤ هـ / ٦٣٥م ، تعهدوا لمواطنيها النصارى بإبقاء خمس عشرة كنيسة مع الحرية التامة في ممارسة عباداتهم[1] .

٧- التعددية

بما أن الإسلام آخر الديانات السماوية وأن الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم وآخر الأنبياء والمرسلين ، فإنه يعترف بوجودها ، لذا يقر بمبدأ التعددية في المجتمع ويتعامل معها منذ بدء نزول القرآن الكريم ، إلى أن اكتمل التشريع بحق غير المسلمين مع اكتمال نزول القرآن الكريم ، وأن التعامل استمر إلى يومنا هذا وإلى يوم الدين . فليس الأمر غريباً أو مستهجناً أن يتعايش المسلمون مع غير المسلمين ، لأن المسلمين مهيئون أصلاً لذلك ، وأن صورة التعامل معهم واضحة وجلية وصريحة من خلال نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة .

٨- التسامح

المسامحة هي المساهلة من التسهيل ، وسمح بمعنى : أعطى ، ويقال : في الحق مسمح أي متسع ، ولا مجال للباطل . ويعتبر التسامح من القيم الرفيعة والعناصر الإنسانية الإيجابية التي تقوي الروابط الاجتماعية بين الناس ، وتشيع فيهم الألفة والمودة والمحبة ، ومن أبسط صور المسامحة أن يسقط الشخص حقه تجاه غيره أو أن يطلب المعتدي المسامحة من المعتدى عليه ، فاستجاب الأخير لطلبه ، فالمسامح بعمله هذا قد بدّل الكراهية إلى المحبة ، والعداوة إلى الألفة .

---

[1] كتاب (تاريخ دمشق الكبير) لابن عساكر – القاسم علي بن الحسن ج ١ص ٢٤١ .

ويدعو ديننا الإسلامي إلى القيم الخلقية الرفيعة جميعها ، والتي منها العفو والمسامحة ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى " وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم " [١] ، ويقول عز وجل في آية أخرى " فاصفح الصفح الجميل " [٢] .

وقد يتوهم البعض بأن التسامح يأتي عن ضعف واستكانة ، وهذا توهم خاطئ ، فالتسامح ينبع من القوة والمقدرة ، وكما هو معلوم ومعروف أن العفو يكون عند المقدرة ، والله سبحانه وتعالى يقول " وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين " [٣] ، ويقول عز وجل في آية أخرى " ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور" [٤] . فالذي يصبر ويعفو ويصفح يكون قوي العزيمة ضابط الأعصاب كاتم الغيظ ، ويقول سبحانه وتعالى في صفات المتقين " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " [٥] . فالقرآن الكريم يشجع على العفو والصفح والتسامح فيما بين الناس ، وما من عقوبة تذكر في القرآن الكريم وتتعلق بحقوق العباد إلا ويرافقها مطلب رباني بالصلح والعفو والمسامحة ، فيقول سبحانه وتعالى " وليعفوا وليصفحوا "[٦] ، ويقول عز وجل في آية أخرى " وإن تصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم " ، وبهذا العفو والصفح والمغفرة تزاد الألفة بين الأفراد ، ويعم الاستقرار في المجتمع وتهدأ الفتن وتطفأ الأحقاد ويُنزع فتيل الانتقام .

---

[١] سورة التغابن آيه ١٤
[٢] سورة الحج آيه ٨٥
[٣] سورة الشورى آيه ٤٠
[٤] سورة الشورى آيه ٤٠
[٥] سورة آل عمران آيه ٣٤
[٦] سورة النور آيه ٢٢

ليس هذا فحسب ، بل يشجع الإسلام الناس على الإحسان لمن أساء إليهم ، ففي ذلك خطوتان : الخطوة الأولى ، إن الإنسان المعتدى عليه لا يقابل الإساءة بالإساءة ، أي لا يعتدي على من اعتدى عليه ، والخطوة الثانية : إن الإنسان يحسن لمن أساء إليه فيقول سبحانه وتعالى " ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم " [1] . وترشد هذه الآيات الكريمة إلى قمة التسامح والمحبة، ولا يصل إلى هذه القمة إلا الصابرون وأصحاب الثواب العظيم والإيمان المتين .

٩- عقد الذمة

يحسن في هذه العجالة أن أتناول عقد الذمة بإيجاز لبيان الهدف منه ولأزيل الغشاوة التي تحيط هذا العقد لدى البعض . جرى العرف الإسلامي على إطلاق اسم " أهل الذمة " على المواطنين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية ، وأن عقد الذمة يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم وتمتعهم بأداء شعائر دينهم ، وتعهد الدولة بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم مقابل أخذ الجزية منهم والتزامهم أحكام الإسلام في غير ما يتصل بعقائدهم . وأن الذمة تعني الأمان والعهد والضمان والكفالة . ولقد نعم أهل الذمة في ظل الدولة الإسلامية بحقوق يعجز أي نظام بشري مهما بلغ من الرقي والحضارة والتمدن ، أن يكفلها للرعايا المخالفين له في دينه ، وقد رفع الإسلام شعار (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وهذا الشعار يمثل القاعدة الإستراتيجية في التعامل مع غير المسلمين .

---

[1] سورة حم السجدة (فصلت) الآيات ٣٤-٣٦

وقد توالت وصايا الرسول مع الله عليه وسلم بأهل الذمة ، وتكررت أوامره بالإحسان إليهم والبر بهم ، كما تكررت نواهيه عن إيذائهم وسلب حقوقهم ، فيقول عليه الصلاة والسلام " ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " [1] . وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم بأقباط مصر فقال " إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً " [2] .

وفي ظل هذه المعاني الإسلامية الكريمة والهدي النبوي الشريف ، سار الخلفاء الراشدون وولاة الأمور وقادة الفتوح الإسلامية فعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة وأحاطوهم بالرعاية والعناية ، ففي عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه كتاب الصلح لأهل الحيرة في العراق جاء فيه (... وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين ، وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام) [3] .

وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، رغم أنه أصيب بضربة رجل من أهل الذمة، ألا وهو أبو لؤلؤة المجوسي ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول " أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم، وان يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفون فوق طاقتهم " [4] . وحصل أثناء خلافته أن شاهد شيخاً كبيراً

---

[1] رواه أبو داود عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم (سنن أبي داود ج٣ ص ١٧١ رقم ٣٠٥٢ باب الخروج والإمارة .

[2] سند الإمام أحمد ج٥ ص ١٧٤

[3] كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٥٥ ـ ١٥٦

[4] كتاب ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ج٥ ص ١٦٢ والسنن الكبرى للبيهقي ج٩ص ٢٠٦

ضريراً يسأل الناس فاستوضح منه ، فإذا هو يهودي فقال له عمر: " فما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، فقال له : انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم"٠ " إنما الصدقات للفقراء والمساكين " [١] ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه " [٢] ٠

وتابع الأمويون سياسة حسن معاملة أهل الذمة ، فتولى أهل الذمة كثيراً من المناصب الإدارية في الدولة ، فقد اعتمد الأمويون عليهم في شؤون الدواوين ، حيث عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان بالإدارة المالية الى أسرة مسيحية ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة ، وهي أسرة سرجون بن منصور الرومي [٣] ٠ واستمر تعيين الأكفياء من أهل الذمة في وظائف الدولة رغم تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان الذي بنيت في عهده كنيسة جميله في مدينة الرها [٤] ٠وكذلك في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، فإن الوالي خالد بن عبد الله القسري ، والي الكوفة ، قد أكثر من الاستعانة بالنصارى واستخدمهم في الوظائف وبنى لهم البيع والكنائس [٥] ٠

ويصف المستشرق ول ديورانت حال أهل الذمة في العصر الأموي حيث يقول " لقد كان أهل الذمة المسيحيون واليهود يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد

---

[١] سورة التوبة آيه ٦٠
[٢] كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٣٦
[٣] كتاب تاريخ خليفة بن خياط ج١ ص ٢٧٦
[٤] كتاب الدعوة الى الإسلام للمستشرق توماس ارنولد ص ٨٥
[٥] كتاب تاريخ الطبري ج٨ ص ٢٤٣

المسيحية في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم "[1] .

وهكذا عاش غير المسلمين مع المسلمين في جو من المحبة والتعاون والاحترام المتبادل ، وعبر التاريخ ، ولا بد من التنويه إلى أن المسيحيين في فلسطين بخاصة وفي البلاد العربية بعامة قد وقفوا إلى جانب المسلمين ضد المحتلين الفرنجة الذين أعلنوها حربا صليبية تسترا بالدين .

إن النظام الإسلامي هو نظام شامل ، وضح العلاقات بين الناس وخالقهم والعلاقات بين الناس فيما بينهم ، وكذلك بين المسلمين وغير المسلمين ، وهذا الدين العظيم هو الذي أعطى الحقوق لغير المسلمين في حين لا يوجد أي نظام آخر يعطي الحقوق لمن يختلف معهم في الديانة بل إن الاضطهاد الديني سابقا ولاحقا في الدول غير الإسلامية هو عنيف ودموي ضد المسلمين، ومع ذلك فإن موقفنا ثابت لا يتغير وينطلق من أحكام الشريعة الإسلامية السمحة ، ولا يكون موقفنا رد فعل لتصرفات الآخرين في الشرق أو في الغرب .

فالإسلام عادل ورحيم ومتسامح كان ولا يزال، وعلى أتباعه أن يكونوا أمناء في تنفيذ أحكامه وترجمتها على أرض الواقع .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

[1] كتاب قصة الحضارة تأليف المستشرق ول ديورانت ج٢ ص ١٣٠

المقالة الثالثة عشرة

نظرة المسيحيين للآخرين

الأب بيترمدروس*

الآخر هو غير الأنا وال " نحن " ، الآخر هو من كان من غير ديننا ومن غير وطننا ومن غير عشيرتنا٠ هو حسب معجم الكتاب المقدس " القريب " ، ومن " الأقارب " من كان أيضاً عدواً (" وأعداء الإنسان أهل بيته " أحياناً كما قال السيد المسيح) ٠

السيد المسيح لا يميز بين البشر وهو الحمل البريء الذي – حسب قول سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي – " الحمل الذي فدانا من كل أمّة وقبيلة وشعب ولسان " ٠ لذا سنتكلم عن موقف المسيحية من " القريب" الذي هو مبدئياً كل إنسان ، والموقف أيضاً من " العدوّ" ٠ قال السيد المسيح مستشهداً بالعهد القديم : " أحبب قريبك حبّك لنفسك " وزاد يسوع :" أحبّوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا " ٠

الوصية السيدية : " أحبب قريبك حبّك لنفسك :

"أحبب " : يقابل هذا الفعل في العبرية فعل " أهاب " وفي الآرامية " راحام " ٠ أما في النص اليوناني فقد ورد الفعل المضارع بمعنى الأمر : " أغابيسيس " ، أي "ستحبّ " بمعنى" أحبب" ٠ أي " حب " هو مطلوب ؟ ما من شك أن الله لا يسألنا أن نحب قريبنا – ولا عدوّنا –

---

* دكتوراه في الكتاب المقدس – بيت لحم

حبّا عاطفياً ، بل محبة إرادية يعبر عنها الفعل اليوناني " أغاباو" ، وقوامها الرغبة في خير الناس- من أقارب وأباعد، من أصدقاء وأعداء · ويعبر بعض اللاهوتيين بين محبتين : المحبة العاطفية الفياضة الجياشة الموصوفة بقوتها واندفاعها وحساسيتها ومشاعرها كالمحبة التي يكنها المرء لأولاده مثلاً وتدعى المحبة " الكثيفة الشديدة " Intensive Love والمحبة الوجدانية الإرادية المبنية على العقل لا على العاطفة ، وعلى الإرادة لا على الشعور وعلى وعي الواجب لا على الأهواء، وتسمى Estimative Love، أي تقديرية ، ومن المنطقي ألا يطلب منا الله أن نحب قريبنا – ولا عدوّنا – محبة عاطفية ، بل محبة وجدانية إرادية ، لا محبة شديدة عارمة غامرة ، بل محبة تقديرية ·

ويكتب الأسقف فلتون شين Fulton Sheen أنه علينا أن " نحب " الناس لا محبة نابعة من شعور بالإعجاب أو الرضى أو الإستحسان – والتي يشير اليها الفعل الإنكليزي " لايك " To Like– ، بل محبة وجدانية عقلانية يعبر عنها فعل To Love ·وبالتالي ، علي أن أحب فلاناً وإن كان لا يعجبني وإن كنت أجده ثقيل الظل ، فأودّه وإن كان لا يروق لي
" I love him although I do not like him "

" أحبب قريبك "

هذا هو النص المستشهد به من سفر الأحبار أو (اللاويين ١٨:١٩) : " أحبب قريبك حبك لنفسك " (في العبرية : " وأهابتا لرعيخا كموخا") · ويختصر يسوع هذا القسم من الآية ليجعلها تقابل تماماً – أي بجزئين – ما يلي: أحبب قريبك ، أبغض عدوك · اللفظة العبرية هي " رعيه " التي لا تختلف عن " روعيه " إلا بالضمة ، قال " قريب " هو أصلاً الزميل في الرعاية، أي

الراعي الزميل ، أما في الآرامية فاللفظة هي " قربب " (كالعربية) " وفي اليونانية " بليسيون " تعني " قريب " ٠

من " القريب " بحسب سفر (الأحبار : ١٨:١٩) ؟

كان " القريب " اليهودي" من أبناء شعبك "يا إسرائيل ، أي المنتمي إلى أسرتك وعشيرتك وأمتك وديانتك، ولعل اليهود حسبوا ابناء قومهم إخوة يجب التضامن معهم وكأن شعارهم " أنصر أخاك إن كان ظالماً أو مظلوما"٠

فالمطلوب حب اليهودي وعدم ظلمه وعدم سلبه (أح ١٣:١٩) ويجب الحكم بالعدل له (الآية ١٥) بغير نميمه ولا اتهامات ولا سيما الخطيرة منها (الآيه ١٦) ، وعتابه بدل إضمار الكراهية له (الآيه ١٧) ، ف" العتاب صابون القلوب "كما تقول العامة ، والمطلوب أيضاً عدم الإنتقام من ال "قريب " وعدم الحقد عليه "(الآيه ١٨أ)٠

" النغل " (تث ٣:٢٣ وزك ٦:٩)

الكلمة العبرية نادرة لا ترد إلا في الموضعين المذكورين من سفري تثنية الاشتراع وزكريا ، وهي "ممزر " ، أي من فسد نسبه ٠ ويفهم من هذه الكلمة عادة ، وفقاً للتفسير اليهودي ، أنها تعني المتحدرين من زيجات بين يهود وغرباء (راجع نح ٢٣:١٣) حيث يحسبون غرباء أجانب ، وقد قام نحميا بتنحيتهم) ٠ فهؤلاء لم يكونوا موضع محبة ٠ ولكن يبدو أن الشريعة اليهودية تلحق الولد بوالدته وتحسب أبناء المرأة اليهودية يهوداً ٠

" التنزيل الغريب " المشبه ب " المواطن القريب "

في (أح ١٩:٢٣ – ٣٤ وتث ١٠:١٩) ، يذكر التنزيل الأجنبي الوثني الذي يقيم في ديار اليهود وأراضيهم ، كان يشبه بهم وكأنه " منهم وفيهم " بالاعتماد على حق الجار وعلى نوع من التبني ، من باب احترام الضيق ومن باب الفائدة العملية في حضور ضيف أو جار كريم ، كما يقول المثل العربي العامي: " جارك القريب ولا أخوك البعيد " . وسأل الله اليهود أن لا يلقطوا لقاط كرومهم ، بل أن يتركوها للمسكين والنزيل" (أح ١٩:١٠ وتث ١٩:٢٤–٢٠) . يفرح المرء عندما يجد في العهد القديم مثل هذه الأريحية مع النزلاء وهذا الترحيب بالغرباء .

هذا نص (أح ١٩:٣٣–٣٤)

" وإذا نزل بكم (أي بينكم) نزيل في أرضكم فلا تظلموه وليكن عندكم النزل المقيم فيما بينكم كابن بلدكم ، تحبه (أي أحببه) حبك لنفسك ، لأنكم كنتم نزلاء في أرض مصر : أنا الرب إلهكم".

يذكر النص سبباً إضافياً لحسن ضيافة الغرباء ومعاملتهم ، هو أن الشعب العبري نفسه كان نزيلاً غريباً – ذليلاً معذباً – في أرض العبودية مصر . اللفظة العبرية المستخدمة ل " نزيل " هي " جر " ول " مقيم " " جار" (تشبه العربية " جار" ، وليس من اللائق أن " يجور المرء على الجار " ، مع أن " الجار جار ولو جار ") .

ونقرأ في (تث ١٠ ك ١٩)

أحبو الترِيل ، فإنكم كنتم نزلاء في أرض مصر " ٠ وفي (تث ١٤:٢٤ و ١٧) ، ينهى الله الشعب اليهوديّ عن "استغلال " الفقراء والترلاء ويأمرهم بدفع أجرتهم قبل أن تغيب الشمس ولا يرضى أن يهضم أحد اليهود " حق نزيل يتيم "٠ إلا أن الربانيين سرعان ما حددوا هوية ال "جر "، أي "الترِيل " وقصروها على الوثني الدخيل الى اليهودية والمختون ، بحيث إن فعل " هتغيير " أو " هتجير " أصبح يعنى " اهتدى الى اليهودية " (راجع شتراك وبيلربك في مؤلفهما " تفسير العهد الجديد بالتلمود والمدراش ") ٠

من " القريب " بحسب يسوع ؟

يشبه هذا السؤال إلى حد بعيد سؤال عالم الشريعة الذي وجهه الى المعلم يسوع : " ومن قريبي ؟" (لوقا ١٠:٢٩)٠ ويجيب المسيح بمثل السامري الرحيم (الآيات ٣٠-٣٧) مقترحاً ، كنموذج للمحبة والأخوّة الشاملتين، سامريا هو ألد أعداء اليهود الذين كانوا يحسبون السامريين غرباء وإخوة كذبة لاختلاط الدم اليهودي فيهم بدماء بابليين من ثماني مدن ! وعليه يستنتج المرء من هذا المثل أن قريبي هو كل إنسان ، بما فيه السامري والعدو والغريب ٠ وكما أصبح السامري الكريه المنبوذ " قريب " الرجل اليهودي الذي وقع بين اللصوص ، على اليهودي أن يصير" قريب " السامري٠

وفي لغة السيد المسيح ورسله وتلاميذه ، القريب هو كل إنسان ، وجميع البشر هم اخوة لنا وأخوات يجب أن نحبهم ، ولعل هذا هو الدّين الوحيد الذي نحن به مدينون : " لا يكونن عليكم لأحد دين إلا حب بعضكم لبعض٠ فمن أحب غيره أتم الشريعة ، فإن الوصايا التي تقول : " لا

تزن، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشتـه " وسواها من الوصايا ، مجتمعة في هـذه الكلمـة : " أحبـب قريبك حبك لنفسك" ٠ فالمحبة لا تزل بالقريب شراً ، فالمحبة هي كمال الشريعة (روم ١٣:٨-١٠) ٠ وهذا ما يذكرنا بكلام السيد المسيح القائل ، إن الشريعة كلها والأنبياء مرتبطة بمحبتنا لله وللقريب ٠ (راجع متّى ١٩ : ١٧ -١٩ و ٢٢ : ٣٧ - ٤٠) ٠

وإن كان البشر " أباعد " فقد أصبحوا جميعهم " أقارب (أو أقرباء) بدم السيد المسيح ٠ فإنه سلامنا ، فقد جعل الجماعتين (أي اليهود والأمم) جماعة واحدة وهدم في جسده الحاجز الذي يفصل بينهما ، أي العداوة، ويصلح بينها وبين الله " (أف ٢ : ١٣ - ١٦) ٠ إن المخلص الذي فدانا " من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة " (رؤ ٥ : ٩) ، إذ أزال كل تمييز عنصري مبني على العرق أو الجنسية أو اللون أو اللغة ، بحيث " ليس هناك يهودي ولا يوناني ، وليس هناك عبد أو حر ، وليس هناك ذكر أو أنثى ، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع ، فإذا كنتم للمسيح فأنتم نسل إبراهيم وانتم الورثة وفقاً للوعد " (غل ٣ : ٢٨ : ٢٩) ٠

في نظر المسيح والمسيحية ، كل إنسان " قريبي " وأخي ٠ كتب يوحنا الرسول في رسالته الأولى (٤ : ٢٠) : " إذ قال أحد : " إني أحب الله " وهو يبغض أخاه كان كاذباً، لأن الذي لا يحب أخاه وهو يراه لا يقدر أن يحب الله وهو لا يراه " ٠

يمكن الاستنتاج أن العقلية المسيحية تحسب كل الناس " أقارب " و " أقرباء " وتعتقد أن " ما من غريب إلا الشيطان " ٠

" وأبغض عدوك "

ما وردت في العهد القديم – ولا في العهد الجديد – وصية تأمر بكراهية الأعداء ! لذا لا يستشهد يسوع هنا بنص من الكتاب المقدس ، بل بقول شعبي أو بتفسير أجمع عليه الكتبة والفريسيون والربانيون ، على الأقل في زمانه. " أبغض عدوك " في النص اليوناني "ستبغض عدوك " – حيث يفيد المضارع الأمر ، والفعل هو " ميسو" . أما في الآرامية والعبرية فالفعل " سنا " يقابله في العربية السليمة فعل " شنا " ، أي أبغض (راجع "لسان العرب" لابن منظور ، المجلد الرابع عشر، ص ٤٤٤–٤٤٥) . ولعل فعل " شنئ" في اللهجة العامية الفلسطينية عند أهل القدس القدماء يؤدي هذا المعنى (كقولك " شنيت فلاناً " مع تسكين الشين) مع فكرة الاشمئزاز والسأم.

الوصية السيدية الفريدة : أحبوا أعدائكم "

(متى ٥ : ٤٤)

يأتي الآن تحليل أمر المسيح بمحبة الأعداء ، وذلك في إطار إنجيل متى الفصل الخامس و ٦ : ٢٧ –٣٥ .

أ– أحبوا أعداءكم

" أمّا أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم " . من هذا الذي يقول أنا ؟ إنه يضع نفسه وكأنه على طرفي نقيض مع شريعة موسى من جهة وآراء الناس وأقوالهم من جهة أخرى . في الواقع يبدو لأول نظرة أنه يناقض – حاشى وكلا– العزة الإلهية التي هي أساس الشريعة . فالله هو المشترع وموسى

هو كليم الله الذي نقل إلى الناس شريعته تعالى . لا معنى لموقف يسوع إلا إذا كان هو نفسه ، أي المعلم الناصري ، تجسداً لكلمة الله .

يورد إنجيل لوقا أن يسوع يتوجه بشكل مباشر الى سامعيه بقوله : " وأما أنتم أيها السامعون فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ... " في هذا الأسلوب قوة وحزم وصراحة ، ولكنه موجه طبعاً لا إلى السامعين ليسوع قبل ألفي سنة فقط ، بل إلى كل من سيؤمن بيسوع في كل زمان ومكان .

" أحبوا أعداءكم "

كتب الأب دانيس بوزي (" الإنجيل بحسب متى " في سلسلة بيرو – كلامر المجلد التاسع ، ص ٧٠): " لو لم نجد في الإنجيل إلا هذه العبارة ، لكانت كافية كي ترفع يسوع عالياً فوق موسى وجميع فلاسفة العالم القديم . فيا لها من قوة عظيمة كانت مطلوبة لتعاوم تيار الكراهية البغيض وتسمو عليه ! يا له من ذكاء خارق يفتح الآفاق الجديدة ! وخصوصاً يا له من قلب عظيم يغمره ذلك الحب العميم ! " ويعرب البطريرك شنوده الثالث عن هذه الفكرة ذاتها مبيناً أن هاتين الكلمتين " احبوا أعداءكم " كافيتان وحدهما لإظهار سمو المسيحية .

أما الأب لاغرانج (في كتابه " إنجيل يسوع المسيح " ص ٣٤٧) فإنه يقول : " يسوع هو أول من فهم ، بمعنى التضامن بين جميع الناس ، نصوص التوراة ، وهو أول من وهب للمبدأ النظري (محبة القريب وعدم إلحاق الضرر بالعدو) حياة وخصباً بعد أن كان ذلك المبدأ حبراً على ورق".

إذا كان عدوي صالحاً ، وجب عليّ ، لا الاعتراف بصلاحه فقط ، بل السعي الى مصالحته. فإن لم أحبب عدوي الصالح (راجع أيضاً متى ٥ : ٢٣) وإن لم أترك قرباني على المذبح، فلا سبيل إلى إصلاحي . وإذا كان عدوي صالحاً ولم أحببه فلا مجال لإصلاحه ولا

لمصالحته · ويوصي يسوع بأن يصالح المرء " أخاه" (الذي في هذه الحالة يكون قد تحول إلى غريم له أو عدو) وبعد ذلك أن يأتي المرء ويقدم قربانه (راجع متى ٥ : ٢٣)·

لا حاجة إلى التعليق على صعوبة حب الأعداء · ولكن في هـذه الصعوبة سمواً أخلاقياً وروحياً وإنسانياً يجب الوصول إليه وإلا دخلت البشرية دوامة العنف من غير أمل بالخروج منها ، كما نبه البابا الراحل بولس السادس : " إن لم تقض البشرية على الحرب ، ستقضي الحرب على البشرية " · تأتي وصية يسوع بمحبة الأعداء في جو يهودي كان لا يحسب قريباً إلا اليهود (راجع شتراك وبيلربيك في كتابهما " العهد الجديد : تفسير بحسب التلمود والمداراش ") مع أن " فكرة المواطنة توسعت بعد انحطاط المدن اليونانية الذي تبع فتوحات الإسكندر ، وبتأثير من الفلاسفة الرواقيين " (الأب لاغرانج ، المؤلف المذكور أعلاه ص ٣٤٦) · غير أن ذلك الإتساع في الآفاق بقي ، على ما يبدو ، غريبا عن المجتمع اليهودي ·

في زمن يسوع كان معروفا بغض اليهود للسامريين وعدم مخالطتهم لهم (يوحنا ٤ : ٩) إلا أن يسوع ، بأقواله وأعماله ، أثبت محبته للسامريين وإحسانه اليهم واتخذ احدهم نموذجا لمحبة القريب حتى العدو (لوقا ١٠ : ٢٩ – ٣٧) · وتفنن القديس لوقا ، " كاتب حنان المسيح " ، كما قال الشاعر العظيم دانتيه ، في إظهار محبة يسوع للسامريين : (٩ : ٥١ –٥٦ ثم ١٧ : ١١–١٩ ثم رسل ٨ : ٤ –٢٥) ·

أما توصية يسوع لتلاميذه في متى ١٠: ٥ : " لا تسلكوا طريقا إلى الوثنيين ولا تدخلوا مدينة للسامريين " فكانت في أول مرحلة من توجيهاته للرسل الذين لم يكونوا مكتملي المعرفة ولا الإستعداد ولم يكن روح القدس قد حل عليهم · لكن يسوع أمرهم قبل صعوده : " إذهبوا وتلمذوا

جميع الأمم. (متى ٢٨ : ١٩) " إكرزوا بالإنجيل لكل خليقة " (مر ١٦ : ١٥) . من ناحية أخرى كانت جماعة الأسينيين في قمران بقرب البحر الميت تعلم البغض للأشرار . ورد بالحرف الواحد في قانونها (١ قمران س ١ : ٩ –١٠): " ليحبب المرء أبناء النور بحسب المصير الذي حفظه لهم مخطط الله ، وليكره جميع أبناء الظلام على مقدار وعيه لحكم انتقام الله منهم " .

إن هذه المفارقة الجوهرية ، أو الوصية الأسينسية بالكراهية للأشرار ، مع الإحتقار للخطأة ولذوي العاهات ورفضهم التام ، كافية للدلالة على أن المسيحية والأسينسة على طرفي نقيض وأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان . فما من شركة بين المعلم الجليلي الناصري الذي كان يأكل مع العشارين والخطأة ويشفي ذوي العاهات ، ومعلم الصلاح " الأسيني المترفع عن ذوي الآثام والأسقام.

ومهما أطال المرء البحث في كتابات الربانيين اليهود ، لا يجد من يص يوازي أو يشابه وصية يسوع السامية : " أحبوا أعداءكم " (راجع كتاب " الأناجيل " لبرباليو وفابرس وماجوني ، مدينة أسيزي ١٩٧٨ ،ص ١٧٩). في الحقيقة ، " إن يسوع هو أول من علم البشرية أن ترى أن كل إنسان قريب لها وأن تحب كل انسان " بما فيه العدو (راجع الأب دونيس بوزي في كتابه عن أمثال يسوع، ص ٦٢٢–٦٢٨) .

" صلوا من أجل مضطهديكم " ، " أحسنوا إلى مبغضيكم " : تتبع هذ التوصيات أمر المحبة للأعداء بحيث يجب على المسيحي أن يصلي بمحبة من أجل مضطهديه وأن يحسن بمودة الى مبغضيه (راجع لوقا ٦ : ٢٧) . نفهم من كلام يسوع أن " الأعداء " هم مضطهدون للمسيحي أو

للجماعة المسيحة الأولى ، وعليه فهم من أعداء الله أيضاً . عندما قال يسوع : أحسنوا إلى " أعداء الله والدين ".ليس وارداً في المسيحية أي بغض لأعداء الله.

ولم يكتف يسوع بالكلام وبالتوصية ، بل كان بنفسه قدوة صالحة ، إذ أحب أعداءه الذين دبروا له المكائد وصلبوه، وصلى من أجلهم وهو معلق على خشبة الصليب ، وهكذا بلغ قمة البطولة والتسامح والمحبة (لوقا ٢٣ : ٣٤) . وفي خطى المسيح سار تلميذه إسطفانس الذي صلى أيضا من أجل راجميه (أعمال الرسل ٧ : ٥٤ –٦٠) .

أتى يسوع بتفاصيل أخرى عن هذه المحبة للأعداء

" باركو لأعنيكم ، صلوا من أجل المفترين الكذب عليكم " (لوقا ٦ : ٢٨) ، أي ردوا على الشر بالخير واغلبوا الشر بالخير . كتب الأب الفريد دوران (" الإنجيل كما رواه القديس متى " ص ٩٤ وتابع) ، " الرد على الخير بالشر شيطاني ، والرد على الخير بالخير إنساني ، والرد على الشر بالخير رباني " .

يظهر من إنجيل لوقا أن يسوع يطلب حتى أن نشرك أعداءنا في ممتلكاتنا وأموالنا : " ولكن أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا غير راجين " (لوقا ٦ : ٣٥)

ب– سببان وجيهات لن نحب الأعداء

(لوقا ٦ " ٣٢– ٣٤ ومتى ٥ : ٤٦ – ٤٧)

١– عدم حب الأعداء موقف الآثمين والوثنيين

يفسر يسوع لتلاميذه – لنا أجمعين – أن لا فضل لنا ولا أجر ، إن :

- أحببنا فقط من يحبنا
- أحسنا فقط على من يحسن الينا
- سلمنا فقط إلى من يسلم علينا ، أي إخواننا وأقاربنا وأصدقائنا ٠
- أقرضنا من نرجو أن نستوفي منه ٠

كل هذه يعملها الوثنيون وجابوا الضرائب الذين كانوا يحسبون خطأة علنيين لتعاونهم مع المحتل الروماني واختلاسهم أموال الناس ٠ ومع أن يسوع كان يصادقهم ويلاطفهم ويعاشرهم ويؤاكلهم ٠ غير أنه لم يوافق قط على أعمالهم الشريرة ، راجع (لوقا ١٩ : ١ –١٠)

٢– السبب الوجيه الأكبر لحب أعدائنا هو ضرورة تشبهنا بأبينا السماوي الذي يحسن إلى جميع الناس و " يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل المطر على الأبرار والفجار " (متى ٥ : ٤٥) ، إنه " العلي الذي يلطف بناكري الجميل والأشرار " (لوقا ٦ : ٣٥) ٠ لذا يجب على المؤمنين بيسوع أن يكونوا " أبناء العلي"، " ومن شابه أباه لا يكون ظالما " ٠

إن الله لا يميز بين الناس أبنائه ٠ لذا طلب يسوع محبة الأعداء في إطار أبوة الله لجميع الناس وإطار بنوة جميع الناس نحو الله ، بحيث يكونون جميعهم إخوة ، إن الفكرة المسيحية التي تجعل الناس يدعون الله أباهم السماووي امتداد للفكرة اليهودية التي كانت تحسب الشعب العبري وحده ابنا لله٠ إلا أن المسيحية تتجاوزها وتسمو عليها وتوسع مفهوم الأبوة الإلهية إلى جميع بني البشر ٠

بما أن المؤمنين هم من أبناء الله بالتبني فعليهم " أن يقتدوا بالله كأبناء أحباء وأن يسيروا في المحبة سيرة المسيح الذي احبهم وبذل نفسه من أجلهم " ومن أجل جميع الناس (أفسس ٥ : ١–٢

و ٨) وقد كتب القديس يوحنا في رسالته الأولى من أحب فهو مولود من الله (٣ : ١٠ و ١٤ – ١٥ ثم ٤ : ٧ – ٨) ٠

محبة الأعداء هي تشبه بحلم الله ورحمته وسعة آفاقه مع الخطأة الذين هم في حاجة الى حنان يشجعهم على التوبة ، كرأفة الأب بابنه الضال (لوقا ١٥) ، أما التشبه بالله لأننا أبناء فإنه يتخذ، بحسب بشارتي متى ولوقا ، وجهين : أولهما الكمال كما أن الله كامل (بحسب متى) وثانيهما والرحمة كما أن الله رحيم (بحسب لوقا : ٦ : ٣٥ – ٣٦) ٠

محبتنا الأعداء وسيلة لنصبح كاملين كما أن أبانا السماوي كامل

لم يرد في العهد القديم وصف لله بأنه كامل ، بل ورد : "كونوا قديسين كما أنا قدوس " ٠ (أح ١٩ : ٢) ولقد أتت كلمة "كامل " في وصية الله للشعب ، في صيغة المفرد باستخدام لفظة " تميم " العبرية ، أي الكامل التقيه ، في (تث ١٨ : ١٣) "كن كاملا لدى الرب الهك " ٠

المحبة هي " رباط الكمال " (قول ٣ : ١٤) ٠ وفي المحبة لله من جهة وللقريب من جهة أخرى ، بما فيه العدو ، كمال الشريعة الذي يجعل الإنسان كاملا (مزمور ١١٩ (١١٨) ٠

١– وهذا الوداد الشامل الذي يكون به الإنسان كاملا يأتي من أنه يأخذ بمجامع القلب فيضم جميع الناس في ذراع المحبة على مثال الإله المحب للبشر أجمعين ٠ ولكن يبدو أن كلمة "كمال " تخيف البشر ، وقد لا تخلو من الإدعاء إذا نسبها أحد الى نفسه (مزمور ١١٩ (١١٨) : ٩٦)٠ وربما لهذا السبب نقل إلينا القديس لوقا صفة أخرى هي اللطف ومعها الرحمة كميزتين للمؤمنين الضعفاء الذين يحاولون أن يحبو أعداءهم٠ إلا أن إصرار يسوع على أن يقتدي اتباعه بالأب السماوي الكامل اللطيف الرحيم هو تشجيع دائم لكي يتقدموا باستمرار

في سلم الفضائل ، والمحبة هي رباطها وخلاصتها · والمحبة الشاملة هي "كمال"، بخلاف الكراهية التي هي نقص · وكما سبق القول ، محبة الأعداء قسم من كمال العهد الجديد · أما معاداة الأعداء فهي من نقص العهد القديم في إطار الضعف البشري وفي إطار وحي كلمة الله التدريجي الى شعب ناقص داعي الله مقدرته وإمكاناته في كل مرحلة من تاريخ الخلاص (راجع الرسالة الراعوية ٤ للبطريرك ميشيل صباح " قراءة الكتاب المقدس اليوم في أرض الكتاب المقدس " ص ١٤ –١٥) ·

محبتنا الأعداء وسيلة للتشبه بالآب السماوي اللطيف الرحيم (راجع لو ٦ : ٣٥–٣٦)

إن الكلمة اليونانية التي يستخدمها الإنجيلي لوقا بمعنى لطيف هي " خرستوس" ، وهي تشبه الى حد بعيد لفظة " خرستوس " التي تعني المسيح · فالأب السماوي لطيف ، ومطلوب منا أن يكون أحدنا لطيفا مع الآخر (راجع أفسس ٤ : ٣٢) · وتشير اللفظة أيضا الى دماثة الأخلاق (راجع ١ قور ١٥:٣٢) · وصف بها السيد المسيح نيره – بحسب إنجيل (متى ١١:٣٠) ، بأنه لطيف · وتفيد الصفة " خرستوس " الحلاوة والعذوبة والطيبة : " إذ ذقتم ما أطيب الرب " (١ بط٢:٣) وعن الخمر (لوقا ٥ : ٣٩)

أما اللفظة الأخرى التي يستخدمها لوقا البشير فهي " أويكتيرمون " ، أي " رحيم "، إن محبتنا الأعداء ومسامحتنا للمذنبين إلينا وإحساننا الى المسيئين تقربنا من التشبه بالأب السماوي العطوف اللطيف · ولا ترد هذه الصفة إلا مرتين في العهد الجديد ، هنا في (لوقا ٦ : ٣٦ ويعقوب

٥ : ١١) حيث توصف رحمة الله وكأنها مستمدة من " رحم " أو " إحشاء والديه" ملؤها الحنان والرأفة ٠

إن محبتنا الأعداء تجعلنا شبيهين بمحبة الله لنا : إذ كنا أعداء له بالخطيئة خصنا مع ذلك بوداده وخلصنا ، لا لأعمال بر قمنا بها، بل بفضل حنانه ومحبته لجميع الناس (راجع طي ٣ : ٥)٠ وما رحمة الله إلا نتيجة لحكمته تعالى وطبيعته التي هي محبة وعدالته التي تعلم ضعف الناس وميلهم الى الشر ، كما قال صاحب المزامير (١٠٣(١٠٢) : ١٣ –١٦ وأيضا ٨ – ١٢) ٠

"كرأفة الوالد بأبنائه ، يرأف الرب بأتقيائه ، لأنه عارف بما جبلنا ويذكر أننا تراب ٠ الإنسان مثل العشب أيامه ، وإنما يزهر كزهر الحقول ، تهب عليه ريح فيزول ولا يعود يعرف مقامه ، غير أن وداد الرب لخائفيه أزلي يدوم أبد الآبدين وكرمه يبقى لأبناء البنين " ٠

إن الأب السماوي يشفق على الإنسان الضعيف المعرض للموت ، وعلى هذا الأساس يجدر بنا أن نشفق على كل إنسان على الأقل لسببين أولهما أنه معرض للموت وثانيهما أنه معرض للخطيئة في المزمور نفسه ، ترد أيضا الآيات المؤثرة الآتية :

" الرب حنان رحيم ودود محب حليم ، لا يخاصم سرمدا ولا يظل أبدا حاقدا ٠ لم يعاملنا بحسب خطايانا ولم يجازنا بقدر آثامنا ٠ كما تعلو السماء عن الأرض ، مودته سمت للمتقين ٠ كبعد المشرق عن المغرب ، أبعد عنا ذنوبنا : (٨–١٢) ٠

وإذا كان الله في العهد القديم قد اختار شعبا واحدا ، فقد كان ذلك بفضل من رحمته تعالى عليهم ونعمة مجانية لم يستأهلوها ٠ لذلك لم يكونوا على حق إذا احتقر بعضهم الشعوب الأخرى أو كرهها (راجع رسالة البطريرك صباح ٤ ص ٤٣–٤٦) ٠

محبتنا للأعداء اشتراك ضئيل في سمو الخالق العظيم الذي لا تهز كيانه إساءات الناس اليه تعالى، بل يفهم تعالى مصدرها إما عن خبث أو عن ضعف أو عن كلا الأمرين معا ، ويصفح تعالى للتائبين · أما الذين لا يتوبون فإن محبة الله لا تزال تشملهم ، وإن كانوا لها رافضين ·

ج- سبب ثالث وجيه لأن نحب أعداءنا

نتهل هذه الفكرة من ينبوع الإنجيل الطاهر (متى ٢٥-٣٥ --٤٥) حيث يقول المسيح إنه في كل إنسان ، بحيث إن ما نفعله لأي إنسان - خيرا كان أم شرا - للمسيح نفعله ، فعندما نبغض إنسانا نبغض المسيح ، وعندما نحب إنسانا نحب المسيح · والمسيح في كل إنسان لأنه آدم الجديد والمخلص الفادي المحب الذي عطف على بشريتنا التي وقعت بين أيدي اللصوص ، أي الخطيئة، وصب على جراحها زيتا وخمرا وأنقذها بموته من موت أكيد وأحياها ببعثه المجيد ·

خلاصة

على المسيحيين الذين هم أبناء الإله الرحيم اللطيف وأبناء العهد الجديد الذي أبلغهم الكمال " على قدر ملء قامة المسيح " أن " لا يشتموا بأحد ولا يكونوا مخاصمين ، بل حلماء يتصرفون بكل وداعة مع جميع الناس · فإنهم هم أيضا كانوا بالأمس أغبياء عصاة ضالين ، عبيدا لمختلف الشهوات والملذات ، يحيون على الخبث والحسد ، ممقوتين مبغضين بعضهم بعضا ، فلما ظهر لطف الله مخلصنا ومحبته للبشر ·· على قدر رحمته " خلصهم جميعا ليصبحوا كأبناء " ورثة الحياة الأبدية " (راجع طي ٣:٢ - ٧ وأيضا ١ يو ٢ : ٩ و ١١ ثم ٤ : ٢٠ ٣ : ١٥) ·

المقالة الرابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة الإسلام إلى غير المسلمين

د. محمد علي مصطفى الصليبي*

حرية العقيدة من خلال النصوص القرآنية

تبرز حرية العقيدة من خلال المبادئ والأحكام التي لا يجوز الخروج عليها بأي حال من الأحوال ومن هذه النصوص في سورة البقرة في قوله تعالى : " لا إكراه في الدين " ، وهي توجيه من الله تعالى للمسلمين معناه " لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل ومن هداه الله للإسلام وشرح صوره ونور بصيرته دخل فيه على بينة " [1] .

وروى ابن كثير في تفسيره أن سبب نزول هذه الآية ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه أن المرأة المسلمة تكون مقلاة (لا يعيش لها ولد) فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده

---

* مدرس بكلية الشريعة / جامعة النجاح الوطنية

[1] ابن كثير ج١، ص ٣١٠

فلما أجليت بنو النضير (وهم من اليهود) كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل (لا إكراه في الدين) وفي رواية أخرى نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له (الحصيني) كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زبيبا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من الرسول أن يبعث في آثارهما فنزلت هذه الآية .

ومما يذكر أيضا أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان عنده مملوك نصراني اسمه أسبق فكان عمر-رضي الله عنه يعرض عليه الإسلام ويقول له يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين وكان النصراني يأبى ويقول " لا إكراه في الدين " [1] .

النص القرآني يبرئ متهما من غير المسلمين

النصوص القرآنية تدعو إلى العدالة والمساواة واتباع منهج الحق وتحريم الظلم ومن هذا المنطلق فقد نزلت الآيات القرآنية تؤكد هذا المنهج الإنساني العالمي، الذي يرفض إلصاق التهم بالأبرياء وقد ورد في سبب نزول آية من آيات سورة النساء أن رجلا منافقا يدعى ابن أبيرق سرق درعا وطعاما واتهم رجلا يهوديا اسمه زيد بالسرقة فنزلت الآيات تبرئ اليهودي [2] ، والآية من سورة النساء " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما" [3] .

---

[1] المرجع السابق
[2] تفسير القرطبي ج٥، ص ٣٧٦
[3] سورة النساء الآية ١٠٥

النص القرآني وطريقة مخاطبة أهل الكتاب

رغم أن القرآن الكريم يدين أصحاب العقائد المخالفة للتوجيه الرباني إلا أنه أمر بسلك سبيل الحوار والجدال البناء مع أهل الكتاب [١] . ومن ذلك قوله تعالى : " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " [٢] .

وقوله تعالى : " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله " [٣] ويشير القرآن الكريم إلى أن أهل الكتاب ليسوا سواء فمنهم " من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل" [٤] . ومنهم " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق " [٥] .والقرآن الكريم كذلك لا ينهى المسلمين عن إقامة علاقات طيبة مع غير المسلمين من أهل الكتاب الذين لم يعتدوا على المسلمين : "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم " [٦]

---

[١] من أصول الفكر السياسي الإسلامي ص ٣٣٨
[٢] سورة العنكبوت آيه ٤٦
[٣] آل عمران آية ٦٤
[٤] سورة آل عمران آيه ٧٥
[٥] سورة المائدة آيه ٨٢
[٦] سورة الممتحنة آيه ٨-٩

والسور القرآنية ومنها سورة آل عمران ومريم وغيرها من السور تتحدث عن المكانة العظيمة لأنبياء بني إسرائيل، والتي لا يصح إيمان مسلم إلا بالإيمان بهم وبطهارتهم وعصمتهم ومن أنكر نبوة واحد منهم أو ناصبه عداء فقد برئت منه ذمة الله ورسوله ٠

نصوص السنة النبوية تبين منهج التعامل مع غير المسلمين

الأحاديث الواردة في بيان منهج التعامل مع غير المسلمين (أهل الذمة أحاديث كثيرة ومتعددة، والتطبيق العملي للسنة النبوية في معاملة المسلمين يظهر في استقبال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران الذي بلغ (٦٠) رجلا برئاسة أميرهم وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح، فدخلوا المسجد وقت صلاة العصر عليهم ثياب الأحبار يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم ، ولما حان موعد صلاتهم قاموا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم ؛ فصلوا إلى المشرق [1] ، والمعاهدة التي وقعها النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران تدل على مدى الاحترام والتسامح الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المسلمين والنصارى، وقد جاء في المعاهدة : " الرسول صلى الله عليه وسلم أعطاهم ذمة الله على دمائهم وأموالهم وملتهم ورهبانهم وأساقفهم وشاهدهم وغائبهم [2] ٠ وجاء في كتب السيرة أن أحبار اليهود والنصارى من نجران اجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنازع الفريقان عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم يجادلهم بالتي هي أحسن ويستمع لأسئلتهم واستفساراتهم ومن ذلك مجيء رهط من اليهود يسألون عن خلق الله

---

[1] سيرة ابن هشام ج ٢ ، ص ٢٢٣
[2] الأموال ص ٢٤٤

تعالى فجاء جبريل عليه السلام وتلا عليه " سورة الإخلاص " وطلب منه جبريل عليه السلام ألا يتضجر لأن أسئلتهم تتنافى مع عقيدة المسلمين ، وكذلك أجابهم صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين والذي سأل عن ذلك هو شمويل ، وأجابهم عن الساعة وجاءه عازر بن عازر وأشيع وسألاه عمن يؤمن به من الرسل فتلا صلى الله عليه وسلم الآية " قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون "[1] ودخل صلى الله عليه وسلم على جماعة من أصحاب أهل الكتاب في بيت اسمه المدارس ودعاهم إلى الله تعالى كما جاءه شاس وبن صوريا بالحكم بينهم فحكم بينهم بما أنزل الله . وكان كبار الصحابة يتجادلون مع أحبار أهل الكتاب زمن النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك ما جرى بين أبي بكر الصديق فنحاص وهو أحد رجال الدين النصارى[2] .

الوثيقة الدستورية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الكتاب

الوثيقة الدستورية التي كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمهاجرين والأنصار لأهل الكتاب دليل على التسامح الديني ،حيث وادع فيه يهود وعاهدهم وأمنهم على دينهم وأموالهم وشرط إليهم واشترط عليهم ومما جاء في الوثيقة التي تنظم العلاقات المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب " يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم " . وأن بينهم النصح

---

[1] سورة آل عمران آية ٨٤
[2] المرجع السابق ص ٢٢٠ ، وما قبلها .

والنصيحة والبر دون الإثم وأن النصر للمظلوم وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] .

وكان تعامل النبي صلى الله عليه وسلم يتسم بالموضوعية والعدل، والأحاديث التي تأمر بحسن التعامل معهم كثيرة ومنها قوله -صلى الله عليه وسلم- : " من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة" [2] .

وقوله صلى الله عليه وسلم " احفظوني في ذمتي " [3] . والنبي صلى الله عليه وسلم كان يزور مرضاهم وقد زار شابا يهوديا مريضا في منزله ، ومات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي ، بل إن زوجته عائشة رضي الله عنها سمعت من امرأة يهودية زارتها في بيتها كلاما عن الأعور الدجال وأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بما سمعته من اليهودية فأكد لها صلى الله عليه وسلم أمر الدجال وهكذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم مثالا للتسامح وقد جاء في الآثار أنه عندما مرت جنازة كتابي وقف صلى الله عليه وسلم احتراما للجنازة وعندما بلغه وفاة النجاشي في الحبشة صلى عليه صلاة الغائب ونعاه إلى المسلمين .

المسلمون الأوائل يطلبون اللجوء إلى ملك الحبشة النصراني

تشير كتب السيرة أن البلاء الذي أصاب المسلمين الأوائل دعاهم بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم للهجرة إلى الحبشة واللجوء إليها وقد جاء في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم : " لو

---

[1] المرجع السابق ص ١٤٧-١٥٠

[2] أبو داوود ، ج٣ ص ٢٣١

[3] الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣

خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق "[1] . وخرج المئات رجالا ونساء ووجدوا هناك الأمان على دينهم لا يؤذون ولا يسمعون شيئا يكرهونه وحاولت قريش الإتصال بالبطارقة الأحباش لإخراج المهاجرين من الحبشة وحرضوا عليهم ملك الحبشة النجاشي فأبى أن يستمع لوشاية الواشين وأقاموا عنده بأمان وسلام وكانوا قد قرأوا له ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بعيسى عليه السلام وأمه مريم مما نزل من القرآن الكريم .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي الخلفاء من بعده بحمايتهم ورعايتهم

أشارت المؤلفات إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوصى الخليفة الذي سيتولى زمام الأمور بعده خيرا بأهل الكتاب وأن يوفي لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفون فوق طاقتهم[2] . وتشير كتب التاريخ أن قبيلة بني تغلب النصرانية كانت تحارب ضمن جيوش المسلمين في عهد عمر رضي الله عنه .

ولعل تقاضي الخليفة علي بن أبي طالب مع رجل نصراني حول درع فيه الدلالة الواضحة على نظرة المسلمين إلى غيرهم في المساواة والعدالة أمام أجهزة القضاء .

وفي عهد عمر رضي الله عنه كان مسؤول الموازنة المالية عند الوالي أبي موسى الأشعري رجلا نصرانيا .

والأمثلة والشواهد التاريخية عن وضع غير المسلمين الممتاز في العهد الراشدي أكثر من أن يحصى. وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقادته وولاته ومنهم أبو عبيدة أن يحافظ على

---

[1] الأنس الجليل ج1 ص ١٥٤
[2] الخراج ص ١٣٤

الناس من أهل الكتاب وعلى أموالهم وأن يقرهم في أوطانهم وقد ذكر ابن القيم الجوزية في (كتابه أحكام أهل الذمة) أن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم خلافا لما كانت عليه الأمم السابقة التي تعامل المخالفين لها معاملة البهائم وقد ذكر جروسيوس الهولندي مؤسس الحقوق الحديثة في كتابه (حقوق الحرب والسلم) أن أوروبا في عصره كانت تقدم على أعمال في حروبها تستحي منها الوحوش [1] .

ولو عدنا إلى التسامح الديني الذي أقره الإسلام وكيف عاش اليهود في الأندلس جنبا إلى جنب مع المسلمين والنصارى ، وكان منهم الشعراء والأطباء والصيارفة والتجار لرأينا أن الإسلام قد استوعب الناس جميعا على اختلاف مللهم وعقائدهم .

ومن خلال هذه النصوص علينا العمل لإبراز مبدأ التسامح الديني وذلك من خلال التراث والثقافة وإعطاء النماذج الحية على هذا التسامح ، فمدينة نابلس تعيش فيها الطائفة السامرية جنبا الى جنب مع المسلمين والنصارى كأسرة واحدة وكذلك مدن بيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا وقرية الزبابدة ولإبراز هذا المبدأ فإن القضية تحتاج الى وعي ثقافي من خلال المناهج وأساليب التربية لاحترام إنسانية الإنسان . ويحتاج الأمر الى تشجيع الحوار والتلاقي الفكري بين المثقفين والمتعلمين .

---

[1] الدعوة إلى الإسلام توماس ارنولد ص٨١-٨٣ ، ومقدمة كتاب أحكام أهل الذمة د محمد حميد الله .

أعمال الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام وأقوالهم في العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب

الأعمال والأقوال والتصرفات التي كان يقوم بها الخلفاء الراشدون ، وكذلك الصحابة الكرام تكشف عن طابع العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فالخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر قادته أن لا يتعرضوا لكنيسة ولا لرجال الدين من غير المسلمين وطلب منهم أن يتركوهم وما هم عليه .

وفي عهد عمر رضي الله عنه رفض أن يصلي داخل كنيسة القيامة خوفا من أي نزاع مستقبلي وصلى خارجها وأعطى أهل القدس الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من خيرها ولا من صليبهم ... إلى آخر ما جاء في العهدة العمرية التي سلمها عمر رضي الله عنه للبطريرك صفرونيوس [1] .

وقام قادة الجيوش الإسلامية كذلك بتنظيم المعاهدات وإعطاء الوثائق لأهل الكتاب وكلها تشير إلى الاحترام المتبادل بينهم وبين أهل الكتاب ومن هذه الوثائق معاهدة القائد خالد بن الوليد مع أهل الحيرة وأهل عانات ، وكذلك معاهدة القائد أبي عبيدة مع أهل مصر وقد قالوا لأبي عبيدة : (اجعل لنا يوما في السنة نخرج فيه صلباننا والرايات وهو عيدنا الأكبر ، ففعلوا ذلك وأجابهم إليه وذكر أبو يوسف صاحب كتاب الخراج وكان قاضيا للقضاة أن أهل الكتاب وقفوا صفا واحدا مع المسلمين ضد أعدائهم لما وجدوه من وفاء المسلمين لهم .

---

[1] الخراج ص ١٤٨

ونرى أيضا أن تلك الوثائق تضمنت الحماية الإجتماعية لغير المسلمين ويظهر هذا جليا في معاهدة أهل الحيرة والتي وقعها خالد بن الوليد على اعتبار أن الضمان الاجتماعي يشمل جميع المواطنين على اختلاف أديانهم وعقائدهم وجاء في تلك المعاهدة " وشرط عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل ·· وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر ·· عيل من بيت مال المسلمين وعياله "[1] .

وقصة اليهودي الفقير مع عمر بن الخطاب أمير المؤمنين مشهورة في كتب التاريخ الإسلامي ، حيث قرر له لأمثاله راتبا شهريا من خزينة الدولة ·· ورأى عمر رضي الله عنه أن كلمة " المساكين " الواردة في آية مصارف الزكاة المقصود بها فقراء أهل الكتاب ويعني هذا تخصيص هذا السهم لمساكينهم ·

مواقف الفقهاء والعلماء من غير المسلمين

يستفاد مما استنبطه الفقهاء من النصوص القرآنية والسنة النبوية أنهم رسموا العلاقة التي ينبغي أن تتصف بها المجتمعات التي يعيش بها أصحاب الملل الأخرى مع المسلمين وقد ظهر ذلك في مصنفاتهم ومؤلفاتهم ، ومن أشهر هؤلاء الإمام أبو حنيفة وصاحباه قاضي القضاة أبو يوسف والإمام محمد بن الحسن الشيباني وغيرهم من فقهاء الإسلام ، ومن أشهر المؤلفات في هذا التخصص الكتاب الذي وضعه قاضي القضاة أبو يوسف لأكبر ملوك الأرض في زمانه هارون الرشيد واسم الكتاب (الخراج) ، وقد طلب قاضي القضاة في كتابه المذكور أن يسير الخليفة هارون الرشيد

[1] الوثائق السياسية د ٠ محمد حميد الله ص ٣١٧

على نهج من سبقه من الخلفاء في الرفق بأهل الذمة والمبادرة لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم [1] .

وأشاد البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) بموقف الفقهاء السبعة العظيم إزاء ما أراده والي جزيرة قبرص عبد الملك بن صالح بنقض اتفاقية الصلح مع أهل قبرص بسبب حدث طارئ وامتنع الفقهاء السبعة عن تأييده بل طلبوا منه الوفاء لأهل الكتاب والفقهاء هم الليث بن سعد ، ومالك بن أنس ، وسفيان بن عيينه ، وموسى ابن أعين ، واسماعيل بن عياش ، ويحيى بن حمزة ، وأبو اسحاق العزاري ، ومخلد بن الحسين [2] .

ومن المواقف التي وقفها علماء الإسلام موقف الإمام الأوزاعي البيروتي من الوالي العباسي صالح بن علي حينما أراد إجلاء بعض سكان جبل لبنان النصارى بعد أن بلغه أن بعضا معهم كانوا قد أجروا مراسلات مع الروم وقد رفض الإمام الأوزاعي خطوة الوالي العباسي قائلا له : "كيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم ؟ وقد بلغنا أن من حكم الله عز وجل أن لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة ، وطلب الإمام الأوزاعي من الوالي أن يحفظ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم ظلم غير المسلمين من أهل الكتاب الأحرار [3] .

وموقف آخر من المواقف الخالدة هو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية من سلطان التتار حينما أراد إطلاق سراح الأسرى المسلمين والإبقاء على النصارى فكتب إليه ابن تيمية يطلب الإفراج عن

---

[1] المرجع السابق ص ١٤٨
[2] فتوح البلدان ص ١٥٩-١٦٢
[3] الأموال ص ٢٤٧

النصارى لأنهم كالمسلمين وحذره إن لم يطلق سراحهم من استئناف القتال لفك الأسرى من المواطنين النصارى [1] .

ويشير مؤلف أصول الفكر السياسي الإسلامي أن السلطان العثماني سليم الأول أراد إجبار رعايا الدولة العثمانية على اعتناق الإسلام ، فأبى مفتي المسلمين ذلك [2] ، وتلا عليه قول الله تعالى (لا إكراه في الدين) ، ورأى كثير من الفقهاء على اختلاف مذاهبهم أنه لا يجوز التعرض لأموالهم (الخمرة والخنزير) ولا حتى استغابتهم بسوء وأن عقد الذمة عقد أبدي لا ينقض إلا بحالة واحدة وهي تحولهم إلى محاربين وانتقالهم إلى ذر الحرب لمحاربة المسلمين من هناك وما عدا ذلك لا ينقض عهدهم [3] .

ومما يجدر ذكره أن كثيرا من المؤلفين [4] يؤكدون أن غير المسلمين من اليهود والنصارى تسلموا مناصب هامة في عهود الإسلام المختلفة فطبيب هارون الرشيد الخاص بختيشوع كان من النصارى السريان كما أن كثيرا من المستشارين من اليهود والنصارى عينهم الخلفاء في وظائف الدولة الإسلامية ، وحتى في عهد الخلافة العثمانية كان في بلاط الخليفة العشرات كما أن كثيرا من المستشارين كانوا من أهل الكتاب وكان " مجلس المبعوثان " العثماني يضم ممثلين عن جميع الملل والمذاهب .

وحتى بعد زوال الخلافة العثمانية فلا يزال كثير من أهل الكتاب يتسلمون المناصب العليا في شتى بلدان العالم الإسلامي في مصر وسوريا والعراق والأردن ومصر وفلسطين والمغرب وغيرها .

---

[1] أصول الفكر السياسي الإسلامي د. محمد فتحي عثمان ص ٢٣٢
[2] المرجع السابق
[3] بدائع الصنائع ج٧، ص ١١٢
[4] من أولئك المؤلفين جيمس باركز وسي. روث ، وبرنارد لويس الإنجليزي

إلا أننا نلاحظ أن جهات أجنبية تسعى لإفساد العلاقة بين المسلمين والنصارى في أكثر من بلد عربي ٠

تحريض من ساسة الصهاينة لإفساد العلاقات الإسلامية والمسيحية في فلسطين

يحرص الساسة الإسرائيليون على إفساد العلاقات بين المسلمين والنصارى وذلك لتحقيق مآرب كثيرة ، ومن ذلك ما ذكره رئيس وزراء إسرائيل السابق بنيامين نتنياهو في كتابه (مكان تحت الشمس)[1] (حيث يقول : لم ينشر الكثير عن طابع الانتفاضة المعادي للمسيحية : معركة من العنف وإشعال النيران والابتزاز ، كانت موجهة ضد المسيحيين في الضفة الغربية بقصد إرغامهم على بيع ممتلكاتهم إلى المسلمين ، وترك " الأرض المقدسة) ٠ إذ توجد اليوم في مكان مسيحي بارز ، مثل بيت لحم ، مثلا ، أغلبية مسلمة نتيجة لهجرة المسيحيين ، فقد كتب القس جورج أبو حزان في الصحيفة الكاثوليكية " تراسنطة " أن الدول العربية ، دفعت بأموال كثيرة إلى الضفة الغربية بهدف " أسلمة " البلاد ، وأعرب عن خشيته من انقراض الوجود المسيحي في الأرض المقدسة ٠

وقال أبو حزان إن المسيحيين خافوا على أرواحهم ولم يجرؤوا على الكلام ، لكن هذه الحقائق لم تصل الى البرامج التي بثتها شبكات التلفزيون الأجنبية عن الإنتفاضة ، وكلام نتنياهو غير صحيح لأن المسلمين والمسيحيين كانوا ولا يزالون يشكلون صفا واحدا ضد وجود الاحتلال الإسرائيلي في الانتفاضة وقبلها وبعدها ، ونستذكر هنا المواقف الوطنية المخلصة لبعض المسيحيين في فلسطين قبل

---

[1] ص ١٧٨

نكبة (٤٨) ومن هؤلاء اميل الغول أحد مستشاري الحاج أمين الحسيني ، وكذلك عضو اللجنة التنفيذية القس المطران إيليا خوري وإبراهيم عياد وغيرهم كثير في فلسطين وخارجها ٠

وأخيراً يمكننا القول ان التعايش مع أهل الكتاب والذين هم أهل ذمة وعهد هو الأصل والأساس في مبادئ الإسلام وجميع الأدلة تؤكد ذلك وكل محاولة لإفساد هذه العلاقة تتنافى مع مبادئ الإسلام وأحكامه سواء في فلسطين أو خارجها ٠

****

المقالة الخامسة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة الإسلام لغير المسلمين

الشيخ تيسير بيوض التميمي *

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

وبعد :

سأبين في هذه العجالة نظرة الإسلام لغير المسلمين وكيف تعامل معهم وكيف رفع من شأنهم ، في موضوع الكرامة الإنسانية والتعاون مع بني البشر ، والتسامح مع الناس ، وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام ، والحرية في تقرير المصير ، وفي التمسك بالفضيلة في اشد الظروف حساسية ، وفي العدالة والمساواة ، وفي المودة ومنع الفساد ، وفي الحرب وفي السلم ، وفي احتضانهم وإكرام وفادتهم وسأتعرض إن شاء الله لهذه العناصر على النحو التالي :

---

* القائم بأعمال قاضي القضاة

الكرامة الإنسانية :

لقد كرم الله الإنسان بان جعله خليفة في الأرض ، (وإذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم مالا تعلمون [1])، ويروى أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله علية وسلم عير آخر بسواد أمه وقال له يا ابن السوداء فغضب النبي عليه السلام وقال لقد طف الكيل لقد طف الكيل لقد طف الكيل ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل ، ويروى انه مرت جنازة يهودي فوقف لها النبي صلى الله عليه وسلم تكريما فقال له بعض أصحابه إنها جنازة يهودي فقال النبي صلى الله عليه وسلم أليست نفسا .

الناس جميعا أمة واحدة

اعتبر الإسلام الناس جميعا أمة واحدة الإنسانية تجمعها وان فرقت الأهواء فالأصل واحد ، وما دام الأصل واحد فالوحدة شاملة قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، ان الله كان عليكم رقيبا) [2] .

إن الناس جميعا أمة واحدة وان اختلافهم عارض ومنشأ الاختلاف الاهواء ، وان الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل عليهم السلام بالهداية ليحكموا أمر الله بين الناس في هذا الاختلاف وليبينوا

---

[1] سورة البقرة الآية ٣٠

[2] الايه ١ من سورة النساء .

لهم طريق الهداية فيسير فيه من تغلب على هواه ، وان اختلاف الناس شعوبا وقبائل متغايرة لم يكن ليتقاتلوا ويختلفوا ولكن ليتعارفوا ويتعاونوا (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، إن الله عليم خبير) وان هذا التعارف يجعل كل فريق ينتفع بخير ما عند الفريق الاخر .

التعاون الانساني

إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلن أن الله عز وجل يعين بالقوة من يعاون أخاه الإنسان في أي إقليم وفي أي موطن فيقول عليه الصلاة والسلام (الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) لم يعين ذاك الأخ بل عممه ليشمل الاخوة الإنسانية ولا يقتصر على الاخوة الدينية أو الإقليمية وانه في الوقت الذي يشعر الإنسان فيه بالاخوة الإنسانية وان التعاون مطلوب في كل صورة وأحواله ، لتختفي روح النزاع ويختفي ما يذكره البعض من مبدأ التناحر على البقاء الذي جر على العالم المآسي والويلات ، وان بقاء كل قوم لا يكون إلا بالاعتداء على غيرهم وحيث ساد ذلك الزعم كان قانون الغابة هو الذي يحكم ويتحكم ويسير الناس .

التسامح

التسامح والصفح خصلتان تحلى بهما الرسول عليه الصلاة والسلام وظهر ذلك في علاقاته مع المشركين وفي معاهداته وحروبه، ففي صلح الحديبية وهو الصلح الذي تم بينه وبين المشركين عندما أراد أن يحج فمنعوه وأبوا أن يدخل البيت الحرام وقد كان أساس هذا الصلح شططا من جانب

المشركين وسماحة من جانب النبي صلى الله عليه مسلم فقد أصروا على منعه في هذا الصلح من أداء الحج في ذلك العام فقبل بهذا الشرط ومعه جيش كبير يستطيع أن يظهر عليهم واشترطوا مع ذلك أن من يخرج من مكة ملتحقا بالنبي صلى الله عليه مسلم والمؤمنين يرد إليهم إن لم يكن ذلك برضى أهله ، وان من يخرج من عنده مرتدا إلى مكة يقبلونه ولا يمنعونه فقبل النبي صلى الله عليه وسلم السمح الكريم ذلك الشرط حتى ضج بعض المؤمنين من قبوله ووقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال لماذا نرض بالدنية في ديننا ، ولكنها الحكمة النبوية والرسالة المحمدية آثرت الصبر والتسامح وعدم سفك الدماء ولم يكن ذلك قبولا للدنية ولكنه الهدى الإسلامي والتشريع الرباني حث على الصبر بدل القتل والقتال والرفق بدل العنف ،وتأجيل فيه رفق خير من تعجيل فيه عنف ، والصفح الجميل ابرز ما يكون عند الانتصار فما كان في الإسلام للثأر والانتقام بل إعلاء الحق ودفع عدوان الباطل ، لذلك عندما فتح الله تعالى مكة وخضعت للتوحيد كان الصفح الكريم فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تحقق له النصر واستتب له الأمر للملأ من قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال الرسول الكريم أقول لكم ما قال أخي يوسف لاخوته لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء وتمثل بقوله تعالى : (ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)

وبذلك يتبين أن التسامح والصفح الجميل هو السياسة الإسلامية في العلاقة بين الناس مع بعضهم البعض وخصوصا بين المسلمين وغيرهم وهي السياسة المطلقة في حالة السلم والحرب .

حرية العقيدة

احترم الإسلام حرية العقيدة احتراما كاملا، فمنع الإكراه في الدين إذ نفى القران الكريم

بالنص أن يكون الإكراه في الدين طريقا للدين ومنع المؤمنين من أن يكرهوا أحدا على الدين فقال تعالى (لا إكراه في الدين) (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . أراد صحابي من الأنصار أن يكره ولديه على الإسلام فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وانزل الله في حقه قوله تعالى (لا إكراهه في الدين قد تبين الرشد من الغي) . جاءت امرأة عجوز إلى عمر بن الخطاب تطلب منه بعض الحاجة ولم تكن مسلمة فدعاها إلى الإسلام فامتنعت فخشي عمر رضى الله عنه أن يكون قد آذاها بما طلب فاتجه إلى الله طالبا المغفرة .

لهذا اعتبر الإسلام امتحان المؤمن في عقيدته فتنة وقرر أن الفتنه اشد من القتل لأنها تعذيب الروح والعقل والقلب . وان حرية التدين لا تتكون للرجل الحر من منع الإكراه فقط بل لا بد أن يكون أساس العقيدة تفكيرا سليما يحكم العقل من غير تقليد ولا خضوع لأهواء جامحة مسيطرة .

إن الإسلام عمل على حماية عقيدة الذين يستظلون بظله أو يعتدون معه عهدا أو لا يثيرون عليه حربا بل انه سهل لهم القيام بشعائر دينهم . وقرر فقهاء المسلمين فيما استنبطوه من نصوص قرآنية ونبوية ومن أعمال الرسول وصحابته قاعدة تقول (وامرنا بتركهم وما يدينون ، وبهذه القاعدة المجمع عليها من فقهاء المسلمين حميت حرية العقيدة في ظل الإسلام فلا يضار غير المسلم فيما يعتقد ويقيم شعائره الدينية الخاصة بعقيدته حرا غير مضطربا .إن من له دين خير ممن لا دين له لأن من له دين له وازع ديني وهدى يهديه .

الحرية في تقرير المصير

ضمن الإسلام حرية الرأي وحرية العقيدة وحرية الإقامة لمن يستظلون برايته وضمن حرية تقرير

المصير لمن يخالفونه وانه لا يجوز للمسلمين أن يعتدوا على أحد ولا يجوز لدولة الإسلام أن تستعمر ارض دولة أخرى أو تأخذ وسائل الاستغلال من أيدي أهلها فعمر رضى الله عنه ومن جاء بعده ابقوا الأرض الزراعية في أيدي أهلها وجعلوا عليها ضرائب مفروضة سموها (الخراج) خفيفة لا تثقل كواهلهم ولا قتال إلا إذا كان اعتداء على المسلمين وإذا كان القتال فحق الشعوب في تقرير مصيرهم ثابت لذلك كان القائد المسلم الذي يذهب للقتال بسبب الاعتداء يخير بين الإسلام أو العهد ، والقتال فان اختاروا العهد كان الوفاء واجبا وان اختاروا القتال كان بسبب ما اختاروا لأنفسهم .وان تقرير المصير كان يثبت للأعداء حتى في الميدان وبعد النصر وان لم يخيروا قبل القتال .يروى أن قتيبه بن مسلم فتح بعض أقاليم سرقند من غير أن يخيرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال فشكا أهل هذا الإقليم إلى الخليفة العادل عمر بن العزيز أن قتيبه قاتلهم قبل أن يخيرهم ذلك التخير ليقرروا مصيرهم فأرسل الخليفة إلى القاضي ليستمع الى هذه الشكوى فاصدر أمره إلى جند المسلمين بان يخرجوا من البلد الذي فتحوه ثم خير هؤلاء بين هذه الأمور الثلاثة ليقرروا مصيرهم فاختاروا العهد ومنهم من اختار الإسلام الذي سمح بذلك التخير بعد الفتح والانتصار .

وقد كانت الفتوح الإسلامية لتحرير الشعوب من الاستبداد الروماني والفارسي وقد قال الفليسون جوستاف لومون أن التاريخ لم يعرف فاتحا ارحم من العرب وقد اخطأ ان سمى دخول الغرب في البلاد فتحا لانه كان انقاذا وتحريرا للشعوب .

الفضيلة :

إن من أساس العلاقات الإنسانية في الإسلام التمسك بالفضيلة سواء بين الأفراد او الجماعات وسواء كانت العلاقات في حالة الحرب ام في حالة السلم بصرف النظر عن نوع او جنس من يتصلون

بهم او يختلفون معهم ذلك لان قانون الأخلاق عام يشمل الأبيض والأسود والأحمر ويشمل جمع الأقطار فلا فرق بين أحد واحد سواء أكان محاربا للمسلمين أو كان مسالما لان الفضيلة بمقتضى قواعد السلوك الفاضل حق لكل إنسان بمقتضى إنسانيته التي هي وصف مشترك بين كل أبناء آدم وأشد ما كان يدعو إليه القرآن في الأمر بالفضيلة هو ما يقترن بالجهاد والقتال خشية أن تندفع النفوس في حالة احتدام القتال إلى ما يخالف هذا المبدأ العام فالأمر بالمعاملة بالمثل عند الاعتداء فمن اعتدى بدفع شره ومن قاتل يقاتل واقترن ذلك بوجوب الاستمساك بالتقوى ، والتقوى تكون بالتمسك بالفضيلة ، قال تعالى (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) ؛ وقال تعالى (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله إن الله مع المتقين)

فإذا انتهك العدو حرمات الفضيلة فلا ننتهك حرمة النساء والذرية والضعاف ، لا نفعل مثل ذلك يقول عليه الصلاة و السلام (إياكم والمثلة) ٠هكذا تكون معاملة المسلمين لغيرهم على أساس الفضيلة لأن هذا الدين جاء لحماية الفضيلة ولإنشاء مجتمع فاضل تسوده الفضيلة وتختفي فيه الرذيلة .

العدالة

قامت كل علاقة إنسانية في الإسلام على العدالة واعتبر الناس جميعا سواء إن كان هناك تفاضل بالأعمال والجزاء عليها إن خيرا فخير وإن شرا فشر (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا) واعتبر النبي – صلى الله عليه وسلم – من يعاون الظالم على

ظلمه خارجا من الإسلام فقد قال (من مشى مع الظالم فقد خرج من الإسلام) ومن رحمة الإسلام وعدله أن جعل رد ا لاعتداء بالقدر الضروري برده فلا يتجاوز محارم المسلم حدود الدفاع فلا يقتل من لا يقاتل و لا يكون له رأي في الحروب ولا يقتل الذرية والشيوخ ولا العمال المنصرفين للزراعة أو غيرها

المودة ومنع الفساد

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ؛ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم بالدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)[1] .الإسلام يعتبر الناس أمة واحدة لا تفرقها الألوان ولا الأقاليم ولا الجنسية وإن اختلفت الأديان فإن لأهل الإسلام أن يدعوا لدينهم بالحكمة والموعظة بدون تعصب يصم عن الحقائق ولا إكراه ولا إغراء بغير الحجة والبرهان

وإذا كان الناس أمة واحدة فإن الأخوة الإنسانية ثابتة يجب وصلها ولا يصح قطعها وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب بالمودة وإن الإسلام لا ينهى عن بر كل من لا يعتدي على المسلمين فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم وإن المودة الموصولة لا تقطعها الحرب ولا الاختلاف وإنه يروى أنه في مدة هدنة صلح الحديبية التي كانت بين المسلمين وقريش بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن قريشا أصابتهم جائحة فأرسل مع حاطب بن أبي بلتعة إلى أبي سفيان خمسمائة دينار ليشتري بها قمحا ويوزعها على فقراء قريش فرعايا الأعداء الذين لا يشاركون في القتال فإن مودتهم لا تنقطع للعداوة.

---

[1] سورة الممتحنة ، آية ٨

دار الحرب ودار الإسلام ودار العهد

كان أصل هذه التسمية في علاقة المسلمين بغيرهم هي الحرب أو السلم ·ونتيجة اجتهاد فقهي فمنهم من قال أن الأصل في العلاقة هي الحرب واخذوا قولهم في ذلك من الواقع لا من أصل النصوص وهم ليسوا الأكثرية ومنهم من لم يأخذ الحكم من الواقع بل أخذه من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية واعتبر العلاقة هي السلم حتى تكون دواعي الحرب وأسبابها .

وتكاد كلمات الفقهاء تجمع على أن دار المخالفين تسمى دار حرب لأنها فعلا كانت في عصر الاجتهاد الفقهي دار حرب بسبب تلك الاعتداءات المتكررة من الأعداء والمدافعة المستمرة من المسلمين ، وإن هذه التسمية هي حكم مبني على واقع حيث كانت الحرب مستعرة فعلا وواقعا وهذا لا يتناقض مع المثل العليا التي يقررها الإسلام،ولم تمنع الحرب تنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم على أساس الفضيلة والحريات والعدالة وما عرف فقهاء الإسلام أن الفتح يعطي المسلمين سلطانا غير مبني على العدل والفضيلة أو التقوى فلا سيادة ولا مسود ولا غالب ولا مغلوب بل عدل وإنصاف .

إذا الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلم وإن ذلك هو رأي الجمهرة العظمى من الفقهاء والقلة التي خالفت ما كان نظرها إلى الأصل بل إلى الواقع وكان حكما زمنيا و ليس أصلا دينيا وان تسمية دار المخالفين دار حرب لا يمنع من أن الأصل هو السلم .

سيادة الدولة على غير المسلمين

تثبت سيادة الدولة على غير المسلمين الذين يستظلون برايتها وهم قسمان : ذمي ومستأمن

الذمي: هو من يقيم مع المسلمين على أن يكون له مالهم وعليه ما عليهم بعقد يسمى عقد الذمة ويتولاه ولي الأمر لأنه بموجبه يفرض على الذمي واجبات للدولة يقوم بأدائها ويفرض حقوقا للشخص يجب على الدولة القيام بها وعقد الذمة عقد أبدي لأنه لا تتم الرعوية الإسلامية له إلا إذا كان الرضى بالإقامة مع المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم أبديا غير محدود بوقت . وهذا العقد ينفذ على الشخص الذي عقده ما دام حيا وعلى ذريته من بعده ، وكان يحدث في الفتح الإسلامي أن يعلن ولي الأمر أن من يرضون بالإقامة مع المسلمين ويلتزمون ما على المسلمين ما عدا ما يتعلق بالدين يكونون ذميين فلا يعترض أحد منهم على ذلك ويكون هذا بمثابة عقد الذمة الفردي وأن على الذين لا يرضون ذلك أن يرحلوا ويعقدوا عقد أمان محدود المدة . وعقد الذمة يشترط فيه شرطان:

١- أن يلتزم الذميون إعطاء التكاليف المالية على القادرين لكي يساهموا في بناء الدولة ويشتركوا في تكوين ميزانها المالي

٢- أن يلتزموا أحكام الإسلام في المعاملات المالية وفي الخضوع للعقوبات الإسلامية لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

أما بالنسبة لنظام الأسرة من زواج وطلاق فيتبعون ما يعتقدونه دينا لهم (أمرنا بتركهم و ما يدينون) وفي المطعومات والمشروبات نتركهم كذلك وما يعتقدون بحلة وحرمته على أن يكون ذلك في خاصتهم ؛ قال الأحناف (لهم أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير إن كانوا يعتقدون أن ذلك حلالا لهم حتى لا يكون تحريم ذلك تدخلا في حريتهم الشخصية ولذلك لا يعاقبون على الشرب إلا إذا كان في عملهم تحريض لشباب المسلمين فإنهم يؤاخذون على التحريض لا على الشرب .لهذا أوجب

المذهب الحنفي حماية الحرية الشخصية لأهل الذمة في هذا المقام فلو أراق مسلم خمرا لذمي أو قتل خنزيرا وجب عليه قيمة ما اتلف ولو فعل ذلك لمسلم لا يجب عليه دفع قيمة ما اتلف لأنهما مال عند الذمي محترم غير محترم ولا مقوم عند المسلم .

هذه حقوق الذمي وواجبات عليه استلزمها الاندماج في الدولة الإسلامية و العيش فيها وهناك واجب آخر عليه وهو أوضح الواجبات وهو الجزية وقد افترى البعض على الإسلام و اعتبرها من مظاهر السيطرة الإسلامية عليه وما هي إلا مظهر للعدالة الاجتماعية في الدول الإسلامية ذلك لأنها فريضة فرضت على الذمي نظير ما يفرض على المسلم من زكاة تجب عليه بمقتضى دينه وما يؤدي من كفارات ونذور وفدية لترك عبادة .

وهي التكاليف المالية على الأفراد في الدولة الإسلامية للإسهام في بنائها وهي تتفق على المصالح العامة وتصرف في معونة من يحتاج من أهل الذمة كمساعدة مالية لعوز وحاجة وحماية لأفراد من المسلمين والذميين واجبة على الدولة ، فالذمي الذي يعيش في الدولة الإسلامية مصون محترم لا يصح الاعتداء عليه وحريته الشخصية مصونة ليس لاحد أن يمسها وكرامته مصونة لانه إنسان مصون كالمسلم سواء بسواء .

لهذا اعتنى الإسلام في تنفيذ هذا العقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : يشدد في الدعوة الى احترام حقوق الذمي (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرسل العيون إلى ولاته ليعرف مقدار إقامتهم للعدل على رعاياهم وأول ما يهتم بالسؤال عنه عن معاملتهم لأهل الذمة وحسن هذه المعاملة دليل على قيام العدل بين جميع الرعايا .

وكان يقتص ممن يظلمهم ولو كان الوالي ويروى في هذا أن ابن عمرو بن العاص والي مصر

تسابق مع شاب قبطي فسبقه الشاب القبطي فعلاه ابن العاص بالسوط وقال له أتسبق ابن الأكرمين فذهب الشاب القبطي إلى عمر رضى الله عنه في المدينة فاحضر عمرو وابنه وامر الشاب القبطي أن يضرب ابن عمرو بن العاص حتى يشتفي لنفسه فضربه وعمر يطلب منه الزيادة كلما سكت ويقول زد ابن الأكرمين فلما اشتفى الشاب لنفسه زاح عمر عمامة عمرو عن رأسه وقال للشاب القبطي اضرب على صلعه عمرو فباسمه ضربك فامتنع الشاب وقال عمرو ما علمت بهذا .

الجزية لا تؤخذ إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين فلا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد ولا مسكين كما لا تأخذ من ذي العاهة و لا من الشيخ الفاني ولا من الراهب الذي اعتزل الناس ،ولا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدفعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون ،وفي النهاية بدل الخدمة العسكرية وذلك من عدل الإسلام المطلق إذ القتال بالإسلام مرتبط بالعقيدة في سبيل الله ليس من العدل أن تكلف إنسانا من اجل عقيدة لا يؤمن بها ومن يسلم تسقط عنه الجزية ، وإذا لم يتمكن الولي من حمايتهم تسقط الجزية .

المستأمن :شخص دخل الديار الإسلامية على غير نية الإقامة المستمرة فيها بل يقيم فيها إقامة محدودة لمدة معلومة يدخل فيها بعقد يسمى عقد الأمان وبمجرد ذلك يمنح الإقامة ولو كانوا منتمين لدولة نشبت الحرب بينها وبين المسلمين فان أموالهم مضمونة وارواحهم لا يعتدي عليها أحد ما داموا مستمسكين بعقد الأمان وملتزمين به ، وفي الحث على الوفاء بالعهود وللمعاهدين وقال عليه الصلاة والسلام (إن من قتل معاهدا متعمدا حرم الله عليه الجنة) .

وهكذا يتضح لنا التعامل مع الآخر معاملة فريدة متميزة فيها كل التقدير والاحترام لإنسانية الإنسان ، وان هذه المعاملة غير موجودة في أي ملة أخرى .

والحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

المقالة السادسة عشرة

نظرة الإسلام للآخر

د. ناجي عبد الجبار *

مقدمة

بالرغم من أن موضوع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي وموقف الإسلام منهم قد تبين وتحدد من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، ومن خلال مواقف الخلفاء واجتهادات الأئمة عبر العصور ، إلا أن هذا الموضوع لا يزال يثار حتى الآن . ولعل من عوامل إثارة هذا الموضوع – وبإلحاح – في الآونة الأخيرة ما يلي :

١. إن التقدم نحو الإسلام بشكل واضح من قبل الأفراد والحركات والمجتمعات وبعض الدول، جعل عددا كبيرا من غير المسلمين يتخوفون على وضعهم ، ويتساءلون عن مستقبلهم فيما إذا تم الأمر للإسلام وحكم . ومع غير المسلمين الحق في أن يتساءلوا عما سيحل بهم فيما لو حكم الإسلام بالفعل ؟. بل إن معهم الحق في أن يتعرفوا على حقيقة أوضاعهم في المستقبل الذي بات وشيكا ، كما كان يبدو مع تنامي الصحوة الإسلامية في العالم .

٢. حينما ظهرت حركات إسلامية متعددة في العالم العربي والإسلامي ، بل وفي العالم ، وحينما طرحت هذه الحركات والتنظيمات الإسلامية شعار " الإسلام هو الحل "، وحينما

---

* مدير في كلية الآداب – جامعة بير زيت

ظهرت بعض الممارسات والتصرفات الفردية غير المسؤولة ، من قبل من ادعوا بأنهم ينتمون إلى هذه الحركات ، حينذاك ، تصور غير المسلمين بأنهم لن يكون لهم موطئ قدم مع صعود مثل هذه التنظيمات ، بل وتساءل بعضهم إذا كانت طروحات " المتعصبين " على هذا النحو وهم لم يصلوا بعد ؟ وإذا كانت ممارساتهم على ما نرى قبل أن يحكموا ؟ فكيف يكون الأمر حينما يحكمون ؟ من هنا ، كان معهم الحق في أن يبادروا إلى طرح قضاياهم ليطمئنوا على أوضاعهم من جهة ، وليحددوا مواقفهم من أصحاب هذه الطروحات من جهة ثانية .

٣. إن بعض الامتيازات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحققت لغير المسلمين في ظل الأنظمة الحالية غير الإسلامية، جعلت غير المسلمين يتخوفون من إمكانية زوال هذه المكاسب التي تحققت للأقلية على حساب الأكثرية . فتقريب الأقليات سياسيا ، وإعطاؤهم بعض الحريات الاجتماعية لممارسة أمور لا تقبلها المجتمعات الإسلامية ، والسماح لهم بالمتاجرة بالممنوعات والاغتناء على حساب الفقراء ، كل ذلك جعل غير المسلمين يتخوفون من خسرانهم مثل هذه الإمتيازات التي لن يكون لها رجعة لو حكم الإسلام بالشكل الصحيح.

٤. لقد أساء بعض المتشددين فهم بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالموالاة مثل : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين " [١] . " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين " [٢]

---

[١] سورة المائدة آية ٥١
[٢] سورة النساء آية ١٤٤

" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس منه الله في شيء "[1] ففسروا هذه الآيات على أنها دعوة للقطيعة والمجافاة والكراهية لغير المسلمين . فهذه الآيات فهمت فهما خاطئا ، إذ المقصود حينما يكون المسلمون في حالة حرب معهم ، لا تجوز موالاتهم ، أما إذا كانوا معاهدين أو مجاورين ، فالمسألة غير ذلك. فليس من واجب المسلم أن يحكم على غيره أو يكفر ، بل الأمر متروك لله تعالى. بل إن الاختلاف في الأديان من سنن الكون إذ قال تعالى " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة "[2] .

٥ . إن بعض المفاهيم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين من قبل غير المسلمين ، بالإضافة إلى بعض الأدبيات والإشاعات غير الصحيحة عن الإسلام والمسلمين ، جعلت غير المسلمين يطرحون القضية من جديد . وكل ذلك ، إما لأنهم لا يفهمون الإسلام فهما صحيحا ، وإما لأنهم قرءوا أدبيات مغرضة عن الإسلام والمسلمين .

٦ . إن تسلط الكنيسة ورجال الدين في أوروبا على الشعوب ، حينما كانت السلطة للكنيسة ولرجالها ، وما تبع ذلك من أحكام وقوانين دكتاتورية على غير المسيحيين وعلى المتدينين ، جعلت البعض يتصور أن الإسلام حينما يحكم ، وأن المسلمين حينما يحكمون قد يمارسون طريقة محاكم التفتيش الأوروبية . فظهرت التخوفات ، وظهرت التساؤلات الكثيرة عن المتدينين، حتى اتهموا سلفا بنفس ما اتهم به متعصبو الكنيسة آنذاك .

---

[1] سورة آل عمران آية ٢٨
[2] سورة هود آية ١١٨

ولتوضيح موقف الإسلام ونظرته وممارسات أفراده تجاه غير المسلمين ، في ظل مجتمع إسلامي وأحكام إسلامية ، لا بد من تناول القضايا التالية :

أولا : تقدير الإسلام للديانات السماوية الأخرى

إن الإيمان بالله تعالى ، والشهادة بأن محمدا رسول الله ، لا يغنيان ولا يكفيان إن لم يقترنا بالإيمان بالرسل الآخرين ، وبالكتب السماوية الأخرى . فجزء من عقيدة المسلم أن يؤمن بالرسل وبالكتب السماوية ، وإلا كانت عقيدته منقوصة ، بل غير مقبولة عند الله تعالى . وقد كان هذا واضحا للمسلمين الأوائل ، كما أنه يشرح ويوضح للمسلمين المعاصرين في جميع الأدبيات . " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " [1] . " آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله " [2] .

وفي تحديد الله تعالى لموسى عليه السلام وللتوراة " إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء " [3].

وفي الإشارة أيضا إلى عيسى عليه السلام وإلى الإنجيل : " وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ،

---

[1] سورة البقرة آية ١٣٥
[2] سورة البقرة آية ٢٨٥
[3] سورة المائدة آية ٤٤

ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " [1] . فالإسلام إذن يقر بنبوة كل من موسى وعيسى عليهما السلام ، بل ويكفر من ينكر رسالتيهما ، فليس في الإسلام تعصب على اليهودية أو المسيحية ، وليس فيه اتهام أو تهجم على رسول .

ثانيا : عدم إكراه الإسلام لغير المسلمين على الدخول في الإسلام

لم يكتف الإسلام بتقدير الديانات الأخرى ، بل لم يجبر أحدا من أصحاب الديانات أو ممن لا دين له على الدخول في الإسلام. وإن المسلم يتعلم أن عدم الإكراه جزء من العقيدة وجزء من الإيمان. فلا سبيل إلى القهر لاعتناق الإسلام ، ولا يجوز بغض المخالفين للإسلام ، " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " [2] .

" إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " [3] . " وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " [4] . " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " [5] .

بل إن مناقشة أهل الأديان الأخر ومجادلتهم ، إن حصلت ، يجب أن تكون بالحسنى ، " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن " [6] . وقد حفل القرآن الكريم بالآيات الكثيرة التي تدعو إلى التسامح مع غير المسلمين، وبخاصة مع أهل الكتاب ، طالما أنهم في حالة سلم مع المسلمين . " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله

---

[1] سورة المائدة آيه ٤٦-٤٧
[2] سورة يونس آيه ٩٩
[3] سورة القصص آيه ٥٦
[4] سورة الكهف آيه ٢٩
[5] سورة البقرة آيه ٢٥٦
[6] سورة العنكبوت آيه ٤٦

يحب المقسطين · إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"[1] · " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن "[2] ·

ثالثا: تساوي المسلم والكتابي في بعض الأحكام

لقد ساوى الإسلام بين المسلم والكتابي في أمور كثيرة منها :

١- هما سواء في القصاص : فالنفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، وهما سواء في الديات وفي أحكام التعذيب ·

٢- ليس للإسلام أن يتعرض للكتابي في جميع أمور زواجه وطلاقه ·

٣- هما سواء في الحرمان من الميراث · فلا يرث المسلم الكتابي ، كما لا يرث الكتابي المسلم ·

٤- أباح الإسلام لهما أن يأكلا من طعام بعضهما البعض · " طعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم " ·

٥- وكما كفل الإسلام للمسلم الحرية الدينية ، فقد كفلها للكتابي ، فهم أحرار في كنائسهم ، وفي بنائها ، ودق نواقيسها ، ولم يحدث أن هدم المسلمون دار عبادة لأهل الكتاب ، كما لم يحدث أن حملوهم على الإسلام ·

٦- كما أن مال المسلم مصون ، فإن مال الكتابي كذلك ، فقد حرم الرسول أكل مال المسلم وأكل مال الكتابي·

---

[1] سورة الممتحنة آيه٨-٩

[2] سورة النحل آيه ١٢٥

٧- حض الإسلام المسلمين على المعاملة الحسنة لبعضهم البعض ولغيرهم من أهل الكتاب ، سواء أكان ذلك في المعاملات التجارية ، أو في العلاقات الاجتماعية ، أو في مبادلة الهدايا .

٨- أباح الإسلام للمسلم الغني أن يعطي من صدقة الفطر ومن زكاته للفقير المسلم وللكتابي الفقير على السواء ، طالما أن شروط الزكاة انطبقت عليه .

٩- إن كلا من المسلم والكتابي له الحق في أن يعيش بأمان في ظل الإسلام ، وعلى الدولة أن تحافظ عليهما وعلى أموالهما وعلى عرضيهما ، ولهما حق التنقل والإقامة منفردين أو جماعات .

١٠- للمسلم وللكتابي حق العمل بالتجارة وبالصناعة وبكل أنواع العمل والمهن .

رابعا : مواقف الرسول والصحابة العملية من الكتابين

حض النبي (ص) على التسامح ومعاملة غير المسلمين بالحسنى فقال : " من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " .

وكتب عليه السلام على عامله باليمن ، " من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها . وكتب معاهدة مع قبيلة تغلب عام ٩ هـ ، أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم . وصالح نصارى نجران وتركهم أحرارا في دينهم .

وهكذا فقد اقتدى الصحابة والخلفاء الراشدون بالرسول القائد . فقد أوصى أبو بكر الصديق أسامة بن زيد حينما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم ، وبالمحافظة على أموال الناس ، وبترك الرهبان أحرارا في ديارهم وصوامعهم . وفي عهد أبي بكر ، عاهد خالد بن الوليد أهل

الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصرا يتحصنون فيه ، وألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم ، أو إخراج صلبانهم في يوم عيدهم . ويعفى من الجزية من عجز عن العمل ، أو أصابته آفة ، بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين . وكذلك ، فقد أوصى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص حينما حارب الفرس بأن يبعد جيشه عن أهل العهد والذمة ، لأن لهم حرمة يجب الوفاء بها . ووصى أبا عبيدة حينما أرسله إلى الشام بأن يمنع المسلمين من ظلم الذميين والإضرار بهم وأكل أموالهم .

ولعل الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، من أشهر العهود والمواثيق التي ضرب بها أهل العصر عرض الحائط ، حيث يتعمد المحاربون في هذا العصر الأضرار بالمدنيين وتحويل ديارهم إلى ديار حرب .

خامسا : حرص الفقهاء المسلمين على الاعتناء بالكتابيين

اهتم الفقهاء المسلمون ببحث القضايا المرتبطة بأهل الكتاب . فقد ألفوا في ذلك الكتب والرسائل ، من ذلك أن أبا يوسف كتب إلى الرشيد ينصحه : : وينبغي يا أمير المؤمنين – أيدك الله– أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) ، والانتصاف لهم ، حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شئ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم " .

وقد وضع الفقهاء دستورا للعهود التي يتعاقد الحكام المسلمون مع أهل الذمة على أساسه ، جاء في العهد الذي وضعه الإمام الشافعي .[1] " لك ولهم علي وعلى جميع المسلمين الأمان ما

---

[1] الأم : ١٨١/٤

استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم ، وذلك أن يجري عليكم حكم الإسلام ، ولا حكم خلافه مجال يلزمكم ، ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه في شيء رأيناه نلزمكم به ، وإذا ثبت بالدليل والبرهان أن أحدا منكم ذكر محمد (ص) أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به ، فقد برئت منه ذمة أمير المؤمنين ، وذمة جميع المسلمين ، ونقض ما أعطي عليه الأمان ، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه ، كما تحل أموال أهل الحرب ودماؤهم .

وعلى أن أحدا من رجالكم إن أصاب مسلمة بزنا ، أو قطع الطريق على مسلم ، أو فتن مسلما عن دينه ، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال ، أو بدلالة على عورة المسلمين وإيواء لعيونهم ، فقد نقض عهده ، وأحل دمه وماله ، وأن ينال مسلما بما دون هذا في ماله أو عرضه ، أو نال به مرة مسلم فمنعه من كافر له عهد أو أمان لزمه في الحكم .

وعلى تتبع أفعالكم في كل ما جرى بينكم وبين المسلم ، فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فعله رددناه، وعاقبناكم عليه ، وذلك أن تبيعوا مسلما بيعا حراما عندكم من خمر أو خنزير أو دم ميتة أو غيره ، ونبطل البيع بينكم فيه ونأخذ ثمنه منكم أن أعطاكموه ، ولا نرده عليكم إن كان قائما ، ونهريقه إن كان خمرا أو دما ، أو نحرقه إن كان ميتة ، وإن استهلكه لم نجعل عليه دية شيئا ونعاقبكم عليه . وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرما ، أو تزوجوه بشهود منكم ، أو بنكاح فاسد عندنا .

وما بايعتم به كافرا منكم أو من غيركم لم نتبعكم فيه ، ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به ، إذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع ، وأتانا طالبا له ، فإن كان منتقضا عندنا نقضناه ، وإن كان جائزا أجزناه. إلا أنه إذا قبض البيع لم يرده لأنه بيع بين المشركين .

ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ليتحاكم ، أجريناكم على حكم الإسلام ، ومن لم يأتنا لم نعرض فيما بينكم وبينه ، وإذا قتلتم مسلما أو معاهدا منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عاقلتكم ، كما تكون على عواقل المسلمين ، وإن قتل منكم رجل رجلا بلا قرابة ، فالدية عليه في ماله، وإذا قتل عمدا فعليه القصاص ، إلا أن تشاء ورثته ديته فيأخذونها ·

ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه إذا سرق ما يجب فيه القطع وعزم ، ومن قذف كان للمقذوف حد حد له، وإن لم يكن له حد عزر ، حتى تكون أحكام الإسلام جارية عليكم بهذه المعاني فيما سمينا وما لم نسم " الخ ·

وهكذا تشتمل هذه الوثيقة على أسس عادلة سمحة تكفل للكتابيين أن يعيشوا أحرار العقيدة في دولة المسلمين ، ولهم أن يطمئنوا على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ·

سادسا : بعض الخصوصيات للكتابي

بمقابل أحكام المساواة بين المسلم والكتابي ، هنالك بعض الخصوصيات المتعلقة بالكتابي ، بحكم أنه ليس مسلما ، بل لم يقبل أن يكون كذلك · وهذه الخصوصيات ، لها ما يناظرها من خصوصيات للمسلم أيضا ، دون أن يكون في ذلك تعال للواحد على الآخر ، وسيظهر أنها هي المساواة الحقيقية وليست المساواة الحرفية ·

١- لا يحق للكتابي أن يتزوج من المسلمة مع أنه يباح للمسلم أن يتزوج من الكتابية · إن هذا الحكم الخاص بالمسلمة وبعدم جوازها من الكتابي ، فيه تحديد للمسلمين وليس للكتابيين ، لأن المسألة مرتبطة بتبعية الأولاد · وإذا نظرنا بحرفية إلى الحكم ، نجد أن التحديد وارد

على المسلمة وعلى الكتابي في آن واحد · إذن منطقيا ، التحديد وارد على الطرفين وليس على طرف واحد ، وبالتالي لا يجوز أن تثار هذه القضية، وكأن الكتابي مظلوم والمسلم منصوف في هذا الشأن ·

٢- المسلم يدفع الزكاة لبيت مال المسلمين ، والكتابي يدفع الجزية ، إن ما يدفعه المسلم من زكاة يعد واجبا عليه، وهو نوع من العبادة ، أما ما يدفعه الكتابي ، فهو مقابل الحماية والأمان له في ديار الإسلام ، وإن لم يحب تسميتها جزية ، فليسمها ما شاء إن لم يرغب بهذه التسمية · يضاف إلى ذلك ، أن الكتابي غير القادر على دفع الجزية ليس عليه دفعها ، بل إن بيت المال مكلف بإعالته ، فمعنى ذلك أن ما يدفعه المسلم ، وما يدفعه غير المسلم يصرف في الوجوه التي تخدم الطرفين في الدولة الإسلامية ·

ومن خلال تسميتها بالجزية ، يمكن أن يكون المصطلح من الجزاء أو المكافأة للمسلمين على الحماية والأمان ، إذ أنه ليس مكلفا بالجندية وبالدفاع عن الديار ، إلا إذا رغب بذلك · فالمسلم والكتابي ينتفعان من حماية الدولة لهما في أموالهما ، وأنفسهما، وأعراضهما ، كما أنهما يدفعان الزكاة والجزية مقابل هذه الخدمات العامة · ويعفى الشيوخ والأطفال والنساء والمقعدون والمجانين من الجزية ، فالذين يؤدونها هم الرجال العقلاء القادرون على العمل· كما يدفع الكتابي الخراج عن إنتاج الأرض التي يمتلكها ، وهي أيضا تقابل زكاة الزرع والثمار التي يدفعها المسلم·

يضاف إلى الجزية والخراج ، فإن الكتابي يدفع " العشور " وهو ما يفرض على الأموال المعدة للتجارة ، إذا تم نقلها من بلد إلى بلد آخر ، داخل ديار الإسلام· ومقدارها نصف العشر ، وتؤخذ مرة واحدة في السنة ·

٣–من واجبات الذمي أيضا الامتناع عما فيه غضاضة على المسلمين ، وانتقاص دين الإسلام.

٤–ويمنع الذمي أيضا من إظهار بيع الخمور والخنازير في بلاد المسلمين على سبيل الشهرة ، ويمنعون من إظهار الفواحش .

٥–ينتهي عقد الذمي بالامتناع عن الجزية ، وبالتمرد على الأحكام الإسلامية ،والمجاهرة بالفجور ، والشتم على الدين والرسول ، ومعاداته للمسلمين ، ومعاونته أعداء الإسلام ، وغير ذلك من نقض للميثاق الذي وافق المسلمين عليه .

وبعد ، فلما كانت مسألة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي من المسائل المهمة ، فقد أولاها الشرع قدرا كبيرا من العناية ، ليتسنى للخليفة المسلم من إقامة العدل بين جميع الأفراد الذين ينتظمون تحت حكمه ، ولتقوية الصلات بين جميع أفراد المجتمع ، ولذلك ، وردت الآيات القرآنية الكثيرة بخصوصهم ، ووردت الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على حسن معاملتهم ، كما فعل الفقهاء من القدماء والمعاصرين في أحكامهم .

وبالتالي ، فإن الفهم الصحيح للنصوص الإسلامية ، ولطريقة تعامل المسلمين مع غيرهم عبر العصور ، لا تدع مجالا للمتشددين كي يتصرفوا بناء على اجتهاداتهم الخاصة . كما أن التطبيق العملي في التعامل مع غير المسلمين عبر العصور ، تزيل أوهام غير المسلمين وشكوكهم وتخوفاتهم مما يمكن أن يحيق بهم لو حصل التطبيق الصحيح لأحكام الإسلام .

المراجع

- القرآن الكريم
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي
- الأحكام السلطانية ، الماوردي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨
- الأمة ، الإمام الشافعي
- معاملة غير المسلمين في دولة الإسلام ، إبراهيم سليمان عيسى ، دار المنار ، القاهرة ، ١٩٩٤
- الموسوعة الفقهية ، ج ٧ ، ١٢٠-١٣٠
- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية
- سماحة الإسلام ، أحمد محمد الحوفي، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٨٠
- حقوق الإنسان في الإسلام ، علي عبد الواحد وافي، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٧٩
- الخراج ، أبو يوسف، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٩
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، محمد الغزالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ، ١٩٨٩
- أحكام الذميين والمستأمين ، عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠

المقالة السابعة عشرة

نظرة المسيحية للأخر

إبراهيم دعيبس*

مقدمه

لا بد من التمييز بين نظرة المسيحية للآخر ، ونظرة المسيحي للآخر . فإذا كانت المسيحية واحدة فالمسيحيون ليسوا وحدة واحدة ولا مفاهيم المسيحية واحدة لديهم . إن مفاهيم المسيحي الأوروبي تختلف عن مفاهيم المسيحي الإفريقي أو الأمريكي أو الشرق أوسطي ، مثلي. والمسيحية ليست شيئا خاصا في هذا، فالأمر كذلك بالنسبة للإسلام واليهودية ، وأحيانا تختلف المفاهيم في البلد الواحد بل ومن شخص إلى أخر .

أحس أني متأثر بالمفاهيم والثقافة والقيم الإسلامية ، وبتقاليد وعادات المنطقة التي أنتمي إليها ، وأجد نفسي في هذا أقرب إلى المسلم من المسيحي الأوروبي أو الغربي عموما ، هذا لا يعني إطلاقا أني لا أحس بسرور وبرابط خاص حين أقابل مسيحيا سواء أكان قادما من أوروبا أو آسيا أو إفريقيا . فالرابط الديني موجود وقوي ولكنه ليس الرابط الوحيد ولا حتى الرابط الأقوى.

ولأن الدين ليس مجرد نظرية ، بل هو اتباعه أنفسهم ، فالذي يهم في النهاية هو سلوك المسيحي وفهمه لدينه ، وليس مسيحية الأناجيل ، كما يهمني المسلم وسلوكه وفهمه لدينه أكثر من أي شيء

* صحفي ومدير مدرس مار متري للروم الأرثوذكس – القدس

آخر · وفي هذا يقول البعض أن الماركسية كمبدأ كانت مثالية ، مثلها مثل كل النظريات الجميلة ، ولكن عند التطبيق انهارت الماركسية وتلاشى الشيوعيون السوفيت تقريبا ·

أحبوا أعداءكم

لن تكون مداخلتي هذه بحثا مجردا ، فأنا لست خبيرا في ذلك ، ولكنها ستكون بالتأكيد وبقدر استطاعتي ، رأيا صريحا وصادقا في نظرة المسيحي الشرق أوسطي للآخر ، وبصورة أدق كيف أرى أنا ذلك ·

تعلمت من المسيحية ، منذ الصغر : من ضربك على خدك الأيمن ، فأدر له الأيسر ، وتعلمت كذلك كلمات السيد المسيح الأخرى : " أحبوا أعداءكم ·· وباركوا لأعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ·" تعلمت أقوال المسيح وهو على الصليب: يا أبتي اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما يفعلون ، تعلمت كلام المسيح لأتباعه: "أنتم نور العالم ، أنتم ملح الأرض "·

هذه خلاصة نظرة المسيحية للآخر ، وهي ، برأيي ، قمة التسامح وحب الآخرين واحترامهم وكيفية التعامل معهم · لكن هذه المبادئ الجميلة ، بالمناسبة لم تمنع قيام حروب دينية مسيحية – مسيحية ، ولم تمنع وجود سلطات مستبدة تحكم باسم الدين ·

وبالنسبة لي ، كانت هذه المبادئ مناسبة للأقلية المسيحية الصغيرة ، وسط الأغلبية الإسلامية الكبيرة ، فالأقلية بطبيعتها مسالمة غالبا وميالة الى تجنب ما يثير الخلافات والنزاعات ، وتنأى دائما عن الدخول فيها كلما استطاعت ذلك ·

بين النظرية والتطبيق

اسمحوا لي بأن أتحدث قليلا عن بلدتي ، الزبابده لارتباط ما أقوله بموضوع البحث قبل أقل من مائتي عام قتل مسيحي من الطيبة قرب رام الله ، مسلما من دير جرير المجاورة وكعادة العرب آنذاك وحتى اليوم ، فقد اضطرت عائلة القاتل إلى اللجوء · عائلة القاتل كانت في الحقيقة عائلتي ، وقد فرت من الطيبة وقطعت النهر إلى شمالي الأردن واستقرت مؤقتا في الحصن قرب اربد ، حيث لا يزال يعيش لنا أقرباء هناك يحملون الاسم نفسه ، ويبدو أن الحياة لم تطب لهم في الحصن ، – المهجر – فعادوا إلى شمالي الضفة ، واحتموا بعائلة كبيرة وكريمة في محافظة جنين هي عائلة جرار المسلمة التي أعطت للمشردين المسيحيين الحماية وخربة صغيرة يعيشون عليها هي الزبابدة وكانت هذه هي أخلاق التعايش والقبول والتفهم التي تهمنا ·

بعد سنوات لحقت بالمسيحيين في موقعهم الجديد ، بطريركية اللاتين فبنت كنيسة ومدرسة في العام ١٨٨٣ ، أي قبل بناء معظم المدارس العريقة في القدس ، وكان كل المسيحيين تقريبا من طائفة الروم الأرثوذكس، وقد أصبحت الغالبية من اللاتين الآن لأسباب كثيرة في مقدمتها المدرسة ·

نما الوجود المسيحي وتطور واستمر حتى اليوم وغدا والى ما شاء الله · وعاش المسيحيون القلة وسط المسلمين الكثرة ، بحب وتعاون وعلاقات طبيعية وأخوية ، وكان في الزبابدة بعض المسلمين كما كان يعيش بعض المسيحيين في قرى قليلة في المحافظة ، أهمها برقين ·

كان الناس يتزاورون في الأعياد والمناسبات الحزينة والسعيدة ، وكانوا يسهرون معا ويقيمون علاقات اجتماعية طبيعية ، بالطبع كان هناك تعصب مفهوم ، كما يتعصب كل فرد لعائلته

أو مدينته، وكما يحدث تعصب بين المسيحيين الأرثوذكس والمسيحيين اللاتين · وكان يقع تحزب حين تثور خلافات عادية بين مسلم ومسيحي ، فيتحزب المسيحيون للمسيحي والمسلمون للمسلم ، كما قد يتحزب أهل الخليل لأبناء مدينتهم وكما يتحزب المشجعون الرياضيون كل لفريقه ، وغير ذلك ·

لا أذكر خلافات بدأت لأن هذا الشخص مسيحي أو لأن ذاك الشخص مسلم ، كانت تقع خلافات عادية تتطور إلى مسلم ومسيحي ثم ما تلبث أن تنتهي إما بتدخل وجهاء الحمائل والعشائر أو بتدخل السلطة الموجودة ما عدا الاحتلال ·

ظلت الأمور عادية حتى نكبة عام ١٩٤٨ ، حيث لجأ فلسطينيون كثيرون ، ووصل قسم منهم الى الزابدة ، وبدأت تتسرب أفكار جديدة من التعصب ، وللأسف ، فإن زيادة نسبة التعليم فيما بعد ، زادت نسبة التعصب وأبعدت الناس عن طباعهم وسجاياهم، وأهم مظاهر هذا التعصب هو انقطاع العلاقات الاجتماعية كليا تقريبا ، ووقف تبادل الزيارات في المناسبات والأعياد بالشكل السابق ، وقد حاول المسيحيون تغيير موقع أول مسجد يقام في البلد ، لأنه يقع في المنطقة المسيحية · وعادت العلاقات لتصبح قوية ونموذجية في أيام الانتفاضة ، حيث كان الشبان المسلمون والمسيحيون يتلثمون ويتخفون لمواجهة قوات الإحتلال معا بيد واحدة وفي قلب واحد ، ونشأت صداقات خاصة بين هؤلاء الشبان دون أي تمييز بين مسلم ومسيحي مستمرة حتى اليوم ·

أعمق من السطح ···· أبعد من التعايش

تقلص عدد المسيحيين في فلسطين كثيرا بسبب الهجرة من ناحية ، والاقتناع الخاطئ بفوائد الأسرة قليلة العدد ، من ناحية أخرى ، كان في القدس نحو ٤٠ ألف مسيحي قبل خمسين

عاما ، والآن لا يصل عدد المسيحيين في المدينة المقدسة ٨ آلاف ، وزادت الهجرة تحت الاحتلال الإسرائيلي زيادة ملحوظة ·

أسباب الهجرة لم تكن اقتصادية ، إن كثيرين ممن هجروا كانوا أثرياء ، باعوا محلاتهم وأملاكهم وهاجروا، شبان كثيرون اختاروا الهجرة حتى قبل البدء بتأسيس أنفسهم وبناء حياتهم·

تحت الاحتلال وقع المسيحيون في إشكالية نظرة اليهود إليهم كعرب ونظرة بعض المسلمين إليهم كمسيحيين · لم يعد المسيحيون يشعرون بأن هذه البلاد هي لهم ، وأصابهم إحساس بأنهم يضيعون بين المسلمين واليهود ، كثيرون ممن هاجروا كانوا يقولون أنهم يبحثون عن مستقبل آمن لأبنائهم أو مستقبل أفضل لهم ، أخذ اليهود يتكاثرون في إسرائيل بالهجرة إليها ، وأخذ المسلمون يتكاثرون بالتناسل ، الوحيدين الذين نقصت أعدادهم في هذه البلاد هم المسيحيون للسببين الأوليين معكوسين، أي بسبب الهجرة إلى الخارج وعدم التناسل ·

إن شعور أي شخص تجاه الآخر ، يتأثر بموقف هذا الآخر منه ، ولا يمكن فصل نظرة المسيحي في هذه البلاد تجاه المسلم عن نظرة المسلم هذا تجاه المسيحي أو كيف يفهم الواحد منهم نظرة الآخر إليه ·

إننا حين نتحدث عن نظرة المسيحية للآخر أو نظرة الإسلام للآخر، فمن الواضح أننا نتحدث عن القضية الدينية ، ولا نتحدث عن القومية والهوية والوطنية التي تتداخل تداخلا لا انفصام له مع الدين ، من وجهة النظر الإسلامية ، وتمزج بين الدين والدولة مزجا كاملا ، بينما يختلف الحال مع الدول حيث توجد أغلبية مسيحية سواء في أوروبا أو دول أمريكا وأستراليا وغيرها ، لأن كل هذه الدول تقريبا فصلت بين الدين والسياسة ·

وازدياد نمو الحركات الأصولية أو الإسلامية السلفية ، وميلها إلى العنف حتى مع المسلمين الآخرين ، جعل القلة المسيحية تحس بالخطر القادم ، وتتحسب للمستقبل بنظرة سوداء ، ربما لهذا السبب بالذات ، نجد المسيحيين الفلسطينيين والعرب عموما ، ينغمسون في الحركات والأحزاب اليسارية ، ويتبنون مبادئ الليبرالية فصل الدين عن الدولة وكل ما يؤكد دورهم الوطني وبعد ما يعتقدون أنه خطر أصولي إسلامي ، كما كان المسيحيون في لبنان ومصر وسوريا وفلسطين في طليعة الدعاة إلى القومية العربية والعروبة والوحدة من المحيط الى الخليج على أسس قومية لا دينية ٠

وكلما ازداد نمو التيار الديني الأصولي الذي لا يبدو متسامحا ولا متعايشا مع غيره ، كلما ازدادت عزلة المسيحيين وازداد شعورهم بالاغتراب ، وازداد خوفهم من الآخر وشعورهم بعدم القدرة على التعايش في جو معاد ، وازداد بالتالي عداؤهم للآخر ونفورهم منه ٠

وليس سرا أن المسيحية لا تعترف بالإسلام ولا بانجيل برنابا ، وأن الإسلام ينظر إلى المسيحيين كذميين يدفعون الجزية أو كتابيين أقل رتبة من المسلمين ، أو مجرد كفار ٠ هكذا على الأقل يشعر المسيحي في نظرة المسلم إليه ، وهو يسمع وصفه بالكافر في كثير من المناسبات بألسنة الكبار والصغار ، والمتدينين وغير المتدينين ، ويتم وصف الدول أو القوى المسيحية بالكافرة إذا دخلت في خلاف مع دولة أو قوة إسلامية ٠

وهذا الشعور أو الإحساس ، يدركه المسلم الذي يعيش في بلد مسيحي ولكن بنسبة أقل ، لأن الدول المسيحية تفصل أساسا بين الدين والدولة ، بينما في الدول الإسلامية لا يمكن فصل أي شيء عن الدين، لا الدولة ولا القانون ولا الشخص ٠

تحت سطح التعايش نحن نواجه إذن هذه المعضلة، والحل ليس مستحيلاً إذا أردنا فعلاً تحويل التعايش إلى قبول وتفهم واعتراف بالتعددية الدينية ، لأن التعايش يرتبط بعوامل خارجية قد تكون السلطة ، أي سلطة ، أو الرأي العام المحلي والدولي ، أو ارتباط المصالح ، لكن القبول والفهم والاعتراف قضايا تنبع من الداخل والذات والقناعة ٠

وتحقيق هدف كهذا لا يكون بالشعارات ولا بالحديث عن الأخوة المسيحية الإسلامية والمصير المشترك فقط ، ولكن بترجمة كل هذا إلى قوانين ومواقف وممارسة وتوعية وتعليم ٠ ماذا يعلم كل طرف أبناءه في الاجتماعات المغلقة التي هي ليست للنشر ؟ لماذا يتم تجاهل كل ما هو مسيحي تقريباً في مناهج التربية والتعليم من كتب ومقررات وامتحانات، حتى لم نعد نجد طالباً مسيحياً واحداً في أي مدرسة رسمية إذا وجد بديلاً في مدرسة خاصة ؟ لماذا لا تعطل المؤسسات كلها ، وليس المسيحية أو المناطق التي يتواجد فيها مسيحيون فقط، في الأعياد المسيحية الأساسية ؟ وغير ذلك من القضايا التي تبدو صغيرة ولكنها بالحقيقة في غاية الأهمية ٠

إن الدفع باتجاه جعل الصراع أو الخلاف، دينياً ، سيؤدي الى حرب بلا نهاية ، وسيصرف الاهتمام عن القضايا الحقيقية للناس وهي توفير الغذاء والمسكن والوظيفة والعلاج والتعليم والشيخوخة الكريمة وكل البنية التحتية والفوقية وغير ذلك ، ولا حل إلا بالمواطنة الكاملة والمساواة التامة في الحقوق والواجبات ٠

****

المقالة الثامنة عشرة

نظرة الإسلام للأخر

د. إبراهيم أبو سالم *

مقدمه

إن الحمد لله نحمده سبحانه ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونستهديه ، صدق وهو القائل (وما بكم من نعمة فمن الله) (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لكن أعظم النعم وأجلها هداية الإنسان الى طاعته وحسن عبادته ، إذ أنه يسوي ذلك بنحدر كثيرا ويسفل كما بين تعالى فيقول: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) والإنسان من غير هداية بهيمة ، لا بل هي أفضل، كما جاء في التنزيل الكريم :(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) .

ونصلي أفضل صلاة وأزكاها على عبد الله ورسوله محمد بن عبد الله النبي الخاتم الذي جاء لبنة في بنيان الأنبياء ، فكملت الرسالات وارتفع البنيان ، جاء نورا مبينا ورحمة مهداة للبشر كافة أسودهم وأبيضهم ، أحمرهم وأصفرهم ، لا بل رحمة لكل المخلوقات لأنه خير من

---

* مدرس في كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة القدس

يوعد الى الرحمة بكل ذي روح وبكل ذي نفع حتى من الجمادات · صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان ·

وبعد ،،

فقد تلقيت كتابا من مركز الأبحاث المقدسي (باسيا) يدعوني للمشاركة في جلسة فكرية بورقة عمل عنوانها (نظرة الإسلام للآخر) وكنت أظن أن الحوار كله حول هذا العنوان، إلا أنني وجدت بعض الحضور من رجال الدين المسيحي ومن غير المتخصصين منهم ، يقدمون أوراقا بعنوان (نظرة المسيحية للآخر) فكانت الأفكار المطروحة خليطا غير متجانس من الأفكار المنوعة والمتضاربة أحيانا ·

تمهيد :

هذا العنوان كما يبدو لكل عين بصيرة، أو لكل متخصص هو عنوان واسع غاية في السعة ، ولربما يشمل المساحة الأكبر من ديننا الإسلامي العظيم ، فكل فقه المعاملات أو جله وكل العلاقات الدولية فروع مسيرة من هذا العنوان · فما يستطيع باحث أن يلم به أو يعطيه حقه أو بعض حقه ، وبما أن المطلوب وريقة تقع في بضع صفحات ، فلن تخلوا على فن الإيجاز المخل ، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ·

ولا بد لافتتاح الحديث عن هذا العنوان من الإشارة الى نقطتين :

الأولى : ضرورة التفريق ما بين الإسلام كدين عظيم شامل نزيه سامق وبين المسلمين وهم أتباعه ، إذ أن الأتباع كثيرا ما يعطون صورة غير مشرقة عن دينهم ، بل ربما يعطون المثل العكسي وليس المشرق عن الاسم الكبير الذي ينضوون تحت لوائه ، فإذا وجدت نماذج كثيرة

ترتكب الكبائر أو تترك الفرائض ، أو تتحدى الله ورسوله أو تحارب أولياء الله وحملة الرسالة والدعاة الى الدين ، أو توالي أعداء الله بكل أسمائهم وصفاتهم ، فلا بد للناظر من أن يعلم أن الإسلام ليس كذلك ، وهؤلاء المدعون ليسوا إلا حجة على أنفسهم وليس على دينهم ، ويظل الدين في جماله وإشراقه ·

الثانية : إن كلمة الآخر ليس معناها (المسيحي) فقط ، لأنه إذا كان المقصود هذا فلا بد من تغير العنوان ، ولربما يريد البعض أن يكون مدار الحديث (نظرة المسلمين المعاصرين لمسيحي الشرق) وبما أن العنوان المطلوب هو (نظرة الإسلام إلى الآخر) فكلمة (الآخر) شاملة كثيرا وغير محدودة ·

وعليه فقد رأيت من المناسب أن أتحدث عن نظرة الإسلام للآخر في عدة دوائر حتى أخرج عن العنوان المطلوب

الدائرة الأولى : سائر المخلوقات غير الإنسان

ويمكن قسمها الى قسمين : الأولى : كل ما فيه روح

من حق كل شيء أن يقول للإسلام بما أنك الدين الخاتم ، فكيف تنظر إلي ، وكيف تعاملني، وهذا حق طبيعي ولا غرابة فيه أن تنال عدالة الإسلام ورحمة حتى البهائم فلننظر على سبيل التمثيل لا الحصر :

١- روى ابن مسعود رضي الله عنه : قال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجة فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش فجاء

النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها ٠ " فالنبي الكريم لا يرضى إيذاء طائر من غير سبب ، لماذا يأخذ الناس فرخ عصفور دون الاستفادة منه ٠

٢- ومن أحاديثه الشريفة : (لعن الله من اتخذ عصفورا غرضا) فتلك لغة الله وهي الطرد من رحمته ، تنزل على من تلذذ بتعذيب عصفور جعله هدفا للتعلم على الرماية ، وبهذا جعل الإسلام اتخاذ هدف حي حراما ٠ فمن أراد أن يتعلم الرماية فعلى هدف جامد كحجر أو نحوه ٠

٣- ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت نمل قد حرق فقال: من حرق هذه ؟ قال بعض الحضور : نحن، فقال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار ٠فإذا كان هناك أذى من النمل ، فلتقتل النملة المؤذية، وليتجنب الإنسان إحراقها بالنار

٤- وقال عليه الصلاة والسلام : لأن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته ٠

لاحظوا (الإحسان على كل شيء) وهي أوسع كثيرا من الإنسان وهناك تخصيص بالحيوان فمن أراد أن يقتل فلا يعذب، ومن أراد أن يذبح فليحسن إلى المذبوح قبل ذبحه وأثناء ذبحه ، ومن وسائل الإحسان إراحة الذبيحة وإمضاء الشفرة أي السكين ٠

٥- وجاء في الحديث الشريف : (دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض) ٠ إن قتل قطة على سبيل العمد والإصرار بحبسها ومنعها من الحياة وحرمانها من أسباب العيش استدعى غضب الله ، ومعاملة المرأة بعقوبة مماثلة بل تزيد : إنها تستحق جهنم لأنه ليس في قلبها رحمة ٠

٦- دخل رجل الجنة بكلب سقاه ، إذا كانت سقيا كلب يلهث من شدة العطش تستدعي رحمة الله سبحانه وإدخال الرجل الجنة فهي رسالة لكل مسلم أن هذا الدين إحسان لكل المخلوقات ٠

هذه نماذج سريعة وصور خاطفة من الرحمة بالحيوان والإحسان إليه ، النافع منه والضار ، الذي يؤكل والذي لا يؤكل ، وهي رسالة للبشرية جميعا أن التفتوا إلى عظمة هذا الدين وتفكروا جيدا ٠

الثانية : ما ليس له روح

نستذكر من النصوص السابقة (أن الله كتب الإحسان على كل شيء) كما نذكر ما (ما كان الرفق في شيء إلا زانه ومن نزع الرفق من شيء إلا شأنه) ٠ ولا يمكن الفصل بين ما له روح وما ليس له روح كما لا يمكن الفصل ما بين الإنسان وغير الإنسان ، إذ أن كل شيء مسخر للإنسان وإذا حصل الضرر فالمخلوقات الأخرى وإذا ساء حال الكون من حول بني آدم كانوا هم المتضررين بالتأكيد لأن كل شيء مسخر لهم ومخلوق لأجلهم ، وهذا منصوص عليه غير مرة في القرآن الكريم منها (سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) ٠ ومن هذا المنطلق كانت الدعوة النبوية إلى الإتقان ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه "، لاحظوا كلمة (عملا) أي عمل من أعمال الدنيا ٠ ولنمثل على ذلك بالبناء : إن حسن البناء وجودته معلم إسلامي وحين يتقن المهندس عمله والبناء عمله يكونون في طاعة ورضى من الله تعالى٠ والمتدبر لهذا النص ولهذه الفكرة يجد ثمرات ذلك ونتائجه على أرض الواقع ، فإذا ما كان

غش في مبنى ثم انهار يوما ، ففضلا عن الخسائر المادية والاقتصادية فالخسائر في الأرواح لا تقدر بثمن لأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، هو ذو الحرمة الأعظم والمقام الأسمى من كافة المخلوقات.

ولنضرب مثلا آخر على اهتمام الإسلام بغير الأرواح لعلاقتها المباشرة بكل ذي روح ثم بالتالي بالإنسان نفسه : قال صلى الله علي وسلم : " إذا قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها " عجبا لهذا الدين الذي يدعوا إلى غرس فسيلة ولو أن القيامة تقوم مباشرة ، ومما لا يحتاج إلى النظر أن هذه الفسيلة لن يأكل منها أحد لأن البشر سيموتون بوجود القيامة وحصولها ، ومع ذلك فزراعة الفسيلة عبادة في حد ذاتها .

يريد الإسلام أن يقول : العمل والبناء والغرس من أهم أولويات الإسلام ، وهي عبادة مستقلة بذاتها لما تؤثر أي بناء حياة المخلوقات الحية التي قال عنها صلى الله عليه وسلم (وفي كل كبد رطبة أجر) ومن ثم على حياة الإنسان خليفة الله تعالى في الأرض .

الدائرة الثانية : دائرة الإنسان غير ذي الدين

الإسلام ينظر إلى كل البشر من ولد آدم على أن هناك علاقة مشتركة وصلة رحم .وذلك من حيث :

١- أنهم أخوة في الإنسانية أبوهم واحد هو آدم عليه السلام وأمهم واحدة هي حواء . فكم مرة في القرآن الكريم كان الخطاب ب (يا أيها الناس) وخاصة في المرحلة المكية ؟ ونمثل لذلك بأول آية في سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان

عليكم رقيبا) · ومن الجدير بالذكر أن أهل البشرية وقصة آدم وحواء مشار إليها في الكتب السماوية جميعا مع الاختلاف في التفاصيل ·

وهذا النداء للبشر من ذرية آدم كثيرا ما يتضمن الدعوة إلى عبادة الله وتقواه ، وتذكر الآخرة وحسن العمل ، لأن الخالق المنعم يستحق العبادة والشكر

٢- الإنسان خليفة الله في الأرض

قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) ، هذا هو الله سبحانه يخص من بين مخلوقاته جميعا الإنسان بهذا الوسام الكبير ، فيجعله خليفة له في الأرض ليعمر ويستثمر ويبني ويسكن ، فكل الناس مخولون بهذا البناء ، ورغم تساؤل الملائكة (أيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون) · وفي ذلك إظهار لفضل آدم وذرية آدم ورئاسته وإمكاناته ثم في طياتها بيان أن الذين يفسدون في الأرض هم عاقون لأبيهم مستنكفون عن الوظيفة المنوطة بهم ·

٣- آدم أبو البشر جميعا نفخه من روح الله مخلوق بيديه

قال سبحانه " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " فلنلاحظ هذا التكريم العظيم ، والله يعاقب إبليس (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ؟· فالإنسان المخلوق بيدي الله والنفخة من روحه تشمل سائر ذرية آدم عليه السلام ، فهم سواء في هذا الشرف في الإنتماء إلى أب مكرم ومخصوص ، فتكون البشرية بذلك أسرة واحدة وأفرادها أشقاء·

٤- رسالة الإسلام لكل من ينطبق عليه اسم (إنسان)

وهذا ما نص عليه القرآن الكريم (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) · ولذلك فإن كل الناس مكلفون بالتفكير والتمحيص والتدبر والنظر ثم بالإذعان لعبادة الله وحده وبعد ذلك الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي الآية تذكير بوحدة الله وقدرته على الإيمان والأمانة والبعث ، كما أن فيها بعض الأدلة على نبوة النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه

٥- الناس سواسية ولا تفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح

قال تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) · بهذا لا ينظر الإنسان إلى أخيه الإنسان نظرة استعلاء أو فوقية أو ازدراء ، والذي يجعل الفرد عظيما كبيرا هو ما يقدمه من عمل صالح سواء كان ذلك في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق · ولهذا كان الناس ولا يزالون يتعاظمون بأنسابهم وقبائلهم وألوانهم ، فالأبيض يرى أن الأسود دونه ، لا يصاهره ولا يحترمه ، وإذا عامله استخدمه وكذا القرشي كان يرى أنه أكرم من أي قبيلة أخرى من قبائل الجزيرة · فجاء هذا النص وسواه في القرآن الكريم والسنة المطهرة يضع النقاط على الحروف في الميزان الذي يشرح أسباب التفاضل بين الناس · وهذا ما أكد عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع في أوسط أيام التشريق ·

" يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمد إلا بالتقوى" ، ويتجلى هذا المعنى حتى مع

أقرب الناس ، النبي أو الرسول ، فزوجة نوح وكذا زوجة لوط ·عنهما قال سبحانه: (وقيل ادخلا النار مع الداخلين) · وكذا ولد نوح (يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح) ، وليصبح هذا المعنى في غاية البيان ، كان خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل بيته وبخاصة (يا فاطمة ، اشتري نفسك من الله فإني لا أغني عنك من الله شيئا) ·

هذا الإطار العام من البشر مهما كان معتقده بيننا وبينهم عوامل مشتركة ، ولهم علينا حقوق ، وإن تنكروا للواجبات الملقاة على عواتقهم ، فعلى سبيل المثال :

١- لا يجوز ظلم هؤلاء ، قال تعالى: " وإذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل" ، وجاء في الحديث " الظلم ظلمات يوم القيامة "

٢- ولا غشهم ، وجاء في الحديث ، " من غش فليس منا"

٣- ولا شتمهم " ليس المؤمن باللعان ولا الطعان ولا الفاحش ولا البذيء "

٤- هؤلاء ليسوا أقل شأنا من الدواب التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم " وفي كل كبد رطب أجر"· إذن نطعمهم ونكسوهم وننفق عليهم · وقد أطعم رسول الله مشركا وجالسه حتى شبع ·

٥- من حقهم علينا دعوتهم للإسلام ، وتحسين صورة الدين لهم ، وهذا أبسط توضيح للآيات الكثيرة التي تخاطب الناس جميعا بلفظ (يا أيها الناس) ولفظ (يا بني آدم) ·

٦- إذا مرض هؤلاء نطببهم لأنهم أنفس ، وإذا ماتوا ندفنهم في مقابر خاصة بهم ، ولا نؤذي قبورهم ، لأن إيذاء الميت كإيذاء الحي ·

الدائرة الثالثة : أصحاب الكتب السماوية

نقصد بذلك اليهود والنصارى ، الذين كان ما نزل لهم من السماء التوراة والإنجيل ، على موسى وعيسى عليهما السلام ، وفكرة الأديان السماوية تلتقي في أمرين :

أولا: معرفة صفات الله سبحانه والاعتقاد بكماله ونزاهته عن كل نقص والإيمان بالنبي والإقتداء به

ثانيا : وجود تشريعات للدين في جوانب مختلفة سواء كان لها علاقة بالله تعالى أو بالناس بعضهم ببعض .

وغالبا ما تكون الخطوط الأولى متشابهة بين الأديان ، فصفات الله هي هي ، وقد تختلف بعض الألفاظ أو الأدعية أو ما إلى ذلك . وعليه فإن الدين واحد ، والإيمان وجب ، وأهل الأديان كلهم مسلمون أثناء وجود رسلهم وإبان اتباعهم الدقيق لما أوحاه الله اليهم . ولنستمع للقرآن الكريم : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين)، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل إلها واحدا ونحن له مسلمون " . فالمقصود من الإسلام تكرر ذكره في الآيات : أصل الأديان وأصل العقائد واحد هو الإسلام لله سبحانه والإذعان لما جاء على ألسنة الأنبياء ونبذ الشرك في العقائد والأقوال والأفعال.

ولما كان أصل الأديان مشتركا ، كان لا بد أن ننظر إلى كل ذي دين سماوي نظرة متميزة عن سواه ، لأن بيننا وبينهم عوامل مشتركة أو بعبارة أخرى نقاط التقاء ، وفي هذا المعنى قوله سبحانه :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ويمكن الحديث حول أصحاب الديانات الباقية حتى اليوم في النقاط التالية :

١- على المسلم الاعتقاد بالكتب السماوية والأنبياء والرسل إيمانا لا يتاب شك ولا يزعزعه شيء٠ قال تعالى : "كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"٠ وقال : " والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما " ٠ فلا ينبغي لمسلم أن تحصل عنده ردة فعل من مواقف غير المسلمين من الإسلام ، قد يتطاول على نبي من أنبياء الله الصالحين كموسى وعيسى عليهما السلام ، أو إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، فأولئكم رسل مكرمون ، الإيمان بهم واجب وهم ممن اصطفاهم الله بالرسالة واختصهم بالوحي ، وقد كانوا معصومين منزهين في أفعالهم وأقوالهم ، وكانوا مثلا يحتذى في الخير وأسوة في الفضائل ، كما لا يجوز لمسلم أن يتعدى بأية وسيلة على التوراة والإنجيل ، باعتبارها كتبا سماوية خالصة ، والحديث الآن عن أصل التوراة والإنجيل ، أما ما هو اليوم بين أيديهم تحت اسم (الكتاب المقدس) ، فليس هناك عاقل منهم ومن غيرهم يستطيع الزعم بأن هذا هو الكتاب الذي نزل على موسى وعيسى ، ولا مجال الآن للتفصيل في هذا الأمر ٠ كما لا يجوز للمسلم أن يؤمن بنبي دون آخر ، أو كتاب دون غيره ، فلا بد من الإيمان والتصديق بوجود هذه الكتب ، وأولئك الرسل في حقبة زمنية ، وأنهم لبنات في بنيان الدين المتكامل، وكان آخر هذه اللبنات الجملة والمكملة البعثة الخاتمة ، وعلى المسلم أن يعتقد أن هناك رسلا لا

يعرفهم ولهم رسالات وأمم ، يقول الله سبحانه : " إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، فأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما "

٢- المسلم يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن

قال تعالى :" ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون " ٠ والمقصود من مجادلتهم بالتي هي أحسن : أي الطريقة المثلى ببيان الحجة البالغة والدليل البين الواضح ٠ وهذا الأسلوب الأحسن هو خلق إسلامي دائم ينص عليه القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، (اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ، لنلاحظ (قولا لينا) من طراز (بالتي هي أحسن) أي لا تكن منفرا ولا تكن حجتك عليك ٠ ونلاحظ في نفس الآيه (الذين ظلموا منهم) مما يدل على وجود قاسطين ومقسطين ٠

فتكون بذلك رسالة الإسلام هي الخاتم والمكمل لما ورد في الحديث : (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا بوضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) ٠ إذن هناك تكامل بين الرسالات والرسل ووحدة بين الشرائع ، فما جاء الإسلام لينسف أو يهدم دائما ، يبني على ما كان وشتان ما بين الباني والهادم والمؤمن والكافر٠ وفي نفس المعنى جاء الحديث الآخر

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، لم يقل جئت لأنشر مكارم الأخلاق أو لأنشئ،وإنما (لأتمم)، فلا أزعم أن من قبلي كانوا صفرا أو شيئا مهملا ، لا بل هم أسس الأخلاق وأسس الفضائل وها أنا أسير في نفس الطريق وأعمل على نفس النسق ٠

وفي الحديث بوضوح وجلاء أن الإسلام جاء مكملا متمما أي فيه الكمال والتمام ، فما بعده نقص وما بعده ولادات وإحداثات ٠ ولما كان هناك تكامل وتداخل بين الرسالات كان الأمر الإلهي أن تجادلهم ليس بالحسنى وإنما (بالتي هي أحسن) ٠

٣- بعض أهل الكتاب آمنوا بالإسلام

قال سبحانه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا تتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليهم لا نبتغي الجاهلين) ٠ وقد شهد التاريخ الكثيرين من أهل الكتاب وبخاصة النصارى يعلنون انتماءهم للإسلام الحنيف وذلك منذ فجر الإسلام وحتى اليوم، وإن كانت هذه الظاهرة باتساع كبير في الغرب وعلى أضيع نطاق في الشرق ولذلك أسباب لا مجال لذكرها الآن ٠ ولقد كان لنزاهة الإسلام وأخلاق المسلمين فضلا عن شموله وموضوعيته الأثر الكبير في إيمان الأعداد الهائلة من غير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ٠

٤- لأهل الكتاب حجة العقيدة

وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) ٠

٥- ولهم حرية العبادة

فما شرع في دينهم أو ما يعتقدونه هم من حل الخمر والخنزير لا يقف الإسلام حائلا دون أفعالهم ومعتقداتهم ، وحسبنا الإشارة الى الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وبخاصة في فلسطين ، وموقف عمر بن الخطاب من الصلاة في كنيسة القيامة ، ثم ما ترتب على زيارته لبيت المقدس من عقد العهدة العمرية ٠

٦- لا يجوز إيذاؤهم ، وحسبنا أن نذكر الحديث النبوي الشريف " من آذى ذميا فقد آذاني " ٠

٧- الإسلام في غاية الموضوعية في النظر إلى أهل الكتاب ، الأفعال الحسنة منهم ، ويذم القبيحة ، ولا يعمم سوءهم عليهم جميعا ، ومن أمثلة ذلك : " ومنهم من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده اليك ، إلا ما دمت عليه قائما ٠

وفي النصارى قال : " ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون " ٠

٨- نتزوج منهم ولا نزوجهم ونأكل من ذبائحهم ٠

لقوله سبحانه (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامهم حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان) ٠ فالعلاقات الاجتماعية الطيبة التي تصل إلى حد الزواج مزروعة باعتبار النصرانية مؤمنة بالكتاب السماوي معتقدة بصفات الله تعالى ، فهي قريبة للإيمان الصحيح ولما كان (الرجال قوامون على النساء) ٠ فالزواج الصالح يكسر آخر حاجز بين زوجته النصرانية والإسلام ، ويكون سببا في إنقاذها من العذاب وبالتالي دخولها الجنة ٠

٩- لهم علينا واجب أن نذكرهم بالله وندعوهم للإيمان

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) ٠

وما أسلفت يضاف إليه الحقوق العامة للإنسان بعامة لأن أهل الكتاب يدخلون في ذلك العموم ٠

تلكم أبرز النقاط التي رأيت من المناسب الحديث عنها مؤكداً على الآية الكريمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) مشيراً إلى أن الموضوع واسع سعة لا يطيقها بحث محدد أو ورقة عمل محصورة ٠

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) ٠

****